مجلة كلية الآداب

العدد التاسع عشر

١٩٦٥

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالشئون العلمية إلى
الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال
عميد الكلية ومدير تحرير المجلة

مطبعة جامعة الإسكندرية
١٩٦٦

فهرس القسم العربى

١ – عطيات عبد القادر

النظرة الجغرافية فى مسألة كشمير ٣

٢ – طه ندا

بخـارى ٣٧

٣ – حسن سيد أحمد أبو العينين

الدراسة الجيومورفولوجية ١٠٣

٤ – فاطمه سالم سيف

فن الشعر لهوراتيوس ١٣٩

٥ – على عبد الوهاب شاهين

ملاحظات على جيومورفولوجية المنطقة الشرقية . . ١٩٣

النظرة الجغرافية فى مسألة كشمير

للدكتورة عطيات عبد القادر حمدى

اتخذت مسألة كشمير دوراً سياسياً خطيراً خلال السنوات الأخيرة منذ تقسيم شبه القارة الهندية إلى جمهوريتى الهند (١) وباكستان فى ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ . ومنذ ذلك الحين لم تهدأ أى من الدولتين فى طلب ضم كشمير اليها متخذة فى ذلك مختلف الحجج . وقد كان لزيارتى لهذه الأقاليم وحياتى بين سكانها بضعة أعوام أثر فى لمسنا بعض مشاعر الناس هناك ومشاركتنا المشكلة من قريب .

وأصل المشكلة بدأت مع تقسيم جمهوريتى شبه القارة وبقيت كشمير لتتخذ قراراً بالانضمام إلى إحدى الدولتين المتنازعتين .

فكشمير التى يبلغ عدد المسلمين بها أكثر من ¾ عدد السكان كان يحكمها حاكم هندوكى . وفى عام ١٩٤٧ لم يعلن هذا الحاكم الهندى انضمامه لأى من الدولتين ولكن المسلمين فى كشمير أرادوا الانضمام إلى باكستان المسلمة وقاموا بثورة مسلحة مما جعل حاكمها يطلب انضمامه إلى الهند خوفاً . وبعد ذلك تكونت فى كشمير حرة (أزاد كشمير) حكومة منفصلة .

ومنذ ذلك الحين ومسألة كشمير ولا زال النزاع قائماً إلى الوقت الحاضر ولا زالت هيئة الأمم المتحدة تعقد جلسات لحل هذا النزاع . وتترك مناقشات هيئة الأمم وندرس مشكلة كشمير من خلال المنظار الجغرافى الذى يتفحص أصل المسائل مثار النزاع فى كل جهات العالم ويحاول ارجاعها إلى أصولها الأولى .

---

(١) تسمى هناك « بهارت » ويفضل من بها أن يقول « بهارت ماتا » أى « أمنا الهند » .

فالمسألة لم تعد كون المسلمين غالبية والهندوس أقلية فى كشمير وانما المسألة أن جذورها تتعمق فى أرض كشمير نفسها تعمقاً كبيراً فرضته العوامل الجغرافية المختلفة الطبيعية والبشرية قبل أن تفرضه رغبة الانسان فى ذلك الجزء من شبه القارة الهندية .

ولقد تناول كثير من الباحثين المشكلة من وجهات نظر سياسية ولكن أحداً لم يبحثها من وجهة النظر الجغرافية البحتة . ويظهر أن مشكلة كشمير من أعقد المشاكل التى يواجهها العالم فى الوقت الحاضر . وقد أحس بذلك كل من تناول المسألة بالبحث . ذلك أن كلا الطرفين متمسك برأيه لا يحيد عنه . فأما الهند وقد استولت عن طريق الحرب على نصيب الأسد من الاقليم فقد أصمت أذنها عن كل نداء وأخذت فعلا فى تمهيد (١) الجزء الذى استولت عليه من كشمير ليصبح جزءا من أرض الهند .

ولكن الناظر الجغرافى يتفحص مسألة كشمير على الأسس الآتية :

١ — أسس طبيعية تتعلق بشكل التضاريس والطرق التى هيأتها تلك التضاريس فأدت إلى مسألة استراتيجية أثرت فى العلاقة بين كشمير وجيرانها وبخاصة باكستان .

٢ — أسس اقتصادية تتعلق بنوع الحياة التى يحياها أهل كشمير وأهميتها الاقتصادية وعلاقة هذه الحياة بحياة الدولتين المتنازعتين .

٣ — أسس دينية وسياسية تتعلق بالأصل فى تقسيم شبه القارة بين الهند وباكستان .

(أولا) الأسس الطبيعية .

تعتبر كشمير إقليما جبليا شاهق الارتفاع يشغل الجزء الأكبر منه الجانب الغربى من الهيمالايا ويشغل الباقى جزءاً من سهول البنجاب العليا .

---

(١) East (W.G.) & spate (O.H.K.) The changng Map of Asia, London 1961, P. 158.

كشمير وما

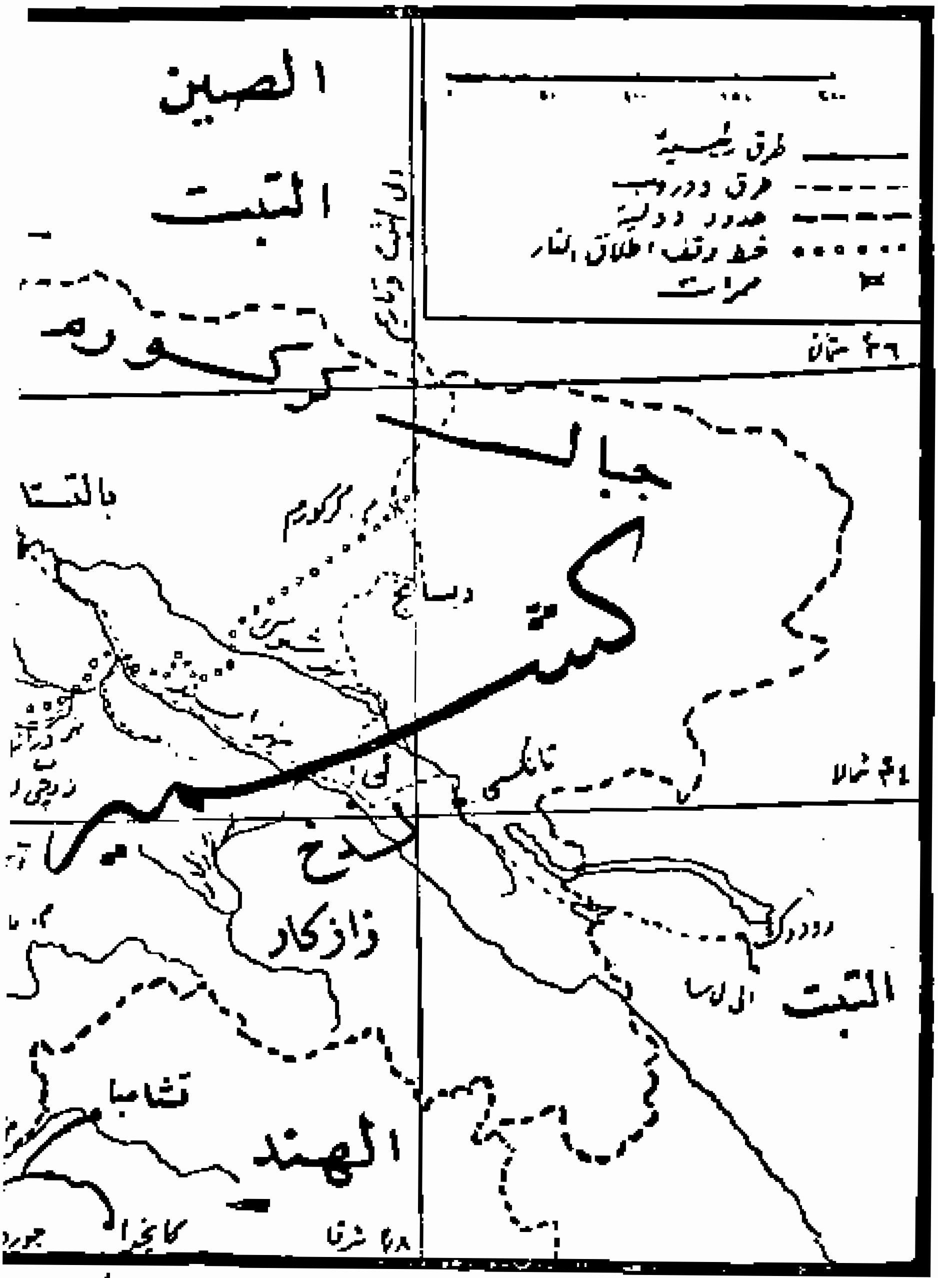

عطيات عبد القادر حمدي - النظرة الجغرافية في مسألة كشمير

ـتاخمها

١٩٦٥

(شكل ١)

وهى بلاد بكر جبلية «كثيراً ماسميت «جنة الأرض» (١) أما اسم كشمير فهو من أصل سانسكريتى Kasmira (٢) نسبة إلى قبائل Khasa القديمة التى كانت تسكن شمال الهند . وقد ذكرت كشمير فى بعض الكتب العربية باسم «قشمير» مثل الهمذانى (٣) والبلاذرى (٤) وتشمل كشمير ولايتى جامو وكشمير . وهى بذلك تشمل المنطقة الجبلية من حوض السند الأعلى وجهيلم وجزءاً من وادى شناب ابتداء من اطراف سهول البنجاب حتى جبال كراكورم وهى بذلك تعتبر جزءا من النطاق الجبلى العظيم الذى يحف بشبه القارة الهندية من الشمال أنظر شكل (١) .

وهذا الاقليم عبارة عن عدة سلاسل جبلية تتلو بعضها بعضا وتحجز فيما بينها وديان وخوانق عميقة . والسبب فى هذا المظهر الفزيوجرافى الوعر أن تلك المنطقة عبارة عن منطقة التوائية شديدة تتفرع فى الأصل من عقدة بامير ثم تتجه نحو جنوب الشرق . ولهذه السلاسل مقدمات فى الجنوب تظهر فى شكل تلال أقل ارتفاعاً وتشرف على سهول البنجاب . وإنى أقسم هذه المنطقة إلى ثلاثة أقاليم تضاريسية لتسهيل دراستها ومعرفة مميزات كل منها .

١ — قسم [illegible]

٢ — قسم وادى كشمير .

٣ — القسم الجنوبى .

أ — القسم [illegible] مقدمات الحركة الألبية ويسمى سلاسل [illegible] Pir Panjal . و[illegible] قسم وادى كشمير فما هو الا وادى نهر

---

(١) أطلق الفرنسيون على وادى كشمير هذا الاسم قديما لجمال مناخه وغناه من:
Sion (J.) Asie des Moussons (geogr. Univers. T. IX, 2eme P. Paris 1929, P. 291

(٢) Gwasha Lal Kaul, Kashmir, Srinagar 1963 P. 17

(٣) الهمذانى ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى) مختصر البلدان . طبعة ليدن ١٣٠٢ هـ ص ٢٢٤ .

(٤) البلاذرى الامام أحمد بن يحى بن جابر البغدادى — فتوح البلدان طبعة القاهرة ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م ص ٤٥١

وأما وادى كشمير فما هو الا وادى نهر جهيلم الأعلى . وقد جعلناه هنا اقليما دون سائر الوديان لأنه أهمها وبه أكثر سكان كشمير وأهم مدنها . أما بقية وديان الأنهار فما هي الا خوانق عميقة وضيقة ولا تستعمل الا كطرق في فصل الشتاء . أما الاقليم الثالث وهو مناطق الجبال العالية فيشمل في مواقع السلاسل الرئيسية للهيمالايا ويمتد في اقليم لدخ Ladakh وبالتستان Baltistan وجلجيت Gilgit . ويحف باقليم كشمير من الشمال الشرق سلسلة جبال كركورم وهذه لها أهميتها في الصلات بين كشمير والتبت .

١ — اقليم التلال : ترتفع سهول البنجاب بالتدريج كلما اتجهنا نحو الشمال الشرقي ويتراوح الارتفاع من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر في الجنوب ، ٦٠٠ إلى ١٢٠٠ متر في الاطراف الشمالية الشرقية . وفي هذه المنطقة تسير الحدود بين البنجاب وكشمير . ويستمر الاقليم في الارتفاع حتى يصل إلى ١٨٠٠ أو ٢٤٠٠ متر في سلسلة بيربنجال . وقد يزيد الارتفاع عن ذلك في تلك السلسلة فيصل إلى حوالي ٥٠٠٠ متر في بعض قممها وبذلك فان هذه السلسلة تشرف من الشرق على وادى كشمير ومن الغرب على سهول بنجاب عليا (أي أقاليم جامو (Jammu) ، ريسى Riasi ، بونش Punch . وتسير حدود كشمير الغربية هنا مع نهر جهيلم الأوسط الذى يمتد في هذا الجزء من الشمال إلى الجنوب تماما . ويفصل اقليم بونش وجامو (كشمير) عن مقاطعة الحزارى وبنجاب الغربية (باكستان) .

وبهذه المنطقة الجبلية بعض الممرات الهامة جداً في الصلات بين كشمير وباكستان أهمها ممر بانيهال Banihal وممر بيربنجال .

٢ — اقليم وادى كشمير : يعتبر وادى كشمير قلب كشمير النابض بالحياة . ويقع محصوراً بين جبال بير بنجال وسلسلة الهيمالايا العظمى وبذلك يكون واديا مغلقاً . ويبلغ طول هذا الوادى حوالى ١٣٠ كيلو متراً وعرضه ٤٠ كيلو متراً ويتراوح ارتفاعه فيما بين ٢٠٠٠ ، ٢٥٠٠ متر . ويصل في بعض المناطق إلى ١٧٠٠ متر . ويجرى نهر جهيلم الأعلى في وادى كشمير ويسمى باللغة السانسكريتية Vitasta وكان يسميه الجغرافيون الرومان باسم Hydaspes

والنهر هنا بطيء الجريان كثير التعاريج . ويجرى نهر جهيلم فى الوادى قريبا من الحائط الشمالى . ولذلك يتسع الوادى فى جنوب مجرى النهر . ويبدأ نهر جهيلم بالقرب من ممر ماربول Marbul (ارتفاعه حوالى ٣٨٠٠ متر) ثم يتجه نحو الشمال الغربى حتى اسلام أباد وهى التى تقع عند الطرف الجنوبى لوادى كشمير على نهر جهيلم وعند اسلام أباد يدخل النهر وادى كشمير . وتأتى اليه الروافد الجبلية العديدة من بيرپنجال والهيمالايا العظمى ويسير مقدار ٦٤ك مترا حتى مدينة سرينجار Srinagar عاصمة كشمير . وإلى شمال سرينجار بقليل يتصل بجهيلم نهر صغير ينبع من سلسلة الهيمالايا العظمى بالقرب من ممر زوجى لا Zoji la ويدعى نهر سند Sind(١) وهذا النهر أهميته يعتبر طريقاً لوادى كشمير نحو الشرق .

وهنا يكون ارتفاع جهيلم ١٧٠٠ متر تقريباً فوق سطح البحر . وبعد سرينجار بمسافة ٤٠ كيلومتر يصل نهر جهيلم إلى بحيرة فولر Wular ومساحتها [illegible] ويبلغ عمق هذه البحيرة حوالى ٥ ؟ متر ثم يترك البحيرة بالقرب من مدينة سبور Sopur وتكون مياهه خالية من الرواسب ويتجه نحو الجنوب الغربى ويكون تياره بطيئاً [illegible] (٢) حتى يصل إلى فتحة بارامولا Baramula وهنا يصبح النهر [illegible] سريع الجريان [illegible] ويستمر [illegible] حتى مدينة مظفر أباد وإلى غرب مظفر أباد [illegible] حدود كشمير يتجه النهر بسرعة نحو الجنوب فيسير مع الحدود [illegible] الكشميرية وعند مظفر أباد يلتقى به رافده كيشن جنجا Kishen ganga الآتى من الشرق من [illegible] الهيمالايا العظمى [illegible]

من هذا نجد أن نهر جهيلم يكون صالحاً للملاحة النهرية فى مسافة ٢٠٠ كيلومتراً فى [illegible] بين اسلام أباد وبارامولا . ولكن الملاحة [illegible] بعد ذلك غرب (بارامولا) حتى يخرج النهر [illegible] . ويعتبر نهر جهيلم وروافده العديدة المياه التى تغذى أرض كشمير وهو يعتبر [illegible] رئيسيا فيها . ويقدر [illegible] وجود بعض البحيرات [illegible] والمستنقعات [illegible]

---

(١) يسمى هنا النهر سند Sind وهو غير نهر السند Indus
(٢) Herbertson (F.D.) Asia, London 1913, P. 122,

سبيت spate (١) أن هذه البحيرات تكونت نتيجة لتعرجات نهر جهيلم في الوادي إذ أن المجاري القديمة للنهر تهمل تملؤها المياه وتكون مستنقعات أو بحيرات .

وأهم بحيرات في الحوض عدا بحيرة فولر نجد «ناجين» و «دال» وتقعان شمال مدينة سرينجار وتمتاز بوجود قوارب وسفن يسكنها الأثرياء والسواح على الشواطيء House boat (٢) .

ومن أهم الظاهرات في الوادي كذلك ظاهرة الأراضي الطينية المقطعة . والمنتشرة بين أجزاء الوادي . وتسمى هناك باسم كاريوا Karewa وهي عبارة عن جزر صغيرة مكونة من مواد طينية أو حجرية بينها تقاطع الروافد العديدة الصغيرة في الحوض ويصل سمكها إلى ٣٠ أو ١٠٠ متر . وتوجد هذه الجزر في الغالب منعزلة وفي أحيان أخرى توجد قريبة من سفوح الجبال المحيطة بالوادي حيث تنحدر الروافد الجبلية . وبعض هذه المناطق قاحل غير مزروع وبعضها مزروع ويعتمد على الأمطار . أما الكاريوا القريبة من جبال بيربنجال فتنمو بها غابات صنوبرية .

وتقع مدينة سرينجار في وسط الحوض تقريباً وتسمى مدينة الشمس (٢) وبها آثار الفتح الاسلامي المغولي في شكل حدائق جميلة التنسيق منها حدائق شاليمار shalimar , Sishat (٤) وتشرف على بحيرة دال . شكل (٣)

ولولا نهر جهيلم الذي يقطع الوادي من الشمال الغربي لأصبح وادي كشمير وادياً منعزلاً بسبب احاطة الجبال به من كل جانب . وكذلك الجانب الشمالي الشرقي الذي يقطعه نهر سند صانعاً ممراً إلى الهمالايا العظمى . ولقد كانت الطبيعة رحيمة بوادي كشمير إذ أحاطت به الممرات وربطت صلاته ببقية أرض كشمير بل والعالم الخارجي وكانت هذه المنافذ سلاحاً ذا حدين

---

(١) S pate (O.H.K.) India & Pakistan, London1960, p. 374.

(٢) نرج جبران – تعال معي الى باكستان – القاهرة ١٩٥٥ ص ٧٥

(٣) Knight (E.F) Where three Empires Meet, London 1919, P. 35.

(٤) The M.I.B., government of India, The Handbook of India, 1951, P. 101

إذ جعلت الحوض يتصل بالخارج ويتاجر مع بلاد بعيدة ومع ذلك جعلت سكان الجبال يطمعون فى خيرات الوادى ويحاولون الاستيلاء عليه أثناء عهود طويلة من التاريخ .

وأهمها فى غرب الحوض : ممر بيربنجال وبانيهال وحاج پير وپتان پير وراجا أورى — وهى تصل الحوض بأقاليم بونش وجامو وما وراءهما من أراضى باكستان . ثم ممرات المرجان وهوكسار ومارابان وتصل حوض كشمير بأودية راوى وشناب (باكستان) .

أما فى شرق الحوض : فنجد ممر بورزيل وهو ممر مهم يصل حوض كشمير بإقليم جلجيت فى الشمال . ثم ممر زوجى لا وله أهمية كبيرة من حيث أنه أقل ممرات الهيمالايا العظمى ارتفاعاً . ويتصل حوض كشمير بكل من كركورم وما وراءها من أرض سينكيانج ثم التبت ثم الصين بذلك . وستظهر أهمية هذه الممرات عند الكلام عن الطرق وأهميتها الاستراتيجية .

وبهذه الممرات لم يصبح الحوض منعزلا بل أصبح فى طريق الاتصال بين هذه الأقاليم الجبلية الوعرة لسهولة الوصول إليه .

٣ - إقليم الجبال العالية : يكون هذا القسم الجزء الأكبر من كشمير ويقع فى شمال وادى كشمير وشرقه . ويتكون الإقليم من سلاسل عالية يتلو بعضها بعضا وتتجه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى . وتكثر بها القمم العالية التى تغطيها الثلوج . ويتكون هذا الإقليم من سلسلة الهيمالايا العظمى ثم كتلتى لدخ وبالتستان وجلجيت . وتفصل الهيمالايا العظمى عن الكتل الثلاث الأخيرة وادى نهر السند الأعلى .

فأما الهيمالايا العظمى فهى كتلة عظيمة من السلاسل الجبلية تقع بين وادى كشمير وحوض السند الأعلى . وهى تعتبر خط تقسيم المياه بين الحوضين إذ ينحدر منها كيشن جنجا وسند sind نحو حوض كشمير ثم أستور Astor ثم شبجار ودراز وزازكار إلى حوض السند .

والهمالايا فى هذا الجزء شديدة التقطع وتعتبر كتلة نانجاباربات إحدى الكتل المنفصلة عن السلسلة الرئيسية وتقع بين ممرى بورزيل فى الشرق وبابوسار فى الغرب . وهما من أهم الممرات فى اقليم كوهستان وجلجيت .

كتلة لدخ Ladakh تكاد هذه الكتلة أن تكون جزيرة كبيرة مستطيلة يبلغ طولها ٣٠٦ ك متراً وترتفع الى حوالى ٣٥٠٠ متر وتقع فى وسط هذا المحيط الذى تتكون موجاته من سلاسل جبال التوائية يعلو بعضها بعضاً . فكتلة لدخ تكاد تحيط بها المياه من جميع الجوانب . وهذه المياه عبارة عن روافد جبلية عديدة تنحدر من المرتفعات المجاورة . وهذه الكتلة تتجه أيضاً من الشمال الغربى نحو الجنوب الشرقى وتوازى سلسلة الهمالايا العظمى . والى شمالها الشرقى يسير وادى نهر شيوك shyok رافد السند حيث يلتقى به عند النهاية الشمالية لهذه السلاسل والى جنوبها الغربى يمتد وادى السند الاعلى نفسه . كما يعتبر طرفها الجنوبى خط تقسيم مياه بين روافد السند من جهة وشيوك من جهة أخرى . وتمتاز الروافد الجنوبية عن أن أوديتها عريضة نسبياً .

ويسير وادى السند الأعلى فى شكل خانق ضيق لمسافة ٨٠٠ ك متر (١) ولا يتسع الا عند مدينة لى Lhé . وتكاد هذه المدينة فى حوض السند الأعلى أن تشبه مدينة سرينجار فى حوض [illegible] مع الفارق بينهما . وهى تكون سوقاً تجارياً رئيسياً [illegible] القارة الهندية وهضبة التبت وتركستان وسيبيريا . وتتقابل عندها قوافل التجارة الآتية من الطرفين . وقلما تعبر قافلة وسط آسيا الى أبعد من [illegible] كما أنه نادراً ما تسير قوافل الهند الى أبعد من هذه [illegible] (٢) لذلك فهم [illegible] يتبادلون التجارة بضائعهم ويستريحون من عناء السفر . و[illegible] المعارف والأفكار ويقول بامزاى Bamzai [illegible] تعتبر مخزناً [illegible] (٣) وقد استولت الهند على هذه المدينة وأصبح خط وقف اطلاق النار [illegible] قرب مدينة لى .

---

(١) Holdich (Sir T.H.) India, London, P 118.

(٢) Grenard (F) Haute Asie, geogr. Univers. T.VIII, Paris 1929, P. P. 370.

(٣) P.N.K. Bamzai, a History of Kashmir, Delhi 1962. P. 10.

كتلة بالتستان : هى كتلة شديدة الارتفاع كثيرة التقطع ويظهر السند الأعلى هنا على شكل خانق عميق . وقد قطعت روافد هذا النهر العديدة هذه الكتلة . ومنها نهر استور وشيجار الشمالى . ويلتقى رافدا شيجار الشمالى وشيوك بالسند عند مدينة سكاردو فيكونان هنا وعاءً متسعاً نسبياً . وتعتبر الأودية فى هذه المنطقة أودية عميقة إذ ترتفع القمم فى بعض المناطق عن بطون هذه الوديان بحوالى ٤٠٠٠ متر .

كتلة جلجيت : gilgit هى أيضاً من الكتل العظيمة الارتفاع فى المنطقة وتقع عند ثنية نهر السند الكبرى التى تقع بالقرب من مدينة بونجى ، فعندها يغير السند اتجاهه من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى ليعبر ذلك الخانق الجبلى العظيم ، ويدخل بعده إلى سهول البنجاب . وعند بونجى يتصل بالسند رافداه هونزا Huza وجلجيت [illegible] الآتية من مرتفعات جلجيت .

وجلجيت أهمية استراتيجية [illegible] كشمير [illegible] بالنسبة لأرض باكستان [illegible] فهى تتحكم [illegible] من جهة وشرق [illegible] من جهة أخرى . وهى تتحكم [illegible] أمورداريا)[1] [illegible] كانت جلجيت دائماً [illegible] خوف وفزع بالنسبة لأهل [illegible] ومن هنا [illegible] جلجيت بالنسبة لكشمير . وقد عرفت [illegible] بالرغم من ارتفاعها الشديد لتكون كحاجز [illegible] من أقاليم [illegible] إلا أن النظام [illegible] الزراعى فى جلجيت [illegible] تستخدم فى أوقات معينة من السنة .

---

(١) أفضل دائما اسم أورداريا بدلا من اسم جيحون لأنه أقرب الى التسمية المحلية حيث ان كلمة درياى تعنى الماء أو النهر .

(٢) Gwasha Lal Kaul, Kashmir, Srinagar 1963, P. 243.

وان أهم ظاهرة فى اقليم جلجيت الجبلى هو أن أنهاره تتجه فى الغالب من الشمال الى الجنوب وأهمها نهر ياسين yasin وأشكومان وهونزا وهى تتصل بنهر جلجيت جنوب مدينة جلجيت ثم يسير نهر جلجيت جنوباً حتى يتصل بالسند شمال مدينة بونجى .

وتستخدم أودية هذه الأنهار كطرق رئيسية فى اقليم جلجيت ويساعدها فى ذلك وجود ممرات عديدة عند منابعها تسهل اتصال جلجيت بإقليم تركستان ويامير الصغرى من ناحية الشمال وباقليم شترال وكوهستان فى باكستان من ناحية الغرب ثم باقليم وادى كشمير من ناحية جنوب .

ففى الشمال نجد ممر منطقة Mintaka عند منابع نهر هونزا وهو يصل جلجيت بتركستان الصينية ثم ممر ارشاد عند منابع نهر اشكومان ويسهل اتصال جلجيت باقليم واخان من أفغانستان ثم ممر داركوت Darkot عند منابع ياسين ويسهل اتصال جلجيت باقليم شترال من باكستان وفى شماله ممر باروجيل المشهور الذى يوصل الى اقليم واخان فى أفغانستان .

والمهم هنا أن منابع نهر أشكومان تقترب من منابع نهر شترال الباكستانى شمال ممر داركوت .

وتتصل جلجيت بكشمير عن طريق وادى نهر أستور رافد السند ويلتقى به جنوب مدينة بونجى Bunji . ويتجه هو أيضاً من الجنوب الى الشمال فيصل السند بممر بورزيل ومن هذا الممر تسهل الصلة بوادى كشمير نفسه .

هذا وتشغل جبال كركورم جزءاً من الأطراف الشرقية لكشمير وتتجه هى أيضاً من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى وبها ممر كركورم الذى يصل كشمير بالتبت .

الأهمية الاستراتيجية لكشمير : من هذه النظرة السريعة لتضاريس كشمير نجد أن صلتها بالأقاليم المجاورة عن طريق الطرق والممرات الموجودة

بها والتي تسهل تلك الصلة جعلتها تتخذ أهمية استراتيجية خاصة . بالنسبة لما جاورها من دول وأقاليم . فان حدود كشمير الأصلية تشارك حدود التبت وسينكيانج في مسافة قدرها ١١٢٠ ك متراً تقريباً بينما هي تشارك حدود باكستان في مسافة قدرها ٨٩٦ ك متراً تقريباً أما حدودها مع الهند فهي أقل من نصف المسافة الأخيرة .

فأما حدود كشمير مع التبت وسينكيانج (الصين) فهي حدود جبلية وجبهة عالية الا أن وجود الممرات بها سهل وجود المنافذ التي تسير فيها الطرق . وتمتاز هذه الطرق بأنها تتغير قليلا بين الصيف والشتاء . ففي الشتاء حين تتجمد الأنهار تسير الطرق فوق مياه النهر وحينما تذوب الثلوج في الربيع والصيف في مجرى النهر تسير الطرق على جوانب الوادي (١) .

وتسمى طرق الشتاء باسم Zamistan أما طرق الصيف فتسمى Tabistan (٢)

وتخرج الطرق من كشمير في ثلاثة اتجاهات : فنحو الشمال تخرج طريق تبدأ من دمباش بامير وهو يسير مع الممرات الشمالية وأهمها ممر منتكة Mintaka وكيليك (وارتفاع كل منهما حوالي ٥٢٩٠ متراً) أما الطريق الثاني فيسير من ليه الواقعة على نهر السند الى دسينج ثم يعبر ممر كاراكورم الى التبت وسينكيانج . ويعتبر ممر كراكورم أقل ممرات الهيمالايا الغربية ارتفاعاً وهو خال من الثلاجات في الشتاء أما في الصيف فلا يسقط به ثلج . أما الطريق الثالث

---

(١) بالرغم من انخفاض الحرارة الشديد شتاء في تلك المناطق العالية فإن عبور وعبور وادى صور تلك الطرق في الشتاء في أثناء تجمد مياه الروافد الجبلية لأنه في الصيف وحينما تذوب الثلوج يكون عبور الأودية غير مأمون لأنها تصبح سيلات جارفة شديدة الانحدار ولكن العقبة الوحيدة التي يصادفها المسافر في هذه الطرق هي صعود الكتل الجبلية الضخمة ويجب عليه استخدام حيوان الياك لحمل متاعه . ولذلك فإننا حينما نقول إن هناك طريقاً يعبر الى هذه المناطق الباردة المرتفعة فنقصد بذلك أنه يستخدم لبضعة أشهر فقط من السنة . وأن طرق الصيف تختلف قليلا من طرق الشتاء .

(٢) Herbertson (E.D.) Asia, London 1913, P. 129.

مقتبسة من تقرير (Report of a Mission to Yarkand in 1873, Under command of Sir T.S. Forsyth.

فيسير من « لى » الى تانكسى Tankse الى رودوك Rudok وعند هذه المدينة يكون قد دخل أرض التبت فيسير منها الى لاسا العاصمة .

أما من ناحية الحدود بين كشمير وباكستان فهى تسير فى أرض أقل ارتفاعاً بل ان جزءها الجنوبى عبارة عن تلال منخفضة تعتبر تكملة لسهول البنجاب وتتلخص الصلة هنا عن طريق أربع طرق مهمة :

الطريق الأول : من مدينة بونجى (جلجيت — كشمير) الى مدينة مستوج (شترال — باكستان) وهو طريق قديم وجيد ومعروف .

والطريق الثانى : يسير مع نهر السند من بونجى الى اقليم كوهستان .

والطريق الثالث : من شيلاس (كشمير) الى وادى كاغان فى أرض قبيلة الخزارى (باكستان) وهو يسير مع ممر بابوسر المشهور ويصل حتى أبوت أباد (باكستان) .

والطريق الرابع : هو طريق مطروق كثيراً ومعروف قديماً صيفاً وشتاء وهو طريق بين جهيلم من سرينجار الى ممر بارامولا الى مظفر أباد فى كشمير ثم الى أبوت أباد فى باكستان . وكلها طرق مطروقة ومأمونة صيفاً وشتاء . ويعتبر هذا الطريق الأخير أهم صلة نحو الغرب من كشمير الى باكستان عن طريق ممر بارامولا (١) .

أما الحدود بين كشمير والهند فهى حدود قصيرة وجبلية شديدة الارتفاع فى أكثر من نصف طولها . ولقد أدت الاحتياجات العسكرية والسياسية فى كشمير بعد التطورات الأخيرة الى سرعة تنفيذ مشروع انشاء طريق مباشر بين كشمير وجمهورية الهند عن طريق ممر بانيهال على أن تسير المرحلة الأخيرة من هذا الطريق من جورداسبور gurdaspur (الواقعة بين وادى راوى وستليج شمال أمرتسار) الى كانجرا Kangra الى تشامبا على نهر راوى

---

(١) S.C. Ray, Early History and Culture of Kashmir, calcutta 1957 , P. 111.

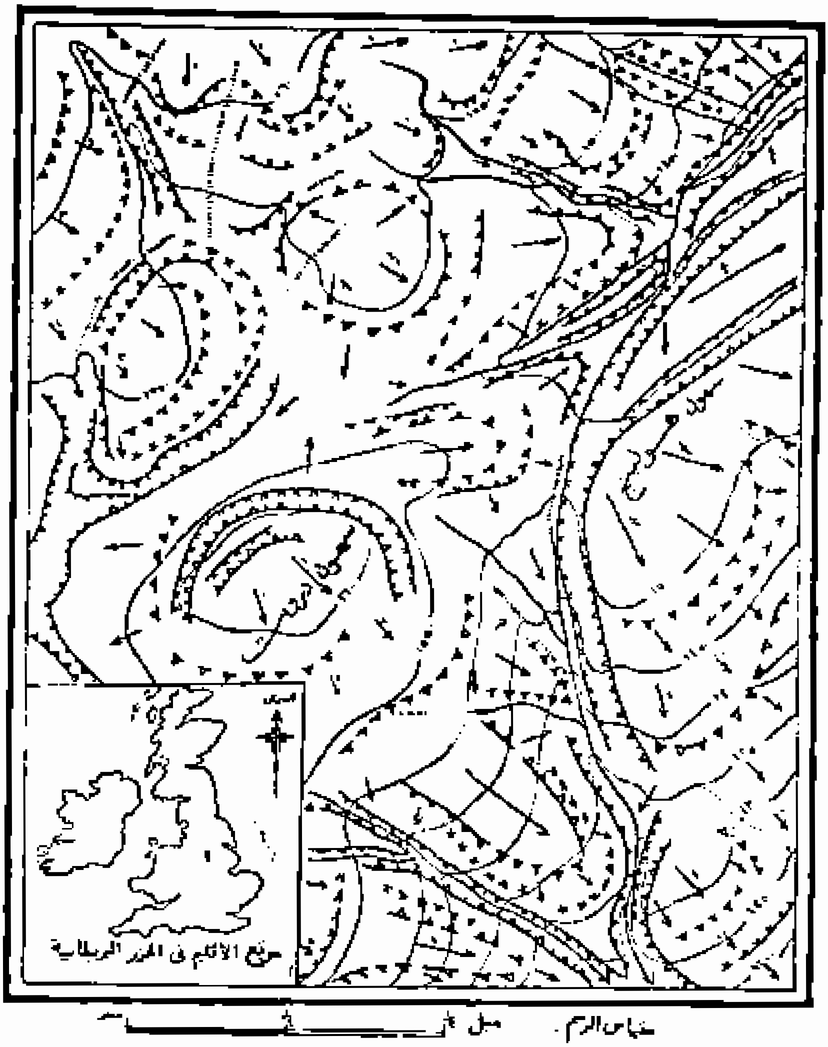

١- إنحدارات شديدة التقعر
٢- مجاري نهرية
٣- أودية جافة
٤- إتجاه ومعدل إنحدارات سطح الأرض
٥- خطوط الكنتور بالأقدام
٦- إنحدارات بسيطة التحدب
٧- إنحدارات محدبة
٨- إنحدارات شديدة التحدب
٩- إنحدارات بسيطة التقعر
١٠- إنحدارات مقعرة

شكل (١) خريطة أشكال انحدارات سطح الأرض
لمنطقة سهول درونت الجيرية ، جنوب غرب يوركشير

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(شكل ٥)

[illegible] في كشمير [illegible]

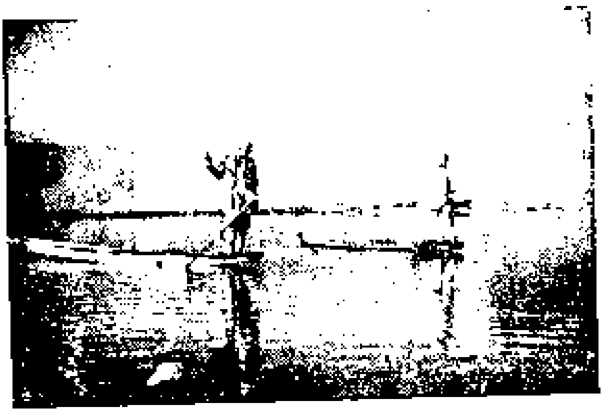

(شكل ٦)

صيد السمك في بحيرات كشمير

يلاحظ الشيكارة وهي قارب صغيرة مصنوعة

والجبال تشرف على البحيرة

(شكل ٣)

مدينة سرينجر – عاصمة كشمير

وفي أعلى الصورة تظهر الجبال المحيطة بوادي كشمير

(شكل ٤)

مخزن الخشب ببحيرة دال

ويلاحظ على شواطئ البحيرة العوامات الكثيرة House Boat

(شكل ١)

[illegible]

[illegible]

موارد القوة الاقتصادية فى شبه القارة الهندية

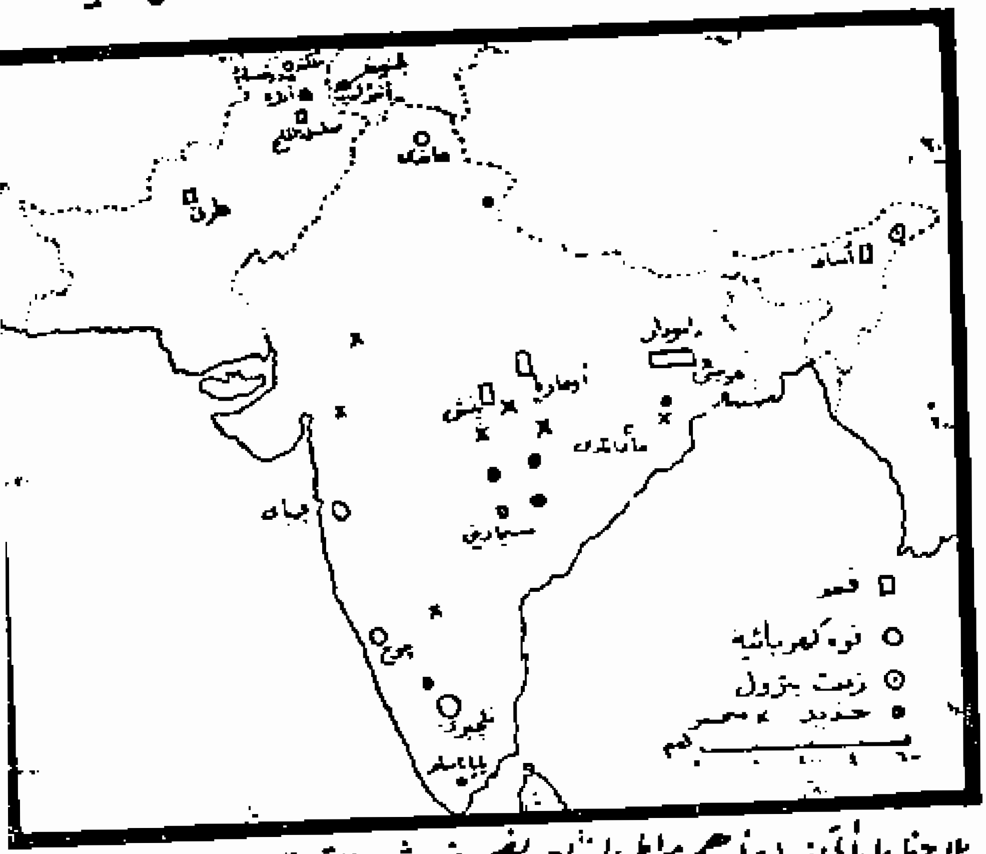

يلاحظ ما يأتى: ١- أهم مواطن انتاج الفحم فى شبه القارة هى: وادى دامودار

٢- " " " القوة المائية " " هى: الغات الغربية ومنطقة التلال الشمالية الغربية

عن Spate, India & Pakistan, London 1960, P. 259

(شكل ٧)

النص

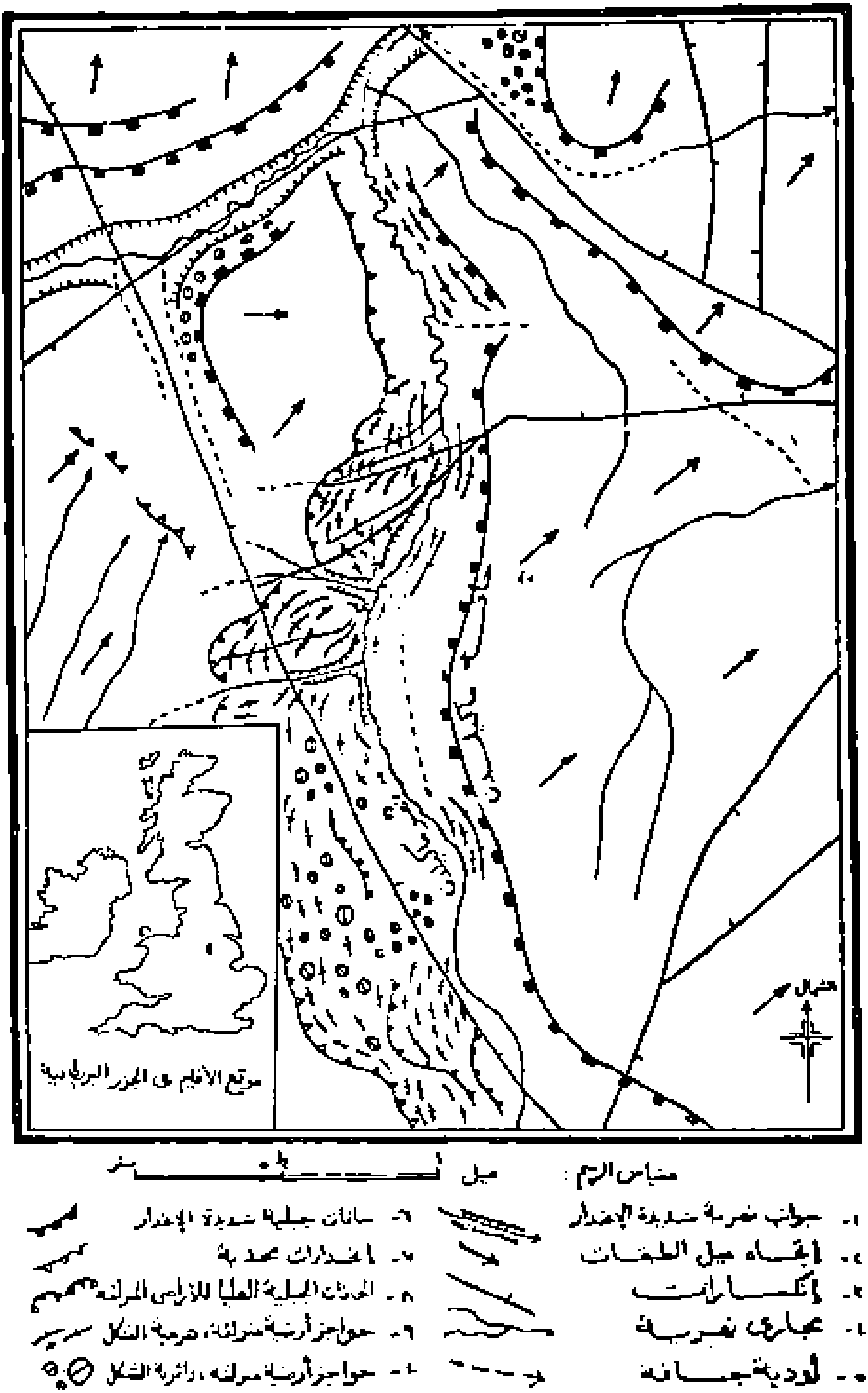

شكل (٢) خريطة توضح بعض ظواهر الجيومورفولوجية
في حوض ماكيلدن – جنوب غرب يوركشير

فتصل بذلك بين حوضي كشمير وبنجاب الهند . وكان هناك طريق قديم يسمى طريق باناسالا Banasala من جامو الى شناب الأعلى عند مدينة بتانكوت Pathankot (١) ولكن نظراً لوعورة تضاريس هذه المنطقة نجد أنه لا يسير فيها أي نوع من المواصلات سوى السير على الأقدام (٢).

وبذلك نجد أن صلة باكستان بكشمير صلة قوية مبنية على أهمية عسكرية كبيرة فان كون كشمير متصلة بوسط أسيا وقريبة من مداخل باكستان الرئيسية الشمالية الغربية أصبحت حارساً على تلك المداخل وعند كشمير تهدد تماماً مصالح باكستان ولذلك فهي شديدة الحرص على أن تطالب بكشمير . فنحن اذا علمنا أهمية الصلة بين اقليم شترال (باكستان) وجلجيت (كشمير) ثم أهمية اقليم شترال بالنسبة لأنه يعتبر البوابة الشمالية لباكستان أصبح من الأهمية بمكان أن تقوم باكستان بحراسة تلك الأبواب والفتحات الموصلة الى أراضيها . واذا علمنا أن بوابة شترال عن طريق وادى نهر شترال أو يارخون تصل الى اقليم واخان (أفغانستان) بواسطة ممر باروجيل أدركنا أهمية الصلة بين شترال وجلجيت واذا فرض واستولت الهند على كشمير — وهي تطالب أيضاً بكشمير — وبمعنى آخر اقليم جلجيت فان هذا سيؤلف خطراً جسيما على باكستان وسيكون هذا نقطة عسكرية بأرض باكستان من الشمال . ولذلك أصبح من مصالح باكستان أن تؤمن مدخلها الشمالي هذا الذي يتألف في جلجيت (كشمير) وشترال (باكستان) . وقد ادركت بريطانيا حينما كانت تحتل شبه القارة أهمية موقع جلجيت وعملت على الاستيلاء عليه وضمه الى أرض كشمير معتذرة بشتى الأسباب وكان بعض مبعوثيها يحكم كشمير وجلجيت من أجل حراسة مصالح بريطانيا (٣)

---

(١) P.N.K. Bamzai a History of Kashmir, Delhi 1962 P. 12

(٢) S.C. Ray, Early History and Culture of kashmir, calcutta 1957, P. 113.

(٣) Dutt (R) The Economic History of India Vol 2. Delhi 1960 P. 334.

أما الهند فانها باستيلائها على كشمير وجلجيت ستفتح لنفسها باباً على وسط آسيا هى فى غنى عن فتحه فى الوقت الحاضر ويكفيها مشاكل حدودها مع التبت والصين .

اذن عند هذه المداخل الرئيسية كركورم وجلجيت وشترال وبمعنى آخر التبت (الصين) وأفغنستان وروسيا تهدد مصالح باكستان . ولما كانت ممرات كشمير وطرقها تتصل بهذه المداخل اتصالا مباشراً فانها تكون خطراً دائماً على حياة باكستان . أما الهند فان حدودها الشمالية فى الجزء الواقع بين كشمير ونپال والذى تشترك فيه مع التبت فليس به سوى ٣ ممرات رئيسية هى نيتى Niti ، منا Mana ، شبكى Shipki . والاولان مرتفعان ولا يؤديان الا الى مناطق جبلية غير مهمة من الناحيتين . أما ممر شبكى فهو يؤدى الى نهر ستلج وتهدد بنجاب الشرقية ومن ثم بنجاب الغربية (باكستان) .

أما بقية الحدود الشرقية فليس بها أى مداخل أو ممرات ذات أهمية سوى فى اقليم سكيم .

ونخرج من هذه الدراسة بأن الهند لا تهدد أبداً من ناحية كشمير وانما تهدد باكستان . وكما تهدد باكستان من ناحية كشمير فان العكس صحيح أن كشمير تهدد من ناحية باكستان وليس من ناحية الهند .

ويؤيد كلامنا هذا أن الغزوات جميعاً التى دخلت الى كشمير وكذلك الرحالة كانت تأتى الى كشمير من اقليم شترال أو الجزارى فى باكستان أى من طرق الصلات الأربعة المعروفة . وكان أهمها طريق وادى نهر جهلم عند ممر بارامولا . لقد اخترق هذا الطريق الرحالة الصينى Hsuan Tsang فى القرن السابع الميلادى وسمى كشمير Kia — Chi — mi — lo وقد اخترق أرض Hashkapura (أى الجزارى — باكستان) . (١)

(١) Gwasha lal Kaul, Kashmir, srinagar 1963, P 29 — P.N.K. Bamzai, a History of Kashmir, Delhi 1962, P. 102.

أما الغزوات المختلفة الى كشمير فقد وصلت اليها عن طريق أرض باكستان وممراتها . وكثيراً ما كانت كشمير والمناطق المتصلة بها عن طريق تلك الممرات كثيراً ما كانت تكون في بعض العصور دولة موحدة .

ففي حوالي ٢٥٠ ق . م كانت كشمير تكون جزءاً من مملكة آسوكا (١) ثم أتى بعده الملك موريا Maurya ومد نفوذه الى قلب كشمير وترك آثاره عند نهر بارامولا .

كذلك ففي عام ٥٢٠ م غزا أحد ملوك الهون المسمى ميهير كولا Mibirakula غزا كشمير وفي نفس السنة زار الحاج الصيني Sung yun مدينة سيالكوت (Sakala) فوجدها قاعدة لغزو كشمير . وسيالكوت في الوقت الحاضر لاتكاد تبعد عن مدينة جامو لأكثر من ٣٠ ميلاً وهي من أرض باكستان . وهذا يؤيد قولنا أن مدخل كشمير هو من ناحية باكستان .

وقد [illegible] حج في كشمير [illegible] Sakala [illegible]

كذلك ذكر البيروني (٢) أن طريق [illegible] جيث [illegible] جلجيت عن طريق نهر بونزال الى كشمير أو عن طريق شيلاس ثم نهر باكوسار ووادي كاغان حتى أبوت آباد . ولابد أن هذه الطرق كانت معروفة تماماً قديماً .

وقد غزا بعض القواد العرب أمثال هشام بن عمرو التغلبي غزا كشمير

---

(١) Ibid (Gwasha.) P. 23.

(٢) البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة طبعة الهند ١٩٥٨ م ص ١٩٩ .

وملتان (البلاذري (١) واليعقوبي (٢) والبيروني (٣)) ولكن يظهر أن المناطق التي غزيت في ذلك الحين كانت المناطق الخارجية من أرض كشمير ولم تصل الغزوات الى الوادي نفسه ولذلك بقي الهندوس في حكم ذلك الوادي مدة طويلة . حتى جاء عهد محمود الغزنوي (من ملوك غزنة في أفغانستان) في القرن الحادي عشر الميلادي وغزا قلب كشمير ودخلها من ممر بيربنجال . ولكن ترك حكمها في أيدي الهندوس وصار الاسلام يدخلها بالتدريج . وحينما دخل الغزنويون كشمير كان يحكمها راجا جاتنده وكان ملكه يمتد من سرهند الى لمغان أي من نهر الجانج الى أفغانستان ومن كشمير الى الملتان (٤) والى محمود الغزنوي يرجع الفضل في نشر الاسلام في هذا الاقليم الجبلي (كشمير) (٥) .

وفي القرن الخامس عشر كانت كشمير جزءاً من الامبراطورية المغولية الاسلامية في الهند (٦) . واهتم هؤلاء الأباطرة بطريق بارامولا وشيدوا محطات استراحة على طول الطريق كما أدخل بعضهم زراعة الكمثرى والتفاح وصناعة السجاجيد والورق المقوى (٧) .

ثم غزيت كشمير من البنجاب في القرن التاسع عشر غزاها رانجيت سنغ وضمها لملك السيخ في البنجاب . ومنذ ذلك الوقت اتصل تاريخ كشمير بتاريخ البنجاب . اذ حكمتها أسرة هندوكية ملوكها من أصل راجبوتي .

---

(١) البلاذري (الامام أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي – فتوح البلدان طبعة القاهرة – ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م ص ٤٤٩ .

(٢) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب) – تاريخ اليعقوبي – ج ٣ طبعة العراق (النجف) ١٣٥٨ هـ ص ١٠٨

(٣) البيروني ... ص ١٦

(٤) أحمد محمود الساداتي – تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ج ١ القاهرة ١٩٥٧ ص ٨٤ .

(٥) المرجع السابق ... ... ص ٩٢ .

(٦) Ian Stephens, Pakistan, London 1963 P. 196.

(٧) الامبراطور زين العابدين (١٤٢٠ م – ٧٠)

وكان أهمهم غلاب سنغ الذى اتفق مع البريطانيين عام ١٨٤٦ وحكم كشمير وجامو باسم الراجا .

(ثانياً) الأسس الاقتصادية :

تشمل أرض كشمير ٥٢ مليون فدان منها ٤٤ مليوناً غير مستغلة أما الباقى وهو ٨ مليون فدان فهى صالحة للاستغلال الزراعى ولكن يزرع منها فقط مقدار الربع أى حوالى ٢ مليون فدان ويوجد ثلث هذا المقدار فى وادى كشمير نفسه .

ولما كانت كشمير فى ظل مطر جبال بيربنجال فانه يصيبها مقدار ٤٠ بوصة من المطر . ومعظم تساقط صورة عن ثلج . وفى أثناء هبوب الرياح الموسمية الصيفية عن هند يكون المناخ فى كشمير رطباً منبداً بالغيوم ويتساقط الثلج من اكتوبر حتى مارس ومعظمه نتيجة للانخفاضات الجوية التى مصدرها حوض البحر المتوسط (١) . وأما الربيع فهو بارد ويتزل به رذاذ من الأمطار ويتبعه صيف دفىء نسبياً . ولذلك نجد أن الجبال مغطاة بالغابات الصنوبرية وتشغل هذه الغابات ⅓ مساحة كشمير الكلية (٢) . ومنها الشربين وبعض بلوط و ندردار (٣) . وهذه الأشجار فى الغالب تنمو على السفوح الشمالية بجبال أكثر منها على السفوح الجنوبية (٣) ذلك لأن السفوح الشمالية أكثر تعرضاً للثلج والجليد من السفوح الجنوبية كما أن الأخيرة معرضة للحرارة وحرائق الغابات وأكثر ملاءمة للسكنى . ولذلك فالغابات بها أقل لأن الانسان أزالها . وعلى العموم فهذه الظاهرات الطبيعية ملائمة لوجود ثروة من الأخشاب والمراعى . وهذه الثروة من الأخشاب تعتبر مورداً اقتصادياً كبيراً فى كشمير . وتستخدم المجارى المائية فى نقل هذه الأخشاب الى الموانى تمهيداً لتصديرها للخارج . شكل (٤)

(١) Spate (O.H.K) India & Pakistan, London 1960, P. 367.

(٢) Statesman's year Book, Edit steinberg (S.H.) London 1964, 1965, P. 421.

(٣) Ibid, P. 380.

(٤) Holdich. (Sir T.H.) India, London, P. 115.

كذلك فلما كانت كشمير بلاداً جبلية فى منطقة رطبة كذلك غطت المراعى الكثير من سفوحها وربيت عليها الأغنام . وهذه الأغنام تعيش فى بطون الأودية أثناء فصل الشتاء على سفوح أقل ارتفاعاً من مساكن الانسان . ولكنها فى الصيف تصعد مع السكان الى السفوح العالية وتصل فوق خط نمو الأشجار . وهذا الحد معروف للرعاة يأتون اليه كل عام .

وهذا احصاء عام ١٩٦١ عن الثروة الحيوانية التى تعيش على مراعى كشمير (١) :

ماشية ١،٨٣١،٠٦٧ رأس ماعز ٥٧٧،٤١٥ رأس

ثيران ٤٠١،١٩٤ رأس خيول ٦٤،١٥٢ رأس

أغنام ١،١٦١،٢٤٨ رأس

هذا عن النشاط الاقتصادى فى كشمير المتوقف على استغلال النبات الطبيعى ولكن الانسان تدخل وأخذ يزرع الأراضى الصالحة للزراعة فيحرق الأشجار على السفوح الجنوبية بوجه خاص للسلاسل الجبلية . ونجد أن مناخ كشمير لا يهيء زراعة محصولين فى سنة كما هو الحال فى سهول الهند أو اقليم التلال المنخفضة كما لا يمكن زراعة القمح والأرز فى محصولين متتاليين فى نفس السنة (٢) .

والثروة الزراعية فى كشمير ضئيلة . وأهم الغلات هناك الأرز وهو الغذاء الرئيسى للسكان ثم الذرة . ويزرع الأرز فى المستويات المنخفضة بينما يزرع الذرة فى المستويات المرتفعة . ويشغل الأرز نصف مساحة الأراضى الزراعية فى كشمير بينما تبلغ مساحة الذرة ثلث الأراضى المزروعة بينما يزرع القمح فى ١٠٪ أو ١٢٪ من مساحة الأراضى الزراعية وتزرع كشمير

---

(١) States Man's Year Book ... steinberg, London 1964—1965. P. 421

(٢) Herbrtson (F.D) Asia, London 1913, P. 122.

بعض الحبوب الرئيسية . والاهتمام قليل بالأراضي الزراعية في كشمير . وأكثر اهتمام الفلاح يكون لمحصول الأرز شكل (٥) كذلك يزرع بعض القطن على المدرجات . ويعتبر الري وسيلة رئيسية للزراعة . وتعتمد كشمير على مياه الأنهار والروافد الجبلية العديدة التي تخترق الاقليم وهي تجلب معها كميات وفيرة أيضاً من الطمي . ومعنى ذلك أن كشمير تشارك باكستان في المجاري والروافد المائية . كذلك تعتمد كشمير على بعض مياه العيون الطبيعية ولكن مياه هذه العيون تكون منخفضة الحرارة مما يؤثر على النبات . ولذلك فمورد المياه الرئيسي عندها هو الأنهار . وهكذا نجد أنه اذا انضمت كشمير الى الهند فستكون باكستان تحت رحمة المشاريع المنفذة في كشمير لأن أنهار كشمير تعتبر المجاري العليا لأنهار باكستان

ويعتبر مقدم الربيع بدء موسم الحياة في الريف الكشميري فهو فصل تبدأ النموج فيه في الذوبان كما يعتبر شهر يناير وفبراير شهري ركود الحياة النباتية في كشمير (١) .

وأهم الغلات الزراعية في كشمير عام ١٩٦٠ / ١٩٦١ : (٢)

الغلة	المساحة المزروعة (آلاف الأفدنة)	الانتاج (آلاف الأطنان)
الأرز	٤١٠	٢٢٩
الذرة	٤٣٤	١١٩
القمح	٤١٠	٨٧
الكتان	٢٦	٣

كذلك تنتج كشمير الفاكهة والأزهار وتعتبر الفاكهة في المركز الثاني بعد انتاج الخشب ويقول هولدتش (٣) انه لا يوجد نوع من فاكهة المناطق المعتدلة أو خضروتها الا ويزرع في كشمير . ونزيد نحن على ذلك أن فاكهة المناطق المعتدلة الباردة تزرع أيضاً في كشمير ومنها التفاح والخوخ والكمثرى

(١) Spate, (O.H.K.) India & Pakistan, London 1960, P. 378.

(٢) States Man's Year Book, Edit Steinberg (S.H.) London 1964-56 P. 421.

(٣) Holdich (sir. T. H.), India. London, P. 107

والمشمش وأشجار الجوز واللوز والفستق والرمان . وتعتبر أشجار الجوز مورداً للزيت المستخدم فى الاضاءة والطهى .

ويزرع فى كشمير الشاى وكان قديماً سلعة تجارية الى التبت ويقول Jameson ان الشاى ليس مادة للاستهلاك العام فى أى منطقة من الهند (١) ومعنى ذلك أن الشاى يعتبر سلعة نقدية .

وتعتبر تربية دودة القز والرعى حرفتان متكاملتان للزراعة فى كشمير وحتى عام ١٩٠٠ كانت تربية دودة القز متأخرة وقديمة ولكن حينما أدخلت الأنوال الحديثة فى صناعة الحرير الى كشمير زاد اهتمام السكان بزراعة شجرة التوت .

وتعتبر البحيرات مورداً اقتصادياً لصيد الأسماك انظر شكل (٦) صيد السمك فى بحيرات كشمير .

الصناعة : وتعتبر سرينجار أهم مركز صناعى فى كشمير . واتضع ذلك فى يد الحكومة . ولقد نشأت الصناعات اليدوية قديماً فى كشمير وارتقت وخاصة الشال الكشميرى وتمتاز صناع كشمير بالفن الراقى الجميل سواء فى ذلك تطريز الأقمشة أو الحفر على الخشب أو النحاس أو الذهب أو الفضة وقد كانت هذه الصنع جميعاً أهمية كبيرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (٢) . ولكن هذه الصناعة انهارت بعد عهد الحروب السيخية وما تلاها من مجاعة فى كشمير عام ١٨٧٧ والتى أدت الى تشتت الصناع .

وفى الوقت الحاضر تدهورت صناعة الشال وفى الغالب أصبح يصنع بالطلب . (٣) وقد حلت صناعة السجاجيد والبطاطين محل صناعة الشال

---

(١) Dutt (R.) The Economic History of India, Vol 2, Delhi 1960 P. 107.

(٢) كان ثمن الشال الكشميرى الواحد فى أوروبا فى ذلك الوقت يتراوح فيما بين ١٠ جنيه ١٠٠ جنيه استرلينى .

(٣) Dutt (R.) Vol. 2. P. 389.

الكشميرى الى حد ما وتعتبر صناعة السجاجيد ونسج الصوف والبطاطين من الصناعات المنزلية . كذلك تعتبر صناعة الجلود صناعة هامة فى كشمير وتزيد على ذلك بأن فى كشمير مصنعاً لنسج الصوف علاوة على هذه الصناعات اليدوية . اذ أن انتاج الصوف يعتبر أهم حرفة بعد الزراعة فى كشمير . كذلك يعتبر نسج الحرير مهماً هناك . وقد ارتقت حرفة تربية دودة القز وتقدمت تلك الحرفة بعد ادخال الأنواع الحديثة فى كشمير . ومع ذلك فان شرانق الدود لم تكن كافية لتشغيل مغازل سرينجار وجمو ومناسج سرينجار اليدوية للحرير (١) .

وفى الوقت الحاضر تعتبر صناعة الحرير فى كشمير صناعة وطنية وتقوم كشمير بكل جهودها للارتقاء بهذه الصناعة عن طريق استيراد أنواع من دودة القز من أوروبا (٢) هذا وتحتاج تلك الصناعة الى رؤوس أموال لكى تدخل فى نطاق الصناعات الحديثة .

أما من ناحية موارد القوى والوقود فان كشمير ليست من البلاد الغنية فى انتاج الفحم أو البترول ، وان كان [illegible] كبيرة فى منطقة [illegible] على [illegible] الجبال [illegible] (٧)

ويعتبر اقليم [illegible] Riasi أهم منطقة [illegible] كشمير [illegible] ثروة فحمية [illegible] من احتياطى فحم [illegible] مليون طن . ولكن [illegible] [illegible] بعض الطبقات فى منطقة [illegible] Karewas وكذلك [illegible] يستخرجونه من [illegible] فى وادى كشمير . ويستغل هذا الفحم من أجل [illegible]

وهكذا نجد أن ثروة كشمير ثروة [illegible]

Spate, (O,H,K.) India & Pakistan. londdn 1960, P. 379. (١)

Dutt (R.) C.I.E The Econ[illegible]c Historyg India V. 2 Delhi 1960, P. 390. (٢)

وقد نالت الهند بعد التقسيم مناطق انتاج الحديد والفحم والقوة الكهربائية في شبه القارة فوادى دامودار الشهير بانتاجه من الفحم (٩٠٪ من انتاج شبه القارة) والقوة الكهربائية يقع في يد الهند في الوقت الحاضر . كذلك موارد الفحم في حقول Jiridib في البنغال ، Ranig في بهار ، وجيريا في أوريسه Orissa ثم حقول الفحم في المقاطعات الوسطى في حوض ساتپورا وسارجوجا كلها في يد الهند (وتنتج الهند ٦١ مليون طن من الفحم احصاء سنة ١٩٦١ (١) كذلك تمتلك الهند مناجم الحديد في أوريسا في كيونجهار Bonai ' Keonjhar ، وبهار وهو من أجود أنواع الحديد (هيماتيت) وانتاجها من الحديد ٤.٢ مليون طن (١٩٦٠) .

بينما پاكستان ترك لها بعض الفحم في منطقة سلسلة الملح ونوع الفحم هناك غير جيد وتنتج باكستان حوالي ٧٨٧ ألف طن من الفحم (١٩٦٢-١٩٦٣)

كما أن الهند بعد التقسيم دخل في حوزتها معظم مدن التجارية الهامة في شبه القارة : دهلي - بمباى - مدراس - كلكتا .. الخ ولم تنل باكستان شيئاً حتى كلكتا التي كانت جزءاً من اقليم بنغال ذهبت الى الهند وقسم البنغال الى قسمين نالت باكستان الجزء الفقير اقتصادياً منه والقسم الآخر كان من نصيب الهند . أنظر شكل (٨) .

ولذلك فان باكستان أحست بأنها قد ظلمت في هذه القسمة الغير عادلة ولذلك فهي تطالب بكشمير على اعتبار أنها مكملة اقتصاديا لها من حيث موارد القوى المائية والفحم والحديد والبوكسيت والزنك والخشب . ويؤيد سبيت spate هذا بأن هذه الموارد من الممكن أن تساعد باكستان في اقامة الصناعات الكبرى بها لتأمين مركزها الاقتصادى (٢) . وبذلك أصبحت المطالبة بكشمير مسألة حياة أو موت بالنسبة لباكستان أما بالنسبة للهند فهي مسألة ثانوية وامتيازه ناله (٣) .

---

(١) States man's year Book 1964-65

(٢) Spate (.OH.R.) India & Pakistan, London 1960, P. 268.

(٣) Speer (P.) India, Pakistan & the West London 1958 P 230.

كشمير بين الهند وباكستان

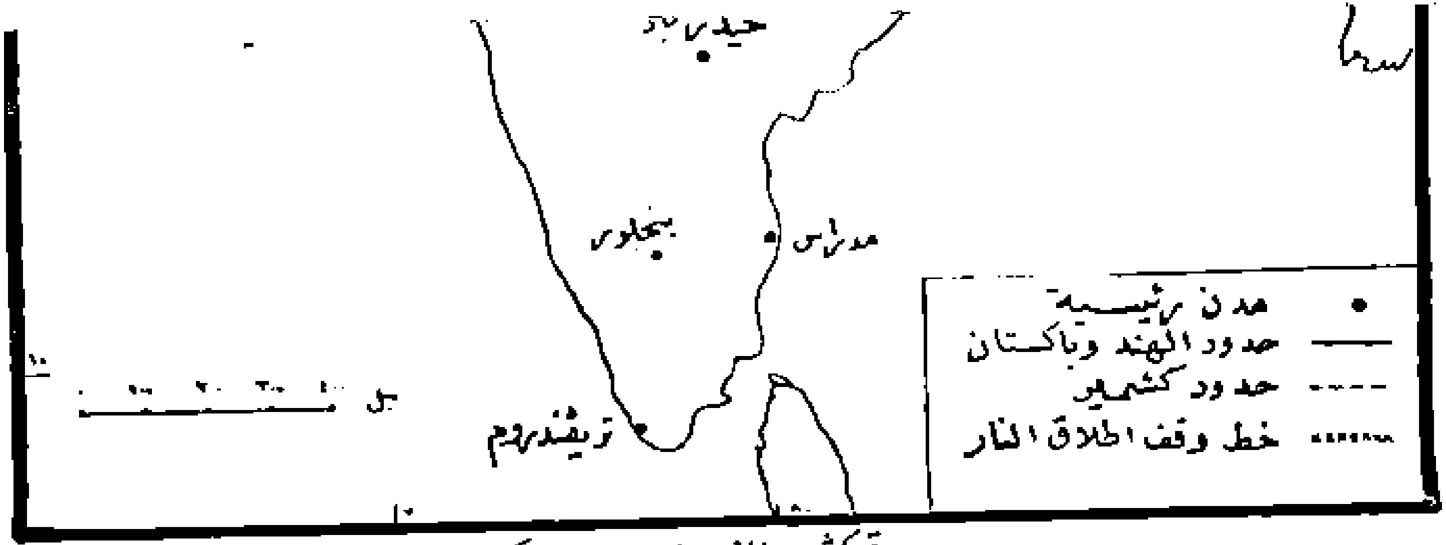

- يلاحظ من هذه الخريطة: ١- موقع كشمير بالنسبة للهند وباكستان وبالنسبة لنيبال وبوتان
٢- تعدد المدن المهمة في الهند
- عطيات عبد القادر حمدي - النظرة الجغرافية في مسألة كشمير ١٩٦٥

(شكل ٨)

وعلى هذا فان التقسيم أجحف بحق باكستان الاقتصادي ولم يعد لديها سوى انتاج الجوت وبعض القطن وبعض الصوف وحتى الجوت الذى يزرع فى البنغال نجد أن مصانع نسجه وميناء تصديره فى الهند . وقد يقال ان السبب فى ذلك هو توفير تكاليف نقل الجوت مرتين : مرة الى مناطق الفحم فى وادى هوجلى لتصنيعه ومرة الى كلكتا لتصديره . ولذلك أصبحت باكستان منطقة لتصدير المواد الخام ولن تقوم بها صناعة بالمعنى الصحيح ما لم يحدث التكامل الاقتصادى بينها وبين كشمير . وحتى على فرض أن كشمير تستقل فى دولة حرة مستقلة فانها لن تستغنى عن باكستان تماماً لأن أسواق كشمير فعلا ومنذ سنين طويلة هى فى باكستان . فان مدينة مرى تعتبر سوقاً تجارياً رئيسياً لبضائع كشمير (١) فان معظم بضائع كشمير وأغلبها من الفاكهة تمر عبر الطرق العادية نحو مرى ثم نحو سهول البنجاب وبذهب القمح سوياً بكميات عظيمة الى البنجاب . كذلك من مدينة مرى تمون سرينجار بالبضائع الأوروبية وهى آخر محطة فى باكستان بالنسبة للسياح قبل دخولهم أرض كشمير . كذلك نجد أن أنهار باكستان الرئيسية تمر فى أرض كشمير . وان مشاريع الرى العظمى فى باكستان مثل مشروع منجلا Mangla على نهر جهيلم (٢) يقع فى أرض كشمير . ولذلك فان تنظيم مياه نهر السند وجهيلم ومشاريع الكهرباء عليهما تهم باكستان أكثر من الهند (٣) وهى الآن فى يد الهند . وان تحويل مجارى بعض قنوات أو الأنهار التى تجرى فى البنجاب والتى توجد منابعها فى كشمير — ان تحويل هذه المجارى المائية بسبب مشاريع الهند سيحيل أرض البنجاب الى صحراء قاحلة (٤) .

(١) Holdich (Sir T.H.). India, London, P. 128.

(٢) Pakistan Year Book 1954 — 1955, Karachi 1955, P. 49.

(٣) East & Spate, The changing Map Asia, London 1061, P. 157.

(٤) Speer (P.) India Pakistan & the West, London 1958. P. 320.

ثالثاً : الأسس الدينية والسياسية :

لقد كان الأصل في تقسيم شبه القارة الهندية متوقفاً على حل عملي للمنازعات الدينية الشديدة والمذابح التي كانت تقوم في كل مكان بشبه القارة بسبب احتكاك المسلمين بالهندوس أو المسلمين بالسيخ . وليس هنا مجالنا لشرح أسباب تلك المنازعات وانما نقول ان جذورها كانت تمتد الى العصور التاريخية السحيقة حينما كانت هناك شعوب غالبة وأخرى مغلوبة في شبه القارة . وكان الغرض الأول من التقسيم هو ابعاد المسلمين عن الحياة في وسط المحيط الهندوسي – السيخي . ولذلك فان كشمير التي يعتبر معظم سكانها من المسلمين ستلقى بعض صعوبة في انضمامها للهند لهذا السبب الديني . أنظر شكلي (٩)،(١٠)

وتقول الهند ان الحاكم الهندوكي لكشمير هو الذي طلب الانضمام للهند ولكن هذه لم تكن سوى رغبة شخصية (١) حتى دون مراعاة لرأى الشعب المسلم هناك . وأصبحت الهند تتحدث عن هؤلاء السكان المسلمين الذين لا يستطيعون ابداء رأيهم في حل مشكلتهم (٢) وننظر الى أحد كتاب الهند يقول (٣) .

Kashmir is deemed to be of great value to us because we wish to hold it up as an exemple of our seculatism.

ولكن موقف باكستان ضعف بعد ذلك حينما قامت قبائلها بثورة مسلحة وذهبت لتخلص كشمير من الجنود . ونلاحظ ان الهند تعتبر كشمير

---

(١) يقال إنه كان هناك نزاع بين حركة كشمير الحرة المهراجا وبين حاكم بنش . ولهذا السبب طلب المهراجا الانضمام الى الهند ليتخلص من حاكم بنش من East & pale, The Changing Map P. 157 ولكن الحقيقة واضحة أمامنا أن المهراجا الهندوكي كان يخاف على ضياع كرسي الحكم اذا هو انضم الى دولة باكستان المسلمة إذ أنه من الطبيعي أن يقال من الحكم في دولة اسلامية شعبها كله مسلم ويوضع مكانه حاكم مسلم .

(٢) Speer (P.) India, Pakistan & the West, London 1958, P. 230.

(٣) Jayaprakash Narayan, The Need to Re-Think." Hindustan times may 15, 1964,

على أنها تضم ولاية إليها من ولايات شبه القارة . وهى تعتبر ذلك مسألة قانونية لأن حاكم كشمير هو الذى طلب ذلك وأن باكستان متطفلة ويجب أن تخرج من كشمير (١) .

أما باكستان فإنها تنظر للمسألة على أنها مسألة مصالح تتعلق بحياتها . وكما قال ستيفنس (٢) إن مسألة حيدر آباد قد تشبه مسألة كشمير . فحاكم ولاية حيدر آباد كان مسلماً بينما كان الشعب هندوكياً . ولذلك كان انضمامها للهند مسألة طبيعية . وإن كانت قد تعرضت لضغط من حكومة الهند حينئذ وخاصة لورد مونتباتن (الحاكم العام) . وعلى خلاف ذلك قد حدث فى كشمير فالأغلبية مسلمة وحاكمها هندوكى فهى أيضاً تنضم إلى الهند وهذا ضد منطق الأشياء .

وتعتبر باكستان ولاية كشمير جزءاً منها . والجدير بالذكر أن الحرف K فى كلمة باكستان pakistan يعنى كشمير Kashmir إذ أن باكستان تتكون من بنجاب pa (panjab بنجاب) ، K من كشمير Kashmir ، S من (سند Sind) .

ولكن الهند تعتبر أن كشمير هى أهم ولاية هندية . فقد كان نهرو نفسه من مواليد كشمير .

وقد أصبحت مسألة كشمير عسيرة الحل وقد أمكنت أن تصبح مسألة دولية حيثما تدخلت أيد كثيرة فى المسألة وتعددت الجهود . وذهبوا لتخليص كشمير وانضم إليهم رجال قبيلة سودهانس Sudhans (٣) واستخدموا الأسلحة من جميع الأنواع التى توجد فى أراضى الإقليم فى باكستان .

---

(١) Noorani (A.G.) The Kashmir Question, Bombay 1964, P. 15.

(٢) Stephens (Ian) Pakistan, London, 1963, P. 195.

(٣) هى قبائل محاربة وقد اشتركت فى الحرب العالمية الثانية مع بريطانيا من رجالها حوالى ٤٠٠٠٠ محارب .

دخلوا الى كشمير ليردوا على المهراجا الذى أمر بحرق عدد من القرى فى كشمير . وانضم اليهم رجال من قبائل محسود ، ووزيرى ، ودوار ، وبهيتانى ، وختك ، وتورى ، وأفريدى ، ثم المهمند ، وسواتى ، وسكان دير وكلهم من رجال القبائل الذين يعيشون فى ولاية الحدود الشمالية الغربية فى باكستان وهم يشتهرون بالبأس والشجاعة والاقدام . وكان لسوء حظ باكستان عدم التنظيم فى صفوف جيشها . اذ كان قد انفصل حديثاً عن جيش شبه القارة وكان لا يزال به بعض الهندوس الذين يعطفون على كشمير . كما أن جيش الهند كان لا يزال به بعض المسلمين . لذلك فلم يكن عطف باكستان على الحركة القبلية عطفاً مجدياً . كما أن موقف رجال القبائل أنفسهم لم يكن واضحاً اذ أنهم يميلون فيما بينهم الى الانفصال عن باكستان بدورهم فى دولة مستقلة تقع فى المنطقة الشمالية الغربية وتضم كل أقاليم القبائل ... تحت اسم دولة بختونستان (١) . لم يكن موقف القبائل ومجالسها «مجلس الجرجا» (٢) واضحاً تماماً أمام هؤلاء الحاربين لذلك كانت النتيجة حبس جزء من اقليم بونش من حكم الأمير الهندى . بينما دخلت الهند جيوشها المنظمة لتحمى هذا الحكم وتنفذ القرار الذى اتخذه فاستولت على وادى كشمير نفسه بما فيه العاصمة سرينجار وكان آخر مراحل المعركة عند بلدة أورى Uri الواقعة فى منتصف المسافة بين مظفر اباد وسرينجار(٣) و... احتلت أخصب أجزاء كشمير وأكثرها عمراناً بالسكان .

---

(١) لقد أرضت باكستان رجال هذه القبائل فيما بعد وهى توزع عليهم المؤن والمساعدات المالية ولذلك فإن مسألة بختونستان التى تعطف عليها افغانستان من ناحيتها قد خمد أوارها نوعا ما فى الوقت الحاضر .

(٢) يدير أمور القبائل فى هذه المنطقة «مجلس القبيلة» ويخضع له أفراد القبيلة جميعا وليس لهم آخر سواه ويسمى هذا المجلس باسم «جرجا» girga . وللحكومة باكستان «ممثل سياسى» عند هذه القبائل Political agent ليحافظ على مصالح الحكومة فى الطرق أو الممرات أو المسالك الحدودية فقط أما حكم المنطقة فهو فى يد مجالس الجرجا هذه .

(٣) P.N.K. Bamzai, A History of Kashmir, Delhi, 1962, P. 686.

وقد كتب بعض المؤلفين والساسة فى الهند يقول «ان أهل كشمير هم الذين يجب أن يحددوا مصير «جامو وكشمير»

"The Will of the Kashmiris should decide the fate of Jammu & Kashmir" (1)

وكان هذا تأييداً لبيانات نهرو المتعددة فى الموضوع ورغبة حكومة باكستان نفسها وحكومة الهند فى ذلك .

"people of the State Should decide the Question of accession."(٢)

أما الموقف فى جامو فقد كان خطيراً: فان السكان الهندوس والسيخ طردوا السكان المسلمين من أراضيهم وهم أقلية وكان يبلغ عددهم ٥٠٠,٠٠٠ نسمة منهم ٢٠٠,٠٠٠ اختفوا تماماً إما بالقتل وإما ماتوا بالمرض المتفشى من الجثث المتعفنة . أما الباقى فقد فر الى البنجاب الغربية (٣) (باكستان) مع أن الهند دائماً تقول فى أكثر من موضع بأنها دولة سلام وانها تحافظ على الأقليات .

We afford all possible protection to our minorities (٤)

وأصبحت المسألة الآن أن كلا الطرفين متمسك برأيه . الهند متمسكة بالجزء الذى استولت عليه وتريد بقية كشمير وخروج باكستان ولها الحق فى ذلك لأنه من الناحية القانونية هى دخلت بناء على طلب الحاكم الانضمام للهند وكان قد خير بين الهند وباكستان أثناء فترة التقسيم . وهذا المهراجا يحتج بهجوم القبائل عليه ولذلك فقد طلب الانضمام للهند خريته .

أما باكستان فهى تعطى الجزء الذى استولت عليه حرية فتسميه كشمير الحرة «آزاد كشمير» . وهى تريد استفتاء الشعب لأن هذا الاستفتاء سيكون فى صالحها ولأنه فى رأيها لا يمكن لشعب مسلم أن يرضى الانضمام فى شعب

---

(١) Noorani (A.G.) The Kashmir Question. Bombay 1964 P. 29.

(٢) ibid P. 23.

(٣) Stephens (L) Pakistan, London 1963. P 200.

(٤) Noorani (A.G.), P. 16.

دمدوكى وحاكم هندوكى فيصبح أقلية فى دولة الهند ولن يصبح تقسيم شبه القارة قد حل أى مشاكل بين المسلمين والهندوس . ولن يفرض الانضمام الى أى جانب الا برغبة الشعب الكشميرى نفسه .

وكما جاء على لسان أحد كتاب الهند .

We Shall Keep what we have, and they shall Keep what they have (1)

وأرادت هيئة الأمم المتحدة ايقاف القتال فى يناير ١٩٤٩ وارجىء الاستفتاء الشعبى .

وقد حاول كثير من الباحثين ايجاد حل للمسألة بتقسيم كشمير بين الهند وباكستان ولكن هذا الرأى لم يعجب الدولتين . وكان رجاء الاستفتاء وتراخى الهند فى قبول أى حل لمسألة قد أدى الى أن ترتمى باكستان فى أحضان المعسكر الغربى فاتفقت مع الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ لاقامة قواعد جوية فى بلادها . وكان هذا فى نظر الهند التى تقف على الحياد بين المعسكرين الشرقى والغربى تهيئة حرب باردة فى شبه القارة الهندية . وكان أن رفضت الهند اجراء أى استفتاء معتبرة أن المسألة تحد عسكرى لها . وربما يكون لدى الهند عذر فى ذلك . بينما تبرر باكستان موقفها هذا بأن الهند تحتفظ بجيوشها قريبة من مداخلها فى أرض كشمير وهذا يهدد سلامتها (٢) ولذلك رضيت بقواعد غربية فى بلادها .

وأخيراً ترى باكستان أن تقسيم أجحف بنصيبها من جميع النواحى . وهو يكاد أن يكون عزلا فى أقليم صحراوية وشبه صحراوية فقيرة أما البنغال فقد قسمت هى الأخرى وانتزع جزؤها الغربى الغنى اقتصادياً وضم للهند . وأصبح أهل بنغال الشرقية يضجون من شكوى الجوع والفقر . بينما أصبحت

---

(١) Jayaprakash Narayan, our great opportunity in "Kashmir" The Hindustan times, April 20, 1964

(٢) Pakistan Year Book 1954-55, P 271.

الهند تستولى على جميع موارد ثروة الاقتصادية بشبه القارة . وحتى فى كشمير استولت الهند على سرينجر عاصمة وادى جهيلم ولداخ عاصمة وادى السند الأعلى . ولم تبق لباكستان سوى الأطراف الغربية الفقيرة والأقاليم الجبلية العالية الخطرة حدودها . وبذلك تعقدت مسألة كشمير تعقدا كبيراً .

واذا كان من الممكن ايجاد حلول لهذه المسألة فاننا نجد فى الوقت الحاضر انه من الناحية الاستراتيجية استولت باكستان فعلا على اقليم جلجيت وكركورم الواقعين غرب خط وقف اطلاق النار وشماله إذا اعتبرنا هذا الخط حدوداً بين حكومتين المتخاصمتين — . أما الهند فقد استولت فعلا على كل الأجزاء الخصبة وعلى موارد الفحم والحديد والقوى المائية . ولذلك تمسكت كل منهما بنصيب لا تحيد عنه . كما حاولت الهند أن تتحد مع الجزء التابع لها اتحاداً تاماً وتضمه جزءاً من أراضيها .

وبعد ذلك نقترح ثلاثة حلول للمسألة بعد مناقشتنا للظروف الجغرافية جميعاً فى كشمير وعلى ضوء هذه العوامل المختلفة .

الحل الأول المقترح هو أن تخرج جميع الجيوش من كشمير (الهندية — والباكستانية) وتصبح كشمير دولة حرة مستقلة كدولة الحدود Buffer State مثل أخواتها نيبال وبوتان وتضمن الأمم المتحدة استقلالها وتحرص على مداخلها وتكون كشمير دولة محايدة لا تستخدمه ممراتها وقت الحرب أو حسب الاتفاقات الدولية . وبهذا تضمن باكستان على سلامتها من الناحية العسكرية أما النواحى الاقتصادية فهى تستطيع تنظيمها عن طريق المعاهدات والاتفاقات أما الهند فانها سترحب بهذا الحل لأن ثروة كشمير بالنسبة لها تعتبر ثروة ضئيلة ولن تخسر كثيراً بتنازلها عنها . وبهذا الحل لن يكون هناك احتكاك بين دولتى شبه القارة فى كشمير .

أما كشمير فانها ستعيش حرة قابعة فوق الهيمالايا كما عاشت قديماً منعزلة حصينة فى أعلى الجبال .

الحل الثاني المقترح : هو أن تقسم كشمير كما هي في الوقت الحاضر ويكون خط وقف اطلاق النار هو خط الحدود بين الدولتين . وبهذا الحل ستنال الهند الجزء الغني وباكستان الجزء الاستراتيجي بالنسبة لها . ولكن هذا الحل رغماً لن ترضى عنه أي من الدولتين ولا كشمير نفسها . وان كانت الهند تعتبر موقفها موقفاً قانونياً قبل كل شيء .

الحل الثالث : [illegible] ان الهند تتهم باكستان بأمرين :

الأول : [illegible] قامت بالاعتداء والحرب في كشمير سراً وعلانية وساعدت القبائل المهاجمة على الاحتلال بالقتال في كشمير .

الثاني : [illegible] قواعد أمريكية في أراضيها تهدد سلامة الهند وأمنها وربما يكون حل [illegible] هو في أن تتدخل هيئة دولية بقوة تدعمها بالتوفيق بين الدولتين وتخفيف حدة التوتر على الحدود بينهم وتقريب وجهات النظر فتخرج الجيوش [illegible] من أرض كشمير وتهيئ الجو لاستفتاء الشعب في تقرير مصيره [illegible] من [illegible] الأمريكية حتى تتقارب وجهات النظر [illegible] الآسيوية الافريقية [illegible] السلام والأمن في كشمير [illegible]

وبهذا [illegible] تتطلب [illegible] استفتاء الشعب في كشمير أن يكون [illegible] والقانون والنظام في كشمير (١) كما [illegible] أن [illegible] من أن الشعب الكشميري هو [illegible] مصيره بنفسه [illegible] ظروف لا [illegible] والأمن خروج الجيوش من كشمير حتى يحقق الشعب الكشميري [illegible] منذ شهر أغسطس عام ١٩٤٧ .

---

(١) Noorani (A. G.) The Kashmir Question, Bombay 1964, P. 34.

من خطاب ترنهيرو [illegible] ستر لياقت علي خان في ٣١ اكتوبر ٩٤٨

وربما ترضى باكستان بهذا الحل لأنها تطلب الاستفتاء دائماً ولن يحدث هذا الاستفتاء الا بخروج الجيوش وتحت اشراف الأمم المتحدة والا بعد أن تطمئن الهند أيضاً من ناحية نوايا باكستان الطيبة .

وربما ترضى كشمير لأن الشعب هناك سيضمن مصالحه الاقتصادية .

ولعل هذا أن يكون أوفق الحلول لتحسين العلاقات بين الدولتين العظيمتين لمواجهة مشاكلهما معاً كما يأمل ذلك كثير من رجال الحرب والسياسة في شبه القارة .

١٠ – أبريل ١٩٦٥

المراجع

المراجع العربية :

أحمد محمود الساداتي   تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم الجزء الأول القاهرة ١٩٥٧ .

البلاذري (الامام أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي) – فتوح البلدان طبعة القاهرة ١٣١٩ هـ – ١٩٠١ م

البيروني – (أبو الريحان محمد بن أحمد) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة – طبعة الهند ١٩٥٨ م .

الهمذاني – (ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني) – مختصر البلدان طبعة ليدن ١٣٠٢ هـ .

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب) تاريخ اليعقوبي – طبعة العراق (النجف ١٣٥٨ هـ الجزء الثالث) .

فرج جبر   – رحلتي معي الى باكستان – القاهرة ١٩٥٥ .

المراجع الأجنبية :

Bamzai (P.N.K.) a History of Kashmir, Delhi 1962.

Dutt (R.) The Economic History of India, Vol. 2, Delhi 1960

East (W. G.) and Spate (O.H.K.), The Changing Map of Asia, London 1961.

Grenard (F.) Haute Asie (Geographie Universelle) T. VIII, Paris 1929.

Gwasha lal Kaul, Kashmir, Srinagar 1963.

Hand Book of India (the M.I.B. Government of India Kadamtala, Howrah 1951.

Herbertson (F.D.) Asia, London 1913.

Holdich (Sir T.H.) India, London

ﺟ) كتب في هذا الكتاب سنة الطبع

Jayaprakash Narayan. Our great opportunity in Kashmir, The Hindustan Times, April 20, 1964.

Jayaprakash Narayan, The Need to Re-Think, Hindustan Times may 15, 1964.

Knight (E.F.) Where Three Empires Meet, london 1919

Noorani (A.G.), The Kashmir Question, Bombay, 1964.

Pakistan Year Book 1954-55, Karachi 1955.

Ray (S.C.) Early History and Culture of Kashmir, Calcutta 1957.

Sion (Jules), Asie des Moussons (geographie Universelle t. IX., Paris 1929.

Spate (O.H.K.) India & Pakistan, London 1960.

Spear (P.) India, Pakistan & the West, London 1958.

States Man's Year Book, Edit Steinberg (S.H.), London 1964-65.

Stephens (Ian), Pakistan, London 1963.

الخرائط :

Bartholomew (J.), Map of India, Burma & Ceylon, scale : 4, 000,000 Edinburgh

Bartholomew (J.) The Times Atlas of the World. V. II, Sc. . West Asia & Russia, London 1959.

بخـــارى

للدكتور طه ندا

معنى بخارى :

حاول ياقوت أن يهتدى إلى اشتقاق هذه الكلمة ومعناها فلم يوفق ، وأعلن هذا صراحة حين قال «أما اشتقاقه وسبب تسميتها بهذا الاسم فانى تطلبته فلم أظفر به [1]» . وذكر بارتولد فى دائرة المعارف الاسلامية مادة بخارى أنها من بخار وهى صيغة تركية مغيرة لكلمة سنسكريتية «فهارا» ومعناها صومعة أو دير . وذكر بارتولد أنه كان للبوذيين معبد فى بخارى أو فى مكان قريب من المدينة . وفى لغة الزند القديمة ورد فيها لفظ بخار بمعنى الحكمة والعلم . ويذكر خورشيد هذا المعنى فى اشتقاق لفظ بخارى فيقول إنها من بخار . ومعنى هذه الكلمة فى لغة المجوس مجمع العلم [2] .

ويبدو هذا أن بخارى لم تكن فى الأصل اسما علما لمكان بل كانت صفة . ولا بد أن يكون للمجوس فى تلك المنطقة معبد يختلفون اليه للعبادة والعلم ومناقشة المسائل الدينية . ويتفق هذا المعنى مع كلمة بهار وهى قريبة من بخار ومعناها معبد البوذيين (بالاضافة إلى معانيها الأخرى) . وعلى هذا تتفق التفسيرات جميعا فى أصل معنى الكلمة . وبتطور الأزمنة أهمل الناس اسم المكان الأصلى واكتفوا بصفته . وبقيت لنا بخارى ولم يبق الاسم القديم .

بخارى والفتوح الاسلامية :

معلوماتنا عن بخارى فى عهدها القديم معدومة . وترجع معرفتنا بها إلى ما قبيل الاسلام حين توفى ملكها وجلست على العرش زوجته الملكة

---

(١) معجم البلدان : بخارى .

(٢) حبيب السير : ج ١ مجلد ٣ ص ١٢ طبع بمبى .

لأن ابنها كان رضيعاً.وفى أيام هذه الملكة استولى العرب على بخارى. وتسمى المصادر التى بين أيدينا هذه الملكة باسم «خاتون» الا الطبرى فانه يسميها «قبج خاتون»(١) . وهذا يدلنا على أن خاتون لم يكن اسم الملكة ولكنه لقب لها . ولفظة خاتون بمعنى السيدة . ولعل اكتفاءهم بذكر لفظة خاتون يرجع إلى الجهل باسمها .

ومع أننا أيدنا الطبرى فيما ذكره خاصاً باسم هذه الملكة الاأننا نخالفه فيما ذهب اليه من أن زوجها الملك كان حياً أثناء الحرب التى دارت بين الترك وعبيد الله بن زياد حين هاجم هذا الأخير بخارى (٢) . وترجع مخالفتنا للطبرى فى هذه النقطة لأسباب كثيرة منها أنه انفرد بذكرها دون غيره من المصادر . ولأن الحروب بين العرب والترك كانت كثيرة متعددة فى عهود مختلفة وتحت راية قادة مختلفين فلم نسمع له — أى لزوجها — ذكرا فى حرب منها ولاجرت له واقعة بين الترك والعرب ولا ورد اسمه فى حرب أو سلم . هذا فضلا عن أن الطبرى الذى انفرد بذكر اسم الملكة لم يستطع أن يذكر لنا اسم ذلك الملك . أما النرشخى فيذكر اسم ذلك الملك وهو بيدون ويصرح بأنه مات قبل استيلاء العرب على بخارى فى عهد زوجته الملكة (٣) .

ومع أن العرب غزوا ماوراء النهر فى سنة ٤٦ هـ=٦٦٦م على يد القائد ربيع بن الحارث الا أن معرفتهم بهذا الاقليم ورغبتهم فى فتحه كانت أقدم من ذلك ، فابن الأثير فى حوادث سنة ٢٢ يذكر أن الأحنف بن قيس غزا خراسان ، وأن عمر أذن للمسلمين فدخلوا بلاد فارس تعقباً ليزدجرد ، وأنهم هزموه عند بلخ فعبر منهم وعبر النهر ورغب المسلمون فى مطاردته ولكن عمر كتب إلى الأحنف وطلب اليه أن يقتصر على ما دون النهر

---

(١) الطبرى : حوادث سنة ٥٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) تاريخ بخارا : ص ٨ ط طهران .

ولا يجوزه . ولا شك فى أن عمر أراد أن يمنع المسلمين من التوغل فى تلك الأقاليم خوفاً عليهم لجهلهم بها .

وبمرور الأيام سمع العرب الكثير عن تلك الأقاليم الغنية فكانوا يقومون بغزوات متقطعة غير منظمة يعودون منها بالغنائم الكثيرة فعرف العرب تلك الأقاليم بالتدريج وشجعهم غناها وضعفها على أن يقوموا بغزواتهم التى أخذت شكلها المنظم فيما بعد .

وفى سنة ٤٦ هـ = ٦٦٦م أرسل زياد بن أبى سفيان القائد العربى ربيع ابن الحارث من العراق إلى خراسان . وتقدم هذا القائد نحو الشرق منتصراً وتغلب على من لقيه من حكام ايران حتى بلغ فى فتوحه مدينة بلخ . ولم تكن هذه الغزوة وما سبقها من الغزوات محددة الأهداف ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة للعرب فقد عرفتهم بضعف هذا الغنى وأغرتهم فيما بعد بتنظيم الجيوش لفتحه والاستيلاء عليه . وهنا نرى الفرق بين هذه الغزوات الأولى وما تلاها بعد ذلك من الغزوات من حيث تصميم الخطة ووضوح الهدف . والقدرة على بلوغه وتحقيقه .

وفى أواخر سنة ٥٣ هـ = ٦٧٢ م سار عبيد الله بن زياد إلى خراسان وفتح ما اعترضه من البلاد حتى بلغ بخارى . وهناك لقى الترك وهزمهم هزيمة منكرة أوقعت الرعب فى قلب الخاتون فأسرعت إلى الفرار وقد لبست أحد خفيها . وتركت الآخر من فرط ما أصابها من الفزع (١) . وقد سبى عبيد الله فى تلك الغزوة ألفين من مقاتلة البخارية وعاد بهم إلى البصرة حيث أسكنهم هناك . وظلوا بها حتى بنى الحجاج مدينة واسط فنقل كثيراً منهم إليها (٢) وسكة البخارية زيادة معروفة بالبصرة . ولما رأت الخاتون بذكائها وبعد نظرها أن لا قبل لها بهؤلاء الفاتحين من العرب اضطرت أن تلجأ

---

(١) الطبرى : حوادث سنة ٥٤

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى : ص ٣٨٤ ط مصر ١٩٠١ م .

إلى السياسة فعقدت مع عبيد الله الصلح وطلبت الأمان وتم الصلح ودفعت أموالا طائلة ، وأخذ عبيد الله المال وعاد عنها (١) .

ويصف النرشخي تلك الملكة بصواب الرأى وقوة الشخصية حتى استطاعت أن تستولى على الملك وتخضع الجميع لها . وكانت الخاتون تحيا حياة الأبهة والعظمة فإذا جلست على العرش صطف أمامها الغلمان والسادة ، ولم يكن أحد يجرؤ على الجلوس فى حضرتها . وكان من التقاليد التى وضعتها الخاتون أن يأتى كل يوم لخدمتها مائتا شاب من أبناء الدهاقين والأمراء يتمنطقون بالمناطق الذهبية ويعلقون السيوف فى حمائلها . وكانت مهمة هؤلاء الشبان أن يصطفوا صفين لأداء التحية كلما خرجت الملكة . وكان من عادة تلك الملكة أن تقضى فترة الصباح تباكر فى تصريف شئون الملك حتى إذا فرغت دخلت القلعة وأمرت بمد الموائد وإذا أقبل المساء خرجت مرة أخرى على تلك الهيئة واعتلت العرش مواصلة تصريف أمور الدولة . وكان الأمراء والدهاقين يصطفون فى حضرتها صفين . وتظل كذلك حتى إذا أقبل الليل عادت إلى القصر فى موكبها . وبعودتها تنتهى خدمة هؤلاء الشبان ويعودون إلى بلادهم ليحل محلهم فى اليوم التالى مجموعة أخرى . وكان هذا الحرس يختار من بين أرقى الأسرات شأناً ليكون مظهراً من مظاهر التفاف كبار رجال الدولة وأعيانها حول الملكة وخضوعهم لها . وكان هذا الحرس يتغير كل يوم بحيث تدور النوبة على كل مجموعة من هؤلاء الشبان أربعة أيام فى السنة . (٢) .

---

(١) لا أدرى على ماذا اعتمد فمبرى Vambery فى ذكره عن هذه الواقعة من انهزام عبيد الله بن زياد وسحابه فى مرو دون أن تفتح بخارى فى الفصل الثانى من كتابه تاريخ بخارى History of Bokhara p. 19 وما بعدها . ونلاحظ أن الكتاب الغربيين الذين نقلوا عن فمبرى قصة مثل Skrine و Ross فى كتابهما وسط آسيا Heart of Asia لم يأخذا بهذا الكلام وذكرا ص ٩٤ أن خاتون بخارى ... عندما أحست بتقدم العرب وأنها عقدت مع عبيد الله بن زياد معاهدة دفعت بمقتضاها جزية سنوية للعرب . وهذا يضع فى هزيمتها . وهذه الرواية توافق ما جاء فى المصادر العربية .

(٢) تاريخ بخارا ص ٩ .

ولما عزل عبيد الله عن امارة خراسان فى سنة ٥٦ هـ = ٦٧٥ م وأصبح سعيد بن عثمان أميراً عبر جيحون واتجه إلى بخارى فأرسلت اليه الخاتون تطلب تجديد الصلح الذى كانت قد عقدته مع سلفه عبيد الله كما أرسلت اليه بعض الأموال والهدايا . وفى أثناء ذلك كانت الجيوش قد تقاطرت عليها من جيرانها حتى بلغ عددها ١٢٠،٠٠٠ مقاتل . وعندما وجدت هذه الجموع تلتف حولها وتؤيدها ندمت على ما أرسلت من هدايا وأموال اعتقاداً منها أنها المنتصرة فى تلك الحرب . ولكن سعيداً أعاد اليها الأموال ثانية ولم يقبل الصلح . ودار القتال وخرجت الخاتون ومن معها منهزمين . وبعد هزيمة الأعداء فى بخارى أراد سعيد أن يواصل سيره إلى سمرقند . ورأى أن يحتاط للأمر ويجنب جيشه خطر الانقضاض عليه فطلب من الخاتون أن تقدم له رهائن توكيداً لحسن نيتها فقدمت اليه ثمانين شخصاً من الأمراء ودهاقنة بخارى الذين كانوا يعادونها ويثيرون فى وجهها المتاعب . ووجدت بهذا الشكل فرصة سانحة للتخلص منهم .

وبعد أن فرغ سعيد من أمر الفتوح فى سمرقند والصغد وعاد مكللا بالظفر طلب منه البخاريون عند عودته إلى خراسان أن يسلمهم الرهائن فلم يفعل وحملهم معه . وكان كلما طولب باعادتهم أرجأ ذلك . ولما أحس هؤلاء الرهائن باليأس من العودة إلى بلادهم هجموا على سعيد فى قصره فقتلوه ثم انتحروا بعد ذلك . وكان ذلك فى خلافة يزيد بن معاوية .

وتولى حكم خراسان بعد سعيد مسلم بن زياد الذى سار شرقاً حتى عبر جيحون . وهنا نجد الملكة تعود إلى الاستنجاد بجيرانها فجاءها منهم جيش كثيف ولم يثن هذا الجيش الضخم العرب عن المضى فى طريقهم ومحاصرة بخارى . وكان المهلب من بين أعوان مسلم فى تلك الحرب . واستطاع الجيش العربى أن يهزم الأتراك وأن يحقق من الغنائم شيئاً عظيما .

وعندما تولى قتيبه بن مسلم أمرخراسان سنة٨٦ بدأ عهده بخطبة الناس وحثهم على الجهاد لرفع لواء الاسلام، وإذلال العدو، واستفاضة الأموال (١).

وكان الفتح النهائى لهذه المدينة على يدى قتيبه . وقد تم هذا الفتح على أربع مرات إذ المعروف أن قتيبة غزاها أربع مرات تم له بعدها إخضاعها وكان يحكم بخارى فى أول أمرها أمراء من الوطنيين (بخارخدات) : الا أن قتيبة رأى أن يضعف شأنهم فعين حاكماً عربياً إلى جانب الأمير البخارى .

ويذكر النرشخي (٢) أن أهالى بخارى كانوا يعتنقون الاسلام فى كل مرة يغزوهم فيها قتيبة ، فاذا رجع عنهم ارتدوا إلى الكفر . وكان قتيبة قد حملهم على اعتناق الاسلام ثلاث مرات وكانوا يرتدون فى كل مرة . ولما استولى قتيبة على بخارى للمرة الرابعة أظهر البخاريون الاسلام بينما كانوا فى الحقيقة يبطنون عبادة الأصنام . ورأى قتيبة تجميعاً منه أن يشرك العرب مع البخاريين فى مساكنهم . فيطلعوا بذلك على حقيقة أحوالهم . ويتأكدوا من صحة إسلامهم . وبهذه الطريقة أعلن الاسلام وألزم الناس أحكام الشريعة، وبنى المساجد . وأزال آثار الكفر . وكان يعاقب كل من قصر فى أحكام الشريعة .

ومع أن الاسلام انتشر فى تلك الأنحاء إلا أن سلطان الدولة العربى لم يكن قوياً فيها لأسباب كثيرة لعل أهمها بعد تلك الأصقاع عن عاصمة الخلافة ومراكز الحكم . كذلك لم يكن الحكام العرب يتصرفون دائماً تصرفاً سليماً فى بعض شئون الادارية . وكان أشرس بن عبد الله سلمى مثلا واحداً من هؤلاء الحكام . وكان سوء تصرفه سبباً فى حركة قامت ضد السيادة العربية وشملت كل ماوراء النهر وكلفت العرب خسائر باهظة ذلك لأنه فكر فى سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م فى مشروع يؤدى إلى اعتناق

---

(١) الطبرى : حوادث سنة ٨٦

(٢) تاريخ بخارا : ٥٦

أهل ما وراء النهر الاسلام فأوفد وفداً إلى سمرقند ، ووعد برفع الجزية عن يسلمون فنجح الوفد فى مهمته نجاحاً عظيما لم يكن متوقعاً مما أثر تأثيراً سيئاً فى الايراد الذى كان يجبى . ولما عاد أشرس إلى تحصيل الجزية ممن كانت تحصل منهم فكان هذا سبباً لقيام ثورة عنيفة. وثار أهالى الصغد ضد العرب وطلبوا معونة الأتراك . وضاعت أكثر المدن من يد العرب إلا أنهم فى سنة ١١١ هـ = ٧٢٩م استطاعوا أن يستردوا نفوذهم فى بخارى.
ومن هؤلاء الحكام أيضا غطريف بن عطا الذى عين أميرا على خراسان فى رمضان سنة ١٨٥ هـ = ٨٠١ م من قبل الخليفة هارون الرشيد ، فجاءه أعيان بخارى يطلبون منه أن يسك لهم نقوداً أسوة بما كانوا يفعلون من قبل إذ كان ملوكهم يضربون الدراهم فى بخارى من الفضة الخالصة . ولما كان صنع النقود من الفضة الخالصة أيام غطريف يكلف كثيراً فضلا عن ندرة الفضة فى ذلك الوقت فقد فكر غطريف أن يسك نقوداً من معادن مختلفة هى الذهب والفضة والرصاص والصفيح والحديد والنحاس . ونسبت تلك العملة إلى غطريف . ويقول لها عامة الناس غدريفية . ولم تعجب هذه العملة أهل بخارى فقد كان لونها سوداً لم يألفوه فى عملتهم من قبل . وكانوا يقومون كل ستة من هذه الدراهم الغطريفية بدرهم واحد من تلك الدراهم الفضية الخالصة . ولهذا السبب ارتفع قدر خراج بخارى لأنه كان يقدر فى أصله على أساس مائتى ألف درهم من الفضة الخالصة(١). وعلى هذا الأساس صار دفع الضرائب ، الدرهم الفضى الواحد يساوي ستة دراهم غطريفية . ولكن بعد قليل ارتفعت قيمة الدرهم الغطريفى حتى ساوى الفضى . وكان مقتضى

---

(١) يذكر الأب أنستاس الكرملى فى كتاب النقود وعلم النميات ط القاهرة ١٩٣٩ ص ١٥ أن الغطريفى لفة فى القتروف نسبة الى قدرف ويقال فيها غترف وقطريف وهى اسم مدينة فى جوار بخارى ذكرها صاحب البرهان قاطع . وينقل عن فولرز فى معجمه قوله "قترف أو قطريف ضرب من الدراهم كانت معروفة فى مدينة قدرف وهى المدينة التى يسميها العرب غترف . والواحد منها – أى الدراهم – قد رق". هـذا ما ذكره الأب أنستاس الكرملى . والواضح أن هذه النسبة الى الوالى غطريف كما قلنا . وقد ذكر هذا المؤرخون الذين كانوا قريبى عهد بتلك الحوادث أمثال النرشخى (٢٨٦–٣٤٨ هـ) بينما تولى غطريف سنة ١٨٥ . وفضلا عن هذا فالنرشخى من أبناء تلك البلاد ومعلوماته عنها يجب أن توضع موضع الاعتبار . وحتى مدينة قدرف التى أشار اليها الأب الكرملى اعتمادا على فولرز لا يبعد أن يكون اسمها مأخوذا من غطريف نفسه .

هذا أن تخفض الضرائب (١) ، لكن هذا لم يحدث ، بل ان قيمة الغطريفى قد زادت فيما بعد فأصبح كل مائة درهم فضى تساوى ٨٥ غطريفياً ثم أصبحت بعد ذلك تساوى سبعين غطريفياً فقط . وفى هذه القصة أكثر من دليل على اضطراب الشئون المالية والادارية فى تلك البقاع .

وكان تعصب بعض الخلفاء العباسيين من العوامل القوية فى اضعاف سلطة الدولة العباسية فى تلك الأقاليم النائية . وكان الخليفة المتوكل مثلا لهذا التعصب . وبلغ من تعصبه ضد الشيعة أنه أمر فى سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م بهدم مزار كربلاء وحرم على الناس زيارة ذلك المكان كما أمر فحرثت أرض المزار ، وزرعت فيها الزروع (٢) .

وفى الوقت الذى بدأ فيه العالم الغربى كاسبانيا ومراكش وافريقيا ومصر يخرج من سيطرة الخليفة العباسى كان العالم المشرقى يتجه فى نفس الاتجاه .

• • •

وفى السنة التى مات فيها المتوكل ظهر يعقوب الصفار واندفع من سجستان إلى هراة . وبعد ثمانى سنوات نجده فى سنة ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ م قد حاز كرمان وأرسل الهدايا إلى الخليفة المعتز ، وأخذ يوسع دولته حتى ضمت بلخ وطخارستان ونيشابور وجزءاً من جرجان ورام هرمز والأهواز .

الدولة السامانية :

لم يرتفع شأن بخارى إلا بقيام الدولة السامانية التى اتخذتها عاصمة لها . وتنسب هذه الدولة إلى سامان خدا أى أمير سامان وهى قرية من قرى بلخ (٣) . وينتمى نسب هؤلاء السامانيين إلى بهرام چوبين (٤) .

---

(١) لأن الدرهم الغطريفى كان يساوى سدس درهم فأصبح يساوى درهما .

(٢) جوامع الحكايات لعوفى الورقة ٩٨ والطبرى .

(٣) معجم البلدان : مادة سامان .

(٤) بهرام چوبين من الشخصيات البارزة فى تاريخ الدولة الساسانية . كان من بين قواد هرمز وطمع فى الملك الا أنه قتل فى النهاية .

وفى عهد الخليفة المأمون عين أبناء أسد بن سامان حكاماً فى المشرق . فعين نوح حاكماً على سمرقند ، وعين أحمد حاكماً على فرغانة ، ويحيى حاكماً على الشاش ، والياس على هراة .

وكان الفرع المهم الذى تسلسلت منه الأسرة السامانية الحاكمة فى بخارى هو فرع أحمد بن أسد . ويعتبر اسماعيل بن أحمد أول حاكم حقيقى لهذه الأسرة لأنه استطاع أن يقضى على الدولة الصفارية سنة ٢٨٨ هـ = ٩٠٠م ويستولى على خراسان . وقد أقره الخليفة العباسى على ولاية خراسانه وضم إليه ما وراء النهر . وبهذا كانت الدولة السامانية تسيطر على اقليمين رئيسيين أحدهما غربى نهر جيحون وهو خراسان وعاصمته مرو(١) . ولما كان عهد السامانيين أزهى العهود التى عاشتها مدينة بخارى لزم أن نتحدث بشىء من التفصيل عنها فى عهد الدولة السامانية .

موقع بخارى :

تقع بخارى فى اقليم الصغد الخصيب . ويرجع الفضل فى خصوبة هذا الاقليم إلى نهر الصغد المشهور (زرفشان) وما يتفرع عنه من أنهر كثيرة وبفضل هذه الخصوبة امتاز الاقليم بوفرة المحاصيل وكثرة الثمار حتى أنه لم يعد فى حاجة إلى غيره من الأقاليم . وبهذا السبب قلما تعرض لمجاعة أو قحط فعنده دائماً ما يكفى ويفيض (٢) . وتحيط الخضرة المتصلة مدينة بخارى فلا يقع البصر فيما امتد الا على زرع وخضرة .

والمدينة محصورة بالأنهار والمياه ، فنهر الصغد يشقها بفروعه حتى يتخلل الأسواق ويتشعب فى الشوارع(٣) . ويتفرع منه عدد من النهيرات نشير اليها فيما بعد .

---

(١) يقال لها مرو الشاهجان وهى القصبة . ومن نواحيها مرو الرود .

(٢) مسالك الممالك : الاصطخرى ص ٢٨٧ – المكتبة الجغرافية العربية ط . دى جويه

(٣) أحسن التقاسيم : المقدسى ص ٣٣١ – ط . دى جويه .

وعندما تتدفق مياه نهر الصغد في فصل الصيف يفيض على الجانبين مكوناً مستنقعات واسعة في أطراف المدينة .

ومع وفرة مياهها واحاطتها بالأنهار فان القذارة كانت غالبة على أزقة المدينة الضيقة . وقد أدت وفرة المياه إلى رطوبة الجو ووخامته . ولهذا كره الاقامة فيها كثير من الوافدين عليها . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

أقمنا في بخارى كارهينـــا ونخرج إن خرجنــا طائعينا

فأخرجنا إله النـــاس منها فان عدنا فانــا ظالمونــا

ويقول آخر :

لو الفرس العتيق أتى بخــارى لصار بطبعه فيها حمارا (١)

سكان بخارى :

وسكان بخارى كما يقول اليعقوبي أخلاط من الناس بين عرب وعجم . وكانت بخارى من أكثر المدن ازدحاماً بسكانها . وبسبب كثافة السكان تلاصقت المساكن والمباني ، وقل الاهتمام بالنظافة فكانت القذارة والروائح الكريهة منتشرة في أحيائها وأزقتها . وكانت بيوتها تبنى من الخشب ولهذا تعرضت المدينة لكثير من الحرائق في أوقات متقاربة . واندس بين أهلها أصحاب المفاسد ودعاة الرذيلة . وهذا أمر طبيعي في مدينة تجمع أخلاطاً من الناس وتزدحم بهم . ولوفرة خيراتها انتشر الترف بين أهلها «حتى لبسوا الحرير والديباج وشربوا في أواني الذهب والفضة وهونوا أمور الدين (٢) » .

---

(١) اليتيمة : للثعالبي ٤ — ٧١ ط. محي الدين .

(٢) المقدسي : ٣٣٨

علماء بخارى :

ومع هذا فقد كان لأهل العلم والفقه مكانة كبيرة في المجتمع . ويروى المقدسي أنهم كانوا يرفعون شأن الفقهاء ويستشيرونهم في شئون الدولة .

وكان الفقهاء والعلماء يمتازون عن غيرهم في المجتمع البخاري فهم يتطيلسون ولا يتحنكون (١) . وكان لبس الطيلسان وقفاً على الكبراء وحدهم أما عامة الناس فكانت تكتفي بالأقبية المفترحة .

وكان الأمراء السامانيون يعفون العلماء من تقبيل الأرض بين أيديهم إكراماً لهم . وكان رئيس العلماء ينتخب من بين فقهاء الحنفية في بخارى . وكان المفتي وشيخ الاسلام يسمى «أستاذاً» . أما المعلمون ورجال الدين فيما وراء النهر فكانوا يطلقون على الواحد منهم لقب «دانشمند» أي عالم . كذلك كان من بين الوظائف الروحية وظيفة الخطيب . وكانت الخطب تلقى في المسجد الجامع بالعربية ولذلك كانوا يختارون هذه الوظيفة من جيد العربية (٢) .

وقد أخرجت بخارى إلى العالم الاسلامي مجموعة من أئمة المسلمين نذكر منهم على سبيل المثال :

أمير أهل الحديث أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ولد في بخارى سنة ١٩٤ وتوفي بخرتنك من قرى سمرقند سنة ٢٥٦ .

أبو علي حسين بن عبد الله بن سينا الحكيم المشهور . وكان أبوه من أهل بلخ ثم انتقل إلى بخارى وعين عاملاً على قرية يقال لها خرميثن من قرى بخارى . وفيها ولد أبو علي سنة ٣٧٠ وتوفي بهمدان ٤٤٨

ومن قضاتها المشهورين عيسى بن موسى التيمي المعروف بغنجار . وعمر بن خلف البلخي الذي تولى القضاء سنة ٢١٣ وكان يضرب به المثل

(١) المقدسي : ٣٢٨

(٢) Barth. Id : Turkestan down to the Mongol Invasion P. 233

فى العدل والانصاف : أحمد بن ابراهيم البركدى الذى تولى القضاء زمن السلطان أحمد بن اسماعيل السامانى وكان فقيهاً زاهداً، وأبو ذر محمد بن يوسف من حملة أصحاب الامام الشافعى وكان عالماً زاهداً مقدماً على علماء بخارى (١) .

مساجد بخارى :

كان أول مسجد بنى هناك المسجد الجامع الذى بناه قتيبة سنة ٩٤ هـ = سنة ٧١٣م . وقد بنى فى ذلك الموضع مكان سوق كانت تباع فيها الأصنام وعندما أقيم هذا المسجد دعا قتيبة أهل بخارى لصلاة الجمعة فيه كل أسبوع ولكى يغريهم بأداء الصلاة جعل لكل واحد منهم درهمين مكافأة . وقد ذكر النرشخى (٢) أنه رأى مسجد بخارى وعلى أبوابه نقوش وثنية فسأل عن ذلك فعرف أنه كان فى خارج بخارى سبعمائة قصر أقامها أعيان بخارى وكان هؤلاء الأغنياء قد أظهروا العناد ورفضوا أن يعتنقوا الاسلام بينما قبل ذلك الفقراء . وفى أحد أيام الجمعة دعا المسلمون أصحاب تلك القصور إلى الصلاة فرموهم بالحجارة وقامت بين الفريقين منازعة ومناوشة فهجم المسلمون على تلك القصور وانتزعوا أبوابها . وكان على تلك الأبواب صور أصنامهم ومعبوداتهم ، فلما وسع المسلمون مسجدهم استخدموا تلك الأبواب بعد أن كشطوا ما استطاعوا من الصور والنقوش وتركوا الباقى .

ولما ازداد عدد المسلمين وتزايد دخول الناس فى الاسلام لم يتسع لهم الجامع فكان كل حاكم يزيد فيه شيئاً حتى جاء الأمير اسماعيل السامانى واشترى بيوتاً كثيرة وزاد فى الجامع بمقدار الثلث .

ويروى أنه فى أيام الأمير السعيد نصر بن أحمد بن اسماعيل السامانى خر سقف المسجد فوق المصلين ومات فيه خلق كثير . وقد جدد بناؤه بعد ذلك الا أنه تخرب من جديد وتداعت قبته . وفى سنة ٣٠٦ = ٩١٨ أعيد بناؤه مرة أخرى وأضيفت إليه مئذنة على نفقة الوزير أبى عبد الله الجيهانى .

---

(١) تاريخ بخارا : للنرشخى ص ٢

(٢) المصدر السابق : ص ٥٧

ولحداثة عهد البلاد بالاسلام لم يكن المسلمون يأمنون على أنفسهم من الكفار فكانوا يخرجون مسلحين . وبقيت هذه العادة إلى عهد النرشخي .

وتتابع الأيام ويزداد عدد المسلمين حتى يضيق بهم الجامع ويضطروا إلى الصلاة خارجه في أيام الأعياد على مساحة من الأرض تمتد نصف فرسخ(١). وكان ذلك في سنة ٣٦٠ في عهد الأمير منصور .

قصور بخارى

عندما أمر قتيبة بن مسلم البخاريين أن يشركوا معهم العرب في بيوتهم على نحو ما أشرنا إليه فيما سبق ، رفض فريق من أهلها من أهل الثروة واليسار وفضلوا أن يتركوا بيوتهم للعرب ويبنوا لأنفسهم قصوراً جديدة خارجها . وهؤلاء القوم هم المعروفون باسم كشكشان ، وكانوا أصلا من الأجانب الذين توطنوا في المدينة زمناً طويلا . وبلغ عدد القصور التي بنوها لأنفسهم خارج بخارى سبعمائة قصر . كما بنوا حولها بيوتاً لأتباعهم وخدمهم . ومن ثم نشأت ناحية جديدة . وكان موضع هذه الناحية يقال له قصر المجوس كوشك مغان لأنهم ظلوا على دينهم عناداً منهم واستكباراً . وكان يوجد لكل قصر من هذه القصور بستان كبير . ونقش على باب كل قصر صورة المعبود الذي يعبده صاحبه . ولما قام نزاع بينهم وبين السامانيين انتزع هؤلاء أبواب هذه القصور واستخدموها في بناء المسجد الجامع كما مر من قبل .

ولما استقر السامانيون في بخارى أعجبت هذه المنطقة قواد الحرس السامانى فأقبلوا على شراء أراضيها حتى ارتفع ثمنها ارتفاعاً كبيراً . ويستنتج بارتولد أن هذه المنطقة كانت تقع في الشمال الغربي للمدينة (٢) .

---

(١) تاريخ بخارا : ٦١

(٢) تركستان : ١٠٨

وفى عهد الدولة السامانية زاد عدد القصور التى بنيت فى بخارى إذ كان كل واحد من أمراء هذه الدولة يقيم لنفسه قصراً . وكان شاطىء نهر رباح المكان المفضل لبناء هذه القصور بسبب جمال هذه المنطقة . وبلغ عدد القصور ألف قصر عدا تضمها من حدائق .

وكانت منطقة القصور القديمة تعرف باسم رجستان (ريكستان) وفى أيام الأمير نصر بن أحمد السامانى أمر فبنيت له سراى فى الرجستان أنفق عليها أموالا طائلة حتى صارت غاية فى الجمال . وأمر فبنوا بالقرب من سرايه أخرى لدواوين عماله بحيث كان لكل عامل ديوان على حدة على باب سراى السلطان مثل ديوان الوزير ، وديوان المستوفى ، وديوان صاحب الشرط ، وديوان المحتسب . وديوان الأوقاف ، وديوان القضاء .. وعلى هذا الترتيب بنيت الدواوين (١) .

وبنى الأمير رشيد عبد الملك بن نوح ٣٤٣ – ٣٥٠ = ٩٥٤ – ٩٦١ م مدرسة ومسجداً بجوار قصره . ولما مات اندفع الغلمان فى الليل إلى السراى وأغاروا عليها وأشعلوا النار فيها حتى احترقت كلها . وحين ارتقى الأمير السديد منصور بن نوح ٣٥٠ – ٣٦٦ هـ = ٩٦١ – ٩٧٦ م . العرش أمر فجددوا عمارة تلك السراى مرة أخرى وجعلوها فى حال أحسن مما كانت عليه وأقام الأمير السديد فيها ولم يكد يمضى عام حتى احترقت مرة أخرى (٢) .

أبواب ودروب بخارى :

منها درب الميدان ويؤدى إلى طريق خراسان ، ودرب ابراهيم ، ودرب الريو ، المردقشة ، كلاباذ . وهذان الدربان الأخيران يؤديان إلى نسف وبلخ ودرب النوبهار ، وسمرقند الذى يفضى إلى طريق سمرقند، ودرب فغاسكون ، الراميثنية ، حد شرون وهو المؤدى إلى طريق خوارزم .

---

(١) تاريخ بخارا : ٣١

(٢) المصدر السابق .

ولها أبواب كثيرة مثل باب الحديد ، باب قنطرة حسان ، ثم بابان عند مسجد ماخ ،باب رخنه ، باب قنطرة السويقة ، باب فارجك . باب دروازجه ، باب سكة مغان (١) .

وعرف من شوارع بخارى وأحيائها : الشارع الجديد ، شارع الصفة ، (المواجه للخانكاه) وحي ريو ،وقصرفارزه قرب باب الميدان ،حي دروازجه ، شارع بكار . ومعظم هذه الشوارع كانت تحمل أسماء بوابات المدينة التي تنتهي اليها .

أسواق بخارى :

من أقدم أسواق بخارى السوق المعروفة باسم ماخ . وكانت هذه السوق تقام مرتين كل سنة . ولم تكن اقامتها تمتد أكثر من يوم واحد . وقد ظلت هذه السوق تقام حتى أيام النرشخي . وكان يباع فيها الأصنام وهي عادة قديمة منذ أن كان البخاريون من عبدة الأصنام . وكان الناس إذا ضاع صنمهم أو تكسر جاءوا يوم السوق فاشتروا آخر جديداً . ثم بني ماخ في هذه السوق بيتاً للنار فكانوا إذا قدموا السوق دخلوا المعبد للعبادة . وظل هذا المعبد قائماً حتى الاسلام . ولما قوي أمر الاسلام هدم ذلك المعبد ورفع في مكانه مسجد (٢) . وكان موضع هذه السوق في الحي الجنوبي الشرقي من المدينة . ولذا سمي المسجد باسم السوق أي مسجد ماخ . وكانت تجارة الأصنام في العهد الأولى تدر على أصحاب هذه التجارة دخلا كبيراً (٣) . أما في العهد الاسلامي فقد ظلت السوق بعد أن اختفت الأصنام منها وعرفت المنطقة بحي جامع ماخ .

---

(١) الأصطخري : ٢٩٣

(٢) تاريخ بخارا : ٢٥

(٣) تركستان بارتولد : ١٠٧

قرى بخارى :

يذكر النرشخي من قرى بخارى (١):

كرمينه : وكان بينها وبين بخارى أربعة عشر فرسخاً . وكان من بين أهلها كثير من الأدباء والشعراء .

نور : وهي قرية كبيرة بها مسجد جامع وكثير من الرباطات وهي في الشمال الشرقي من بخارى . وكان بها مقابر كثير من الصالحين . ولهذا كان يحج اليها كل سنة عدد كبير من أهل بخارى . وللقرية أهمية حربية لوقوعها على الحدود بين المنطقة المزروعة والقاحلة وكانت تستخدم حصناً في القتال ويسمون نور هذه في الولايات الأخرى نور بخارى .

طواويس : (يذكرها النرشخي طوايس) وكان أهلها من ذوى النعمة والثراء ، وكان كل واحد منهم يقتني في بيته طاووساً أو أكثر . ولم يكونوا قد رأوا طواويس بهذه الكثرة ولهذا سموا القرية ذات الطواويس، وضاع اسمها الأصلي — وكان أرقود ثم تخلصوا بعد ذلك من لفظة ذات وصار اسمها طواويس . وكان لهذه البلدة سوق عظيمة يؤمها كل سنة عشرة آلاف من التجار وأصحاب الأعمال من البلاد المجاورة .

اسكجكت : وكانت تشتهر بصناعة الأقمشة . ويقول السمعاني إنها قرية على أربعة فراسخ من بخارى على طريق سمرقند ويقال للمنسوب اليها سكجكثي . وكانت سوق هذه القرية تقام كل خميس .

زندنه : وهي ذات سوق كبيرة . ومسجد جامع . وقلعة كبيرة . وكل ما يصدر منها يقال له زندنيجي . وفيها تصنع أجود الأقمشة من القطن والكتان .

وردانة : قرية كبيرة أقدم من بخارى . وتقع حدودها عند التركستان .

---

(١) تاريخ بخارا : ١٢

أفشنة : وفيها بنى قتيبة مسجداً كما بنى فيها محمد بن واسع مسجداً آخر يهتم أهالى بخارى بزيارته والتبرك به . وضياع هذه القرية وقف على طلبة العلم . وتقع على بعد فرسخ من بخارى .

بركد : قرية قديمة كبيرة ولها قلعة عظيمة .

راميتن : وهي أقدم من بخارى ولها قلعة كبيرة . وتعتبر قرية حصينة وكانت قديماً مقراً للملوك ، وبعدها نشأت بخارى . وفي بعض الكتب يطلقون على تلك القرية بخارى . وهي أدفأ جواً في الشتاء من بخارى .

ورخشه : وهي الأخرى أقدم من بخارى . وكانت مقر الملوك ولها قلعة حصينة وكان لها ربض مثل ربض مدينة بخارى . ولهذه القرية اثنا عشر نهراً . وفيها قصر كان قد بناه خذار خدات . وفي الاسلام نقل الأمير السامانى أحمد بن نوح بن نصر السامانى أخشاب هذا القصر إلى مدينة واستعملها في عمارة القصر الذى كان له على باب قلعة بخارى . وكانت سوق هذه القرية تقام كل خمسة عشر يوماً . أما السوق الأخيرة في السنة فكانت تمتد عشرين يوماً . وفي اليوم الحادى والعشرين يقع النوروز فيحتفلون به هناك ويسمونه نوروز الفلاحين .

بيكند : ويبدو أنها كانت أكبر ضواحى بخارى شأناً حتى أن أهلها كانوا يأنفون أن تسمى مدينتهم قرية . ويذكر النرشخى أنه إذا ذهب أحد من أهلها إلى بغداد وسألوه من أين أنت لم يقل من بيكند وإنما يقول من بخارى . وبها مسجد جامع كبير ورباطات كثيرة ومبان ضخمة . وكان أهل بيكند تجاراً على درجة عظيمة من الثراء . وكانت بيكند على ربوة غير مرتفعة .

هذا وقد ذكر النرشخى مجموعة أخرى من القرى في مواضع متفرقة من كتابه أمثال نسوانه ، سكتين ، سمتين ، سمدون ، نرشخ .. الخ . ويضيف المقدسي عدداً آخر من هذه القرى مثل خجادى ، ممكان .. الخ (١)

---

(١) المقدسي : ٢٨٠

مصنوعات بخارى :

اشتهرت بخارى بصناعة السجاد والأقمشة القطنية والصوفية . وكان بها مصنع مشهور تعطل فيما بعد وتفرق عماله . وكان الأهالى والتجار يفدون من كل مكان إلى بخارى ليشتروا هذه المنسوجات . وقد راجت هذه الأقمشة رواجاً كبيراً بين الناس على اختلاف طبقاتهم . واشتهرت مدينة بخارى بكثرة تجارها حتى سميت مدينة التجار . ومن قرى بخارى زندنة التى مر ذكرها وتشتهر بصناعة أجود الأقمشة من التيل والكتان . ويقال لهذه الملابس زندنيجية ويصدر منها إلى جميع بلاد العالم الاسلامى . وعرف عن أهل بيكند وهى من ضواحى بخارى أنهم من التجار الأثرياء .

تخطيط بخارى :

كانت المدينة فى عهد السامانيين عاصمة الدولة . ومما كتبه الجغرافيون العرب يتضح أن المدينة كانت فى ذلك الوقت تنقسم أقساماً ثلاثة :

١ — القلعة (قهندر) .

٢ — المدينة (شهرستان) .

٣ — الربض .

أما القلعة فقد بنيت خارج المدينة وإن تكن مجاورة لها . واختير لها مرتفع من الأرض بحيث يصعب وصول المياه اليها . وللقلعة بابان أحدهما شرقى يواجه المسجد الجامع الذى بناه قتيبة بن مسلم سنة ٩٤ هـ = ٧١٢م ولهذا يسمى باب الجامع . والآخر غربى يقابل المدينة ويسمى باب الريجستان (بالحروف الفارسية) وهو المفضى إلى الأرض المنبسطة التى تقع فى مدخل المدينة . وكان بين هذين البابين الشرقى والغربى طريق يصل بينهما . وفى داخل القلعة أقيم القصر الذى كان يتخذه الحكام السامانيون مقراً لهم . ولعلهم أرادوا بهذا أن يكونوا فى منعة إذا أغير عليهم . وكانت هذه القلعة تجدد كلما تهدمت حتى قوضها

نهائياً جنكيز خان فى ٦١٧هـ = ١٢٢٠م . وفى هذه القلعة بنيت دواوين الحكومة ومساكن رجال الدولة والجيش لتكون أجهزة الدولة قريبة من الأمير .

أما المدينة نفسها فكان لها سبعة أبواب هى :

١ - بوابة السوق ويسميه الاصطخرى بوابة الحديد وقد سميت فيما بعد بوابة العطارين .

٢ - باب المدينة .

٣ - باب بنى سعد .

٤ - باب بنى أسد وكان يسمى فى العهد الإسلامى باب مهر .

٥ - باب القلعة .

٦ - باب طريق الحق .

٧ - الباب الحديد (١) .

وكان يحيط بالمدينة وضواحيها قرى . . . سور ضخم يسمى سور المدينة أو السور القديم وكان لهذا السور أحد عشر . . .

١ - باب الحديد .

٢ - باب جسر حسان .

٣ ، ٤ - بابا جامع ماخ [illegible] الجامع .

٥ - باب رخنة .

٦ - باب قصر أبى هشام .

٧ - باب جسر السويقة .

٨ - باب فرجك .

---

(١) بارتولد : ١٠٦

٩ — باب دروازجه .

١٠— باب طريق الجوس (سكه مغان) .

١١— باب سمرقند (١) .

وكان بناء هذا السور فى أيام والى خراسان أبى العباس الفضل بن سليمان الطوسى . وقد شكا له أهل بخارى مايعانونه من هجوم كفار الترك عليهم واغاراتهم المفاجئة على القرى وايذائهم المسلمين . فكلف أبو العباس الطوسى حاكم بخارى ببناء ذلك الحائط ليحمى المدينة وقراها . وجعلوا على السور فى كل نصف ميل برجاً حصيناً . وقد تم بناء هذا السور سنة ٢١٥ هـ=٨٣٠م وكان كل حاكم يزيد فى هذا السور . ويفرض على أهل بخارى كل سنة من الأموال ما يلزم للمحافظة على السور . وظل الأمر كذلك حتى جاء اسماعيل السامانى فأعفى الناس من دفع هذه الأموال وكف يده عن الانفاق على السور قائلا « طالما كنت حياً فأنا سور بخارى »(٢) . وكان الأمر فعلا على ماذكر ولم يقترب منها الأعداء .

وكانت المدينة تتألف فى أول أمرها من هذين القسمين [illegible] وصار لها ضاحية أو ربض خارج هذا السور . وبنوا لهذا الربض سوراً جديداً فى سنة ٢٣٥ هـ — ٨٤٩ م . وأقاموا فيه الأبراج وجعلوا له [illegible] . وكان لهذا السور الجديد أو سور الربض أحد عشر باباً أيضاً هى

١ — باب نوبهار .

٢ — باب كلاباذ .

٣ — باب المردقشة .

٤ — باب الريو .

(١) الأصطخرى : ٢٩٣

(٢) نرشخى : ٤٠

٥ – باب ابراهيم .

٦ – باب الميدان .

٧ – باب غشج .

٨ – باب حد شرون .

٩ – باب الراميثنية .

١٠ – باب فغاسكون .

١١ – باب سمرقند .

وبهذا صارت بخارى ، حتى عهد الدولة السامانية ، مكونة من عدد أجزاء ثلاثة : القلعة ، المدينة نفسها وهذا سور يحيط بها ، ثم الربض وما كان خلف سوره .

ويمكن أن نرتب كل باب من أبواب السور القديم (سور المدينة) بما يقابله من أبواب السور الجديد (سور الربض) على النحو الآتي :

أبواب سور المدينة	أبواب سور الربض	أسماؤها الحديثة
١ – باب الحديد	يقابل باب [illegible]	ويسمى الآن باب مزار
٢ – باب حصن حسان	يقابل باب كلاباذ	ويسمى الآن كوله (قرشي)
٣ – باب [illegible] جامع ملح	يقابل بابي فرغشه و[illegible]	ويسمى الآن سلاخانه (عركه)
٤ – باب [illegible]	يقابل باب ابراهيم	ويسمى الآن الشيخ جلال
٥ – باب [illegible] هشام	يقابل باب الميدان	ويسمى الآن قره كول
٦ – باب جسر سويقة	يقابل باب غشج	ويسمى الآن شير جيران
٧ – باب [illegible]	يقابل باب حد شرون	ويسمى الآن تلبج
٨ – باب [illegible]	يقابل باب راميثنة	ويسمى الآن أجلان
١٠ – باب طريق [illegible]	يقابل باب فغاسكون	ويسمى الآن الامام
١١ – باب سمرقند	يقابل باب سمرقند	ويسمى الآن سمرقند (١)

(١) بارتولد : ١٠٣

بلاط بخارى :

لم يكن أمراء السامانيين يسيرون وفق نظام محدد ثابت فى ولاية العرش فتارة يكون الابن خلف أبيه فى الحكم وتارة يخلف الأخ أخاه (١) وكان هذا يتيح لذوى الأغراض والمآرب الشخصية أن يتدخلوا فى الأمر . وكان لرجال البلاط وغلمان أثر كبير فى توجيه الأمور مما جعلها تبلغ حد الفوضى فى بعض الأحيان . وقد استطاع هؤلاء الغلمان أن يقتلوا أحمد بن اسماعيل السامانى أبا نصر – رغم ما عرف عنه من التقوى وحسن السيرة (٢) . [illegible] رجال الحرس تآمروا فيما بينهم أيام نصر وأرادوا أن يولوا رئيسهم لولا أن انكشف الأمر (٣) .

ولما توفى عبد الملك بن نوح انتهز [illegible] هذه الفرصة وطمع [illegible] البلعمى الوزير الذى كان [illegible] أن يرفع إلى العرش نصر بن عبد الملك . وفعلا ارتقى نصر العرش ولكن ملكه لم يدم سوى يوم واحد لأن أعضاء الأسرة السامانية ورؤساء الشرطة تدخلوا من جديد وصمموا على تولية أبى صالح منصور بن نوح .

وهكذا كان عدم التحديد فى نظام وراثة الحكم مشجعا للمناصب فى نفس [illegible] .

ولم يكن يفوتهم مع [illegible] أن يقوموا بأخذ البيعة للأمير الجديد . وكان ذلك عملا شكليا [illegible] ابن الأثير أن نصر بن أحمد حين قتل أبوه كان طفلا [illegible] أخذ البيعة من الناس أحمد بن محمد بن ليث الذى كان [illegible] (٤) يدل على شكلية هذا العمل [illegible] البيعة

---

(١) [illegible] وعبد الملك [illegible] نوح [illegible]
[illegible] منصور ، ومنصور [illegible]
[illegible] ومنصور بن نوح وعبد الملك [illegible]

(٢) [illegible] سنة ٣٠١ .

(٣) [illegible] ٩٠٠ [illegible] .

(٤) [illegible] .

لو كانت جدية يرجع فيها إلى رأي الجمهور مااختير نصر للامارة ، فقد استصغره الناس واستضعفوه .

وحين تولى نصر لقب بالسعيد . وكان من عادة ملوك السامانيين أن يتلقبوا بألقاب مختلفة كالشهيد ، والسعيد ، والحميد ، والسديد ... الخ . ونعت الأمراء بمثل هذه الصفات لم يكن معروفا على هذا النحو في الحياة الاسلامية قبل العهد العباسي ومن الجائز أن يكون أمراء السامانيين قد قلدوا العباسيين في هذا الأمر . ولكن المسألة بالنسبة إلى السامانيين والعباسيين معاً لها أصل أبعد . فقد كان الملوك في عهد الدولة الساسانية — قبل الاسلام — يلقبون ألقاباً مختلفة مثل عابد مزدك الإلهي ، ملك الملوك ، ملك ملوك إيران ، سليل الآلهة ، رفيق النجوم ، أخي الشمس والقمر (١)

ولقد كان الأمير نصر بن احمد الساماني هو عنوان مجد هذه الأسرة وسنتخذ من بلاطه واسمه موضوعاً للحديث ومثالا لما كان عليه بلاط بقية الأمراء .

شخصية الأمير

تولى نصر الامارة وهو طفل صغير فلا غرابة إذ رأينا في أول عهده تغلب عليه رغبات طفولته . وقد ذكروا أن خدمه حين حملوه وخرجوا به ليتلقى بيعة الناس بكى حتى ظن أنهم يريدون أن يقتلوه كما قتلوا أباه (٢) . وقد [illegible] تصرفاته حين ولي الامارة ما [illegible] من أنه فكر في الانتقام من معذبيه لأنه كان يضمر له كثيراً (٣) . ثم تقدمت به الأيام [illegible] في دور الشباب [illegible] تركز شخصيته [illegible] فيه من نفس قسوة شديدة . وكان إلى جانب [illegible] في كثير من الأمور رجع عن غضبه وندم على ما بدر منه . ويذكر البيهقي أن الأمير [illegible]

(١) Christensen , L'Empire des Sassanides p. 98

(٢) ابن الأثير : حوادث ٣٠١

(٣) جوامع الحكايات : الورقة ٢٢٣ وابن الأثير .

البلعمي – الذي كان وزيره – وعند ابن الطيب المصعبي – الذي كان صاحب ديوان رسائله – علاجاً لهذه الحالة فأشارا عليه أن يتخذ العلماء والعقلاء ، وأن يفسح لهم في صدره ، وأن يرفع منزلتهم حتى إذا بلغ الغضب بالأمير مبلغه وجدوا في أنفسهم من الشجاعة والجرأة ما يسمح لهم بالشفاعة لديه لتلطيف الأمر ، والتهوين من شأنه ، وتزيين الخير للأمير حتى يهدأ غضبه ويأمر بالعفو ، ويعدل عن فعل الشر إلى الخير ، وقد أعجب نصر بهذه الفكرة وقطع على نفسه عهداً ألا يوقع أمراً أمر به في ساعة الغضب قبل انقضاء ثلاثة أيام تكون ثورة غضبه فيها قد هدأت ويكون رجاله قد بذلوا لديه الشفاعة وأمر فجمعوا له خيرة من في الإمارة عقلاً وحكمة وقضوا في تعليمهم واختبارهم عاماً حتى انتهى عددهم إلى ثلاثة قدموهم إلى نصر . ولم تنقض سنة بعد ذلك حتى كان نصر أحنف زمانه يضرب به المثل في الحلم .(١) وقد رأينا أثر هذا الخير الذي اكتسبه الأمير بالتدريب والتهذيب حين ذكرنا قصة أبي الطيب المصعبي وأبي الفضل البلعمي معه (٢) . وابن الأثير يضرب له مثلاً آخر من دماثة خلقه وطيبة نفسه .

وفي عهد نصر انتشرت دعوة القرامطة حتى استطاعت أن تتسلل إلى بلاط الأمير نفسه وإلى عدد كبير من رجال الحاشية فيه . وقد استطاع هؤلاء أن يؤثروا في نصر الاهتمام بهذا المذهب ونجحوا في تهيئة المقابلة بين الأمير وبين محمد النخشبي الذي كان يقوم بالدعوة . وهذا الموقف من المواقف التي تحمد لنصر فقد كان يستطيع أن يقضي على النخشبي ، أو أن يطرده من حضرته ، أو ينفيه من البلاد . ولكنه أخذ يناقشه ويجادله في أمر الدعوة شأن كل واسع الأفق ساع وراء الحقيقة بعيد عن التعصب لرأي أو مذهب خاص وقد انتهى الأمر باقتناع الأمير واعتناقه هذا المذهب . وحين بلغ النخشبي هذا المبلغ من النجاح لم ير داعياً لكتمانها وأعلن الدعوة . ولكن الأتراك

---

(١) تاريخ بخارى : نصر غنى وفياض ص ١٠٦ وجوامع الحكايات ولوامع الروايات ورقة ١٢٨

(٢) راجع ص ٨٠ من هذا البحث .

ولكن الأتراك الذين يكونون عنصراً مهماً فى بلاط نصر لم ترقهم استجابة نصر لهذه الدعوة ورأوا أنه قد وقع فى ضلال مبين ، وأخذوا يدبرون الأمر فيما بينهم ليحدثوا انقلاباً يبايعون بعده كبير قوادهم . ومن حسن الحظ أن وقف نوح بن نصر على ما يدبره هؤلاء الأتراك للدولة فأسرع إلى أبيه وشرح له حقيقة الخبر . وقد تمكن نصر من الاحتيال على المتآمرين إذ استقدم إليه زعيمهم قائد الجيش فقتله ، ووضع رأسه فى كيس ، ثم ذهب مع ابنه نوح إلى مكان المتآمرين الذين بهتوا لدخوله عليهم فجأة ، وأعلن نصر أنه وقف على ما يدبرون وأنه لا يمكن أن ينسى لهم هذه الفعلة طالما كان أميراً للدولة . ولهذا رأى إرضاءً لهم وحرصاً على سلامتهم من أذاه أن يتنحى عن الإمارة لابنه نوح ، فعرض عليهم أن يخلفه نوح فلم يبدوا على ذلك أى اعتراض . وعند ذلك أخرج رأس زعيمهم من الكيس وألقاه أمامهم فارتبكوا ولم يجدوا ما يعتذرون به سوى إلصاق التهمة بقائد الجيش الذى نال جزاءه .

وكان تخلى نصر عن الحكم عملا فى غاية الحكمة ، وهذا التصرف منه إذا أضيف إلى حبه للدين والعدل يدل على أنه كان رجلا يخضع لحكم العقل فى كل تصرفاته . فهو لم يستمر فى الحكم لأن رجال الجيش بعد أن عرفت نواياهم ضده . ولكنه خشى أن يسىء معاملتهم أو قد يخرجهم عن طاعته أو يضعف ولاءهم له ، لأن معنى خروجهم لابد أن يثير حفيظته . وعلى العموم كان لابد أن تقع جفوة بينهم مما لا يستقيم معه أمر الدولة . ولهذا كان تخليه عن الحكم عملا حكيماً .

وكان أن تولى نوح وأمر بالقضاء على محمد النخشبي وأتباع مذهبه الذين كانوا السبب فيما حدث (١) .

---

(١) سياست نامه ، ١٨٩ .

واعتزل نصر بعد ذلك وقضى بقية حياته فى العبادة حتى أنهكه مرض السل فقضى فى رجب سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م .

جد البلاط :

يمكن أن نميز فى البلاط حياتين بارزتين : الحياة الأولى حياة الجد ، والثانية حياة اللهو .

أما حياة الجد فكانت تتمثل فى ناحيتين :

١ — الناحية الحربية .

٢ — الناحية الديوانية التى تتولى الاشراف على شئون الدولة فى زمن السلم .

ففيما يتعلق بالناحية الحربية لا نريد فى هذا البحث الموجز أن نطيل فى أمر حروب نصر . فهذا موضوعه بحث تاريخى خاص أو مجال آخر يتسع القول فيه للتفصيل . ولكن المهم أن هذه الحروب تطلبت عدداً من الوظائف والموظفين للاشراف عليها وتوجيهها . وكان فى البلاط عدد من هؤلاء الموظفين تتصل أعمالهم اتصالا وثيقاً بشئون الحرب منهم :

حاجب الحجاب : وهذه الوظيفة أكبر وظائف البلاط ولا يصل الموظف اليها الا بعد أن يمر فى مراحل طويلة حتى يصبح جديراً بهذا المنصب الضخم . وتسمى هذه الوظيفة بالفارسية «حاجب بزرك» .

ووظيفة الحاجب عرفها البلاط الساسانى من قبل . وكان يقوم فى ذلك العهد بتدبير شئون الحرب كما كان يشترك فيها اشتراكاً فعلياً ، ولا شك فى أن السامانيين كانوا يحاولون تقليد الساسانيين فى كثير من شئون الادارة والدولة .

وهناك وظيفة قائد الجيش «سپهسالار» وكان قائد الجيش يختار من بين الأشراف وأبناء الأسر العريقة .

وهناك منصب رئيس الحرس . وكان للأمير حرس يتكون من العبيد الذين يشترون لهذا الغرض وخاصة من الأتراك . وكان رئيس الحرس يشترك أيضاً في الأعمال الحربية كما أنه كان مسئولا أمام الأمير عن تنفيذ الأحكام التي يصدرها من قتل أو ضرب أو سجن . ويذكر نظام الملك أن الحرس الذي يعمل تحت إشراف الرئيس كان يتكون من لا أقل من خمسين رجلا (١) . والمفهوم أن الوظيفة الأساسية لهذا الحرس هي حماية الأمير والسهر على سلامته . وقد صار هذا الحرس نفسه مصدر خطر على الأمير كما مر ذكره وقد عرف الفرس قديماً هذا النظام .

ووظيفة العارض من الوظائف المتصلة بشئون الحرب . ويذكر السمعاني في هذا الاسم أنه يعرف العسكر ويحفظ أرزاقه ويوصلها إليهم ويعرض العسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك (٢) . وكانت هذه الوظيفة ذات شقين : إداري يتمثل في معرفة العسكر وحفظ أرزاقهم وأدائها إليهم ، وحربي يتمثل في تنظيم العرض العسكري أمام الملك . ولم تكن هذه الوظيفة مستحدثة في هذا العصر ولكنها كانت قديمة في عهد كسرى أنوشروان الذي كان قد عين لها رجلا معروفاً بالخبرة والكفاية يقال له بابك بن بهروان .

وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء رئيس الشرطة . ولم يكن عمله متصلا بشئون الحرب الخارجية فيما يبدو لأن مهمته الأساسية كانت تنحصر في الإشراف على المدينة العاصمة من الناحية العسكرية وحفظ الأمن فيها .

• • •

أما الحياة المدنية فيحكمها شئون الدولة أيام السلم . وأول الوظائف في هذا المجال وظيفة الوزير . ويطلق عليه أحياناً السيد الكبير الخواجه بزرك وكان شعاره المحبرة (٣) .

---

(١) سياست نامه : ١٢٢

(٢) الأنساب : ٣٧٨ ط مارجليوث ١٩١٢

(٣) بارتولد : ٢٢٨

وفي عهد السامانيين تولى الوزارة عدد من الوزراء الذين كانوا أبناء أسرة واحدة كأسرة البلعمي . ويستحسن نظام الملك نظام توارث الوزارة فيذكر أنه من الأفضل وأن يكون الوزير ابن وزير (١) .

ومن الوزراء الذين اشتهروا في عهد نصر :

أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وينتسب إلى بلدة جيهان على شاطىء جيحون (٢) . ومن حسن حظ الأمير الطفل نصر أن تولى له الوزارة مثل هذا الوزير في جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م . وبفضله استقامت الأمور .

ويستفاد من المصادر التي ترجمت له أنه كان رجلا واسع العلم ، فاضلا بصيراً بالأمور ، مؤلفاً في كثير من العلوم والفنون . وأحد كتبه التي ألفها يسمى مسالك والممالك (٣) . وذكر ابن النديم عدداً من مؤلفات الجيهاني (٤) والجرديزي (بالحروف الفارسية) يذكر أسماء كتب ابن خرداذبة والجيهاني في قائمة المصادر الرئيسية التي استخدمها في تاريخه لفصول الخاصة بالأتراك . وكان الجيهاني يرعى العلم وأهله . ولم يسلم الجيهاني من هجاء بعض الشعراء الذين حرموا من وصوله وتقربه منه فهجوه . وكان أبو الطيب الطاهري من أشهر هجاته . وسنشير إلى ذلك فيما بعد عند الكلام على الشعر العربي في بخارى . وينبغي أن ننظر إلى هجاء الطاهري للجيهاني على أنه كلام شاعر لا يؤثر بحال من الأحوال في قيمة الرجل . فقد أجمع الكتاب والمؤرخون على أن الرجل كان فاضلا عالماً سديد الرأي والتدبير . ورأي أبي الطيب الطاهري فيه لا يعد شيئاً إذا قيس إلى هذا الإجماع . ولا يفوتنا أن أبا الطيب كان ذا طبيعة هجاءة ولم ينج من لسانه أحد وقد تطاول على مقام الأمير

---

(١) سياست نامه : ١٥١

(٢) معجم البلدان :

(٣) المقدسي : ٣

(٤) الفهرست : ١٣٨ ط ليبزج

نصر نفسه ، وعلى أبيه من قبل ، وعلى دولتهم كلها رغم ما كان من إحسانهم اليه وعفوهم عن اساءاته (١) .

وقد عمر الجيهانى لأنه تولى الوزارة لنصر بن أحمد حين بويع أميراً سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م ثم إننا نجد ذكره فى حوادث سنة ٣٦٧ = ٩٧٧ إذ أنه بعد وفاة منصور بن نوح تولى نوح بن منصور سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م وكان الجيهانى على رأس وزارته فصرفه عنها سنة ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م أى بعد عام من ولايته وأحل محله أبا الحسين عبد الله بن أحمد العتبى (٢) .

والوزير الثانى الذى اشتهر أيام نصر بن أحمد هو البلعمى أبو الفضل محمد بن عبد الله . وهو عربى الأصل إذ ينتهى نسبه كما أورده السمعانى إلى تميم (٣) . وسمى البلعمى بهذا الاسم نسبه إلى بلعم من ديار الروم التى فتحها المسلمون تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك . وقد اشترك مؤسس الأسرة فى هذه الغزوة فنسب إلى المدينة . واشتهر أولاده أيضاً بهذه النسبة وقد ذكر ذكر السمعانى أن أبا الفضل البلعمى وزر لاسماعيل بن أحمد أمير خراسان . وقد سايره القزوينى فى حواشيه على چهار مقاله فى هذا الزعم (٤) . وممن سلم بهذا أيضاً خوندمير فى دستور الوزراء (٥) . وهذا خطأ . ويظهر أن النص الذى أورده ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦١ هـ كان هو السبب الذى ضللهم وأوقعهم فى هذا الخطأ (٦) . فقد جاء فى ابن الأثير «حكى أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمى قال سمعت الأمير أبا ابراهيم اسماعيل ابن أحمد يقول... ولعل اقتران ذكر أبى الفضل البلعمى مع اسمعيل بن أحمد

---

(١) يتيمة الدهر : ٦٦ — ٤ ط الصاوى
(٢) معجم الأدباء : ١٩٢ — ٤ ط رفاعى
(٣) السمعانى : مادة بلعم
(٤) چهار مقاله : حواشى القزوينى ص ١٠٠ المضافة الى الترجمة العربية لعزام والخشاب ط لجنة التأليف والترجمة
(٥) دستور الوزراء : ١٠٨ ط. طهران ١٣١٧
(٦) ابن الأثير : ١٠٠ — ٧ ط. مصر حوادث ٢٦١

أوهمهم أنه كان وزيراً له والواقع أن هذا النص الذى تسمع فيه لأول مرة فى تاريخ السامانيين عن البلعمى ليس فيه ما يؤيد أنه كان وزيراً لاسماعيل وإن أفاد أنه كان معاصراً له . ثم إن أغلب المصادر تجمع فى صراحة على أن البلعمى كان وزيراً فى عصر نصر بن أحمد (٣٠١ — ٣٣١) . ولم نعرف على وجه التحديد متى تولى البلعمى منصب الوزارة لنصر وان كنا نعرف أنه ترك هذا المنصب فى عام ٣٢٦هـ = ٩٣٨م وتوفى فى صفر ٣٢٩ = ٩٤٠م.

وللبلعمى الكبير هذا ابن هو محمد بن محمد الملقب بأبى على . ويطلق عليه المقدسى «أميرك بلعمى» (١) أى البلعمى الصغير — وقد تولى أبو على البلعمى هذا الوزارة فى أواخر عهد عبد الملك بن نوح (٣٤٣ — ٣٥٠ هـ) واستمر قائماً بها فى عهد خلفه أيضاً منصور بن نوح (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ولم يكن البلعمى الابن ذا شخصية قوية كما كان البلعمى الأب .

وقد كانت أسرة البلعمى فى القرن الرابع واحدة من أشهر الأسر التى تميزت بالعلم والأدب فى خراسان .

وهناك ، غير الوزير : صاحب البريد . وكانت مهمة صاحب البريد أن يرفع إلى الأمير الأخبار المهمة التى تأتيه من الأقاليم عن سير الحوادث فيها وعن الحكام المحليين . كما كان يتولى نقل الأوامر من العاصمة إلى الأقاليم وكان هذا النظام معروفاً لدى الساسانيين . ويذكر ابن بلخى عن كسرى أنو شروان أنه كان يولى هذه الوظيفة من كان أميناً فاضلا عالماً (٢) .

وهناك المشرف ووظيفته أن يرفع التقارير عما يجرى داخل البلاط إذا كان فى الأمر ما يدعو لذلك (٣) .

---

(١) المقدسى : ٣٣٨

(٢) فارس نامه : ٩٣ ط ليدن وليكلسون ١٩٢١

(٣) بارتولد : ٢٣٠

وكان هناك الوكيل الذى يتولى الاشراف على ديوان الممتلكات الخاصة بالملك ، كما كان يتولى أيضاً الاشراف على نظام الخدمة بالبلاط .

وهناك كاتب السر وهو الكاتب الخاص بالأمير ويسمونه دبير خاص وكانت هذه الوظيفة موجودة عند الساسانيين . ومما كان يروى عن كسرى أنو شروان أنه كان يقول «الكاتب لسان الملك» (١) .

أما المستوفى فهو المسئول عن شئون المال «خزينه دار» . وكان يحاسب من مرؤسيه . أما ديوان عميد الملك فيشبه ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء . ورئيس هذا الديوان يلقب بخواجه عميد .

وكان على المحتسب صيانة النظام فى الشوارع والأسواق ومراقبة حركة البيع والشراء ومراقبة الذين يتهربون من دفع الضرائب .

وكان على رأس نظام القضاء قاضى القضاة وهذه الوظيفة تشبه وظيفة كبير رجال الدين فى العهد الساسانى موبدموبدان .

وفى الأقاليم حسب نفس المصالح والادارات كما هى فى العاصمة . وكان الحكام الاقليميون يسمون حكاماً أو كتخدا .

وكان هناك أيضاً نظام للجمارك . وكانت جمارك تحصل عند عبور نهر جيحون وكانت تحصل على الأشخاص والأمتعة . وكانت الفضة التى تدخل خوارزم تحصل عليها ضرائب جمركية . وكذلك كانت تؤخذ بالنسبة للرقيق والأتراك الذين كانوا يجلبون من أراضى الترك الشرقية .

وكانت الحكومة إذا نزلت بها ضائقة مالية رفعت الضرائب أو فرضت ضرائب جديدة أو أخرت دفع أجور الموظفين . وكان اتخاذ مثل هذه الاجراءات يثير تذمر الناس .

---

(١) بارتولد : ٢٣٠

وكان لكل مدينة رئيس . ولم تكن وظيفة رئيس المدينة وظيفة وراثية تنتقل من الأب إلى الابن . وكان رئيس المدينة الشخصية الادارية الرئيسية فيها وبواسطته كان الأهالي يعلمون أوامر الملك ورغباته . وكان صاحب هذه الوظيفة يعين في أول الأمر من بين أفراد الأسر المحلية الكبيرة .

ومن الدواوين التي عرفت في عهد نصر : ديوان الوزير ، ديوان المستوفى ، ديوان عميد الملك ، وديوان صاحب الشرطه . ديوان صاحب البريد ، ديوان المشرف ، ديوان الأملاك الخاصة ، ديوان المحتسب ، ديوان الأوقاف ، ديوان القاضي .

العلماء في البلاط :

اشتهر أمراء الدولة السامانية بتشجيع العلم وحب أهله ، حتى ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٦١ أن اسماعيل «كان خيراً يحب أهل العلم والدين ويكرمهم ويبركتهم دام ملكه ومملك أولاده وطالت أيامهم » .

وكان من علامات التكريم لمن نال القبول والرضا من أهل العلم أن يدعى إلى مائدة الأمير الخاصة التي تقام له في دار الحريم .

وينبغي أن نذكر للدلالة على مدى التكريم هنا أنه لم يكن يسمح لأحد من الرجال بالدخول اليها حتى أن الخدمة فيها كانت مقصورة على الجواري .

وكان المؤلفون يدخلون على الأمير ومعهم مؤلفاتهم ليجيزهم . وكان الشعراء يفدون على الأمير في الأعياد فينشدونه أشعارهم . وكان أمراء السامانيين يعفون رجال العلم من تقبيل الأرض بين أيديهم اجلالا لهم وتعظيما . ويدل هذا على شيوع عادة تقبيل الأرض بين يدى الأمير في البلاط الساماني . وهذه عادة ساسانية قديمة .

لهو البلاط :

كان للهو الأمير ورجال البلاط مظاهر مختلفة منها الضرب بالصوالجة (بزى چوكان) . وكان اللاعب يركب فرساً ومعه عصا طويلة معوجه من أحد طرفيها لضرب الكرة . وهى أشبه بلعبة البولو فى الوقت الحاضر . وقد عرف عن الأمير نصر ميله إلى هذه اللعبة . وكثيراً ما كان يصحب معه الشعراء عند خروجه لممارستها ولم تكن هذه اللعبة جديدة فى البلاط السامانى إذ عرفها الساسانيون من قبل وكانت شائعة عندهم (١) .

والصيد أيضاً رياضة ملكية محببة . وقد أولع به ملوك الفرس من أقدم العصور وكان يعد أكثر أنواع اللهو لياقة بالملوك . وكانوا يهتمون بصيد الحمر التى كانت تدرب فى بعض الأحيان وتستخدم فى بعض الشئون . من ذلك أن أحمد بن اسماعيل السامانى أبا نصر كان إذا خرج للصيد ربط على باب خيمته أثناء الليل أسداً للحراسة فلا يقدر أحد أن يقترب من المكان(٢)

أما الغناء فقد كان أبرز أنواع اللهو فى البلاط . وكان على رأس المغنين فى البلاط السامانى أبو عبد الله جعفر بن محمد الشاعر الرودكى . وكان الأمير شديد التأثر بما يسمعه من مغنيه وشاعره الرودكى . وقد عرف رجال حاشيته فيه هذا واستغلوه لمصلحتهم حين أرادوا العودة من هراة إلى بخارى . وكان الأمير قد أعجبته هراة حتى قضى فيها أربع سنوات فدب الملل فى نفوس جنود واتباع وهيج فى قلوبهم شوق وحنين إلى أهليهم فى بخارى . ولم يجدوا وسيلة يثيرون بها شوق الأمير إلى بخارى ويغرونه بالعودة اليها خيراً من شعر الرودكى وألحانه . فعرضوا أن يدفعوا للرودكى خمسة آلاف دينار إذا هو غنى لحناً يثير الأمير ويغريه بالعودة . وقبل الرودكى ما عرضوه وألف قصيدة هذه المناسبة ولحنها . فلما كان وقت الصبوح دخل على الأمير وأنشده القصيدة .

---

(١) سايكس : تاريخ ايران ٦٤٤ – ١ الترجمة الفارسية ط. طهران .

(٢) ابن الأثير : ٢٧ – ٨ حوادث سنة ٣٠١

فتأثر الأمير بمعانيها أشد التأثر واضطرمت فى نفسه نيران الشوق إلى بخارى فنزل من فوره عن عرشه وركب فرسه وأسرع عائداً إلى بخارى . ويذكر نظامى العروضى أن الأمير أعجله الشوق إلى بخارى حتى نسى أن يلبس حذاءه فحمل اليه بعد فرسخين (١) . وهذه القصة ملخصة عن الأصل الذى ورد فى جهار مقالة . ومن النص الأصلى نلاحظ أن نصراً كانت تعقد له مجالس الغناء فى الصباح كما كانت تعقد فى الليل ، وأن مجلس الغناء لم يكن يقتصر على مغن واحد يستمع اليه الأمير بل كان فيه مغنون كثيرون يغنى كل منهم فى دوره ، وأن المغنين كان لهم نظام خاص فى الجلوس وترتيب معين .

وكان العود آلة الموسيقى الرئيسية فى مجالس الغناء . ويحدثنا الرودكى فى بعض أشعاره عن العود أو البربط فيذكر أن صوته أحسن من التكبير (٢) .

وهو يذكر عن العود أنه ينفذ السهام فى القلوب بحسن ايقاعه وعذب نغماته (٣) . وكان فى كل وقت لهم مجالس غناء . لم يكن الغناء أو الشراب ينقطع ليلا أو نهاراً (٤) . وقد تبلغ روعة الأنغام التى تصدر عن العود غاية بعيدة فترد بحلاوتها وشدة تأثيرها المجنون إلى العقل كما قد تخرج العاقل عن عقله (٥) .

أما مجلس الشراب فنرى صورة له فى بعض خمريات الرودكى . كان المجلس يزين بالورود والرياحين ، وكانوا يلبسون له الملابس الجديدة ، والألوان الزاهية ويصفون فيه الأرائك صفاً . كما كانوا يدخلون على المجلس عناصر أخرى للطرب والتسلية ، فكانوا يعزفون الموسيقى ، ويغنون ، وينشدون الشعر . وكان الأمير يتصدر المجلس ، ويصطف الغلمان الأتراك حوله كالأقمار فى حالم وقد توجوا رءوسهم بتيجان الآس . وأشرقت وجوههم

---

(١) جهار مقالة ، ٢٩ ط . طهران

(٢) دوستا آن خروش بربط تو خوشتر آيد بكوشم از تكبير

(٣) تن أو تير نه زمان بزمان بدل اندر همى كزارد تير

(٤) كاه كريان وكه بنالد زار بامدادان وروز تا شبكير

(٥) كاه ديوانه راكند هشيار كه بهشيار بر نهد زنجير

وانتشرت فى الجو الروائح الذكية التى تعطروا بها . وكان يدير الأقداح عليهم فى هذا المجلس فتى جميل من غلمان الأتراك ، ملائكى الوجه ، أسود العينين ، ممشوق القامة كالسرو ، مثنى خصلات الشعر كعصا صولجان .

ويؤدى بنا الحديث عن الغناء والشراب إلى ذكر النديم . وكما كان النديم سميرا للأمير فى مجالس لهوه وطربه كان كذلك مشيراً له وناصحاً فى المهم من الأمور بحكم قربه منه وصلته الوثيقة به . ويبين نظام الملك مهمة النديم فيذكر أنه كان أنيساً للأمير ، رفيقاً له بالليل والنهار ، مفدياً له بروحه إن تعرض الأمير للخطر متحدثاً اليه فى شتى الموضوعات التى تتصل بالعمال ، ناصحاً للأمير مبيناً له مواطن الخير والشر (١) . وكان يشترط فى النديم أن يكون من أهل الفضل والسمعة الحسنة والوجه المشرق ، حافظاً للسر ، مسامراً ، قاصاً فى ألوان الجد والهزل . ملماً بكثير من أسباب التسلية والترفيه كالنرد والشطرنج والعزف على آلات الموسيقى . ومما كان يشترط فيه أيضاً ألا يقف من الأمير موقف الواعظ المعلم يعنى بالأوامر والنواهى لأنه إن فعل ذلك خرج عن كونه نديماً وأصبح ثقيلا مكروهاً . ومما يتصل بمهمة النديم أن يدير مجلس الشراب واللهو . ويشهد مجالس الأنس ، ويعد رحلات الصيد (٢) وكلما زاد علم النديم فى شتى الشئون النظرية والنواحى العملية والمهارات المختلفة زادت قيمته وسمت منزلته . ومن الملوك من كان يتخذ من الأطباء والمنجمين ندماءه . ومما يفضل فى النديم أن يكون له خبرة سابقة فى خدمة الكبراء والعظماء حتى يكون عارفاً بالأصول ملتزماً للحدود ، متوخياً دواعى سرور الأمير (٣) . ومن نص أورده نظام الملك يتضح لنا أن الندماء فى البلاط السامانى كان لهم ترتيب ونظام معروف ولكل منهم منزلته ومرتبته . وقد انتقل هذا النظام بعد السامانيين إلى الغزنويين (٤) .

---

(١) سياست نامه : ٨٢
(٢) سياست نامه : ٨٣
(٣) نفس المصدر والصفحة
(٤) المصدر السابق : ٨٤

وكما كان النديم الساسانى تشترط فيه هذه الشروط فكذلك كانت الحال بالنسبة للنديم الساسانى من قبل . ويذكر المسعودى أنه لم يكن بين ندماء أردشير بن بابك من كان وضيع القدر أو خسيس الأصل (١) . ويذكر ابن البلخى فى حديثه عن اردشير بن بابك أن ندماءه كانوا من الحكماء والفضلاء(٢) وفى موضع آخر عند الكلام على شابور ذى الأكتاف يذكر أن مشيريه وندماءه وسماره كانوا من أهل العقل والفضل والذكاء والعلم بالألسنة متحلين بأدب النفس (٣) .

الشعر العربى فى بخارى (٤) :

نهض الشعر الفارسى نهضة واسعة فى عصر الدولة السامانية ، وكذلك راج الشعر العربى فى بخارى رواجاً كبيراً . ولهذه النهضة الأدبية أسباب كثيرة : فالدولة السامانية مع كونها فارسية الا أنها لم تحرم الأدب العربى من العطف والرعاية وقد نالت العربية فى عهد أحمد بن اسماعيل شيئاً من مكانتها القديمة حتى صارت لغة الوثائق الرسمية . وأظهر الأمير أحمد العطف والرعاية لهؤلاء الذين يجيدون العربية . وفى ظل الدولة السامانية ظهر كثير من أدباء العربية وعلمائها ذوى الأصل الفارسى . ويكفى أن نذكر هنا محمد بن جرير الطبرى وهو من أهالى طبرستان وكتابه فى التاريخ وتفسيره معروفان . وكان معاصراً لنصر بن أحمد السامانى وتوفى سنه ٣١٠ هـ ومنهم أبو بكر محمد بن زكريا الرازى وأصله من الرى وقد ألف فى الطب كتابه الطب المنصورى وقدمه إلى منصور بن أسحق حاكم الرى . وكان هو الآخر من معاصرى نصر بن أحمد أيضاً وتوفى سنة ٣٢٠ هـ . ومنهم السلامى ، وأبو القاسم البلخى الكعبى ، وأبو زيد بن سهل البلخى وكثير غيرهم ممن ألفوا فى التاريخ والجغرافية وغيرها .

---

(١) مروج الذهب : ١٥١ ــ ١ ط البهية ١٣٤٦

(٢) فارس نامه : ٦١

(٣) نفس المصدر : ٧٢

(٤) أما الشعر الفارسى فهو موضوع آخر له بحث منفرد مطول

ومن أسباب نهضة الأدب عامة فارسيه وعربيه وجود عدد من وزراء الدولة العلماء والأدباء أمثال الجيهانى ، وقد أشرنا اليه فيا سبق . وسيرد ذكره مرة أخرى فيا بعد . أمثال البلعمى الكبير الذى وزر لنصر بن أحمد ، وابنه أبى على البلعمى الذى كان وزيراً للأمير منصور بن نوح واشتهر بترجمته الفارسية لتاريخ الطبرى .

وكان الأمراء السامانيون يعقدون المجالس الليلية للعلماء وخاصة فى شهر رمضان . ويفتتح الأمير المناقشة التى يشترك فيها من حضر من أهل العلم . كما كانوا يعقدون مجالس الأدب ويدعون اليها .

وكذلك كانت حرية القول والرأى مكفولة للجميع . ولم تكن الدولة تضيق بمهاجمة مهاجمين لها . وقد بلغ أمراء الدولة السامانية مبلغاً عجيبا فى ذلك الزمان فى التسامح وسعة الصدر مما شجع بعض الشعراء المجانين على هجاء الأمراء والوزراء والدولة كلها .

وكان لهذه النهضة مظاهر كثيرة فقد كثر عدد الشعراء ، ووفد على بخارى أهل العلم والأدب من كل مكان . وانتشرت المكتبات وأخصها بالذكر مكتبة بخارى التى تحدث عنها ابن خلكان فى ترجمة ابن سينا وذكر أنها كانت منقطعة النظير . وذكر ان ابن سينا قد استفاد منها فوائد عظيمة حتى أنها عندما احترقت بعد ذلك كان ابن سينا قد تفرد بما حصل من علومها (١)

وكانت بخارى مجمع أهل العلم والفضل يسعون اليها من أنحاء العالم الاسلامى وبها يلتقون . وكان هؤلاء الفضلاء إذا ضاقت عليهم بلادهم اتجهوا إلى بخارى فلقوا بها من الإكرام وسعة ما يحبب اليهم الاقامة بها . ويذكر الثعالبى فى ترجمة المأمونى أنه لما فارق وطنه بغداد اتجه فى أول الأمر إلى بلاط الصاحب بن عباد حيث أقام هناك فترة يمدح الصاحب وينعم

---

(١) ابن خلكان : ١٦١ - ١ ط مصر

بإكرامه . ولكن الحظ لم تدم كما أراد الشاعر إذ سعى للوقيعة بينه وبين الصاحب بعض السعاة وأفسدوا عليه قلب الصاحب ووقعت الجفوة بينهما فاضطر المأمونى إلى الرحيل عنها إلى نيسابور ثم تركها بعد ذلك مفضلا عليها بخارى . وهناك لقى الحظوة والاكرام من كبار رجال الدولة الذين كان غمضهم عدائه فازداد على الأيام ماله ، وصلحت حاله (١) . ويذكر الثعالبى فى ترجمة الشجرى (٢) أنه ممن أدركتهم حرفة الأدب فرحل عن وطنه واتجه إلى بخارى وظل يقيم بها حتى انقضى عهد الدولة السامانية وبدأت الأحوال تتغير ، ولم تعد بخارى كما كانت فاضطر إلى أن يعود إلى وطنه . وفى ترجمة أبى اسحق ابراهيم بن على الفارسى من علماء اللغة والنحو يقول إنه «ورد بخارى فأجل ونبل» (٣) . ويقول فى ترجمة الواثقى (٤) إنه لما سمع ما ناله أقرانه من أولاد خلفاء وأمثاله من التكريم والرعاية ببخارى اتجه بأهله اليها راجياً أن ينال بها ما ناله سابقوه . وكان يطمع فى أن ينال منصباً يصلح به حاله . ولكنه بعد طول اقامته ببخارى وكثرة خدمته لكبار رجالها لم ينل ما أمل فغاظه ذلك وأغضبه ودفعه إلى مغادرتها متجهاً إلى بلاد الترك .. الخ . وفى ترجمة أبى نصر الأبيوردى (٥) يبين لنا كيف كانت العلاقة بين الشعراء وكبار رجال الدولة فإن الوزير البلعمى كان يكرم الشاعر وينادمه لما يوجهه اليه من المدائح . واقترح الوزير على الشاعر يوماً أن ينظم قصيدة يحاكى بها قصائد المتقدمين فى الفحولة والجزالة ، فجاءه فى اليوم الثانى وقد أعد قصيدة فى مدحه تضارع قصائد الجاهليين فى فحولتها وجزالتها وكانت مكافأة الشاعر على هذا العمل ولاية البريد فى بلدته أبيورد .

ويقدم لنا الثعالبى صورة أخرى عن مجلس من مجالس الأدب عقده ببخارى الأمير السعيد ودعا اليه أفاضل الغرباء الذين وفدوا اليها من أمثال

---

(١) يتيمة الدهر : ٤ — ١٦٤ ط محيى الدين

(٢) نفسه : ١٥٥

(٣) نفسه : ١٥٠

(٤) نفسه : ١٩٢

(٥) نفسه : ١٣٤

اللحام ، ابن مطران ، ابن أبي الثياب ، وغيرهم . ويذكر الثعالبي أنه كان مجلساً مشهوداً قلما يرى مثله (١) .

شعراء بخارى :

هناك مجموعة كبيرة من شعراء العربية ببخارى ترجم لهم الثعالبي في الجزء الرابع من اليتيمة . ونكتفي في هذا الموجز بالحديث عن بعض هؤلاء الشعراء ونبدأ باللحام .

كان اللحام من شعراء بخارى المعروفين . ويبدو من تاريخه وأشعاره أنه اتصل برجال الأمير ومدحهم ، ولكنه لم يتصل بالأمير نفسه ، وليس فيما ذكره عنه صاحب اليتيمة مايؤيد اتصاله به . عاصر الشاعر أربعة من أمراء السامانيين هم نصر بن أحمد ، نوح بن نصر ، عبد الملك الأول بن نوح ثم منصور الأول بن نوح . ويؤيد هذا هجاؤه لأبي جعفر العتبي ومحمد بن عزير اللذين وزرا لعبد الملك بن نوح ، ولأبي علي البلعمي الذي وزر لعبد الملك والمنصور من بعده . وتبلغ المدة التي عاصر فيها الشاعر أمراء السامانيين هؤلاء قرابة خمسين سنة .

وقد تقلد الشاعر بعض الأعمال العامة مثل بريد ترمذ مكافأة له على مدائحه للمسئولين . ولكن الشاعر لم يكتف بالمدح وحده ليحقق أهدافه فاستخدم الهجاء كذلك . ويبدو من تاريخه وأشعاره أن الهجاء هو الفن الذي يعبر عن طبيعة الشاعر وأن مدحه كان وسيلة للنوال . وقد غلب على الشاعر الفن الذي يتفق مع طبيعته ولهذا يعتبر هذا الشاعر من الهجائين رغم ما ورد له من المدائح القليلة . ويدل على هذا أنه كان يمدح الشخص ثم يهجوه كما فعل مع أبي جعفر العتبي الذي مدحه ثم هجاه . ولم يكن له مبدأ ثابت ولا خلق .

---

(١) يتيمة الدهر : ٤ : ١٠١

ولم يكن الهجاء عند اللحام أسلوباً رفيعاً فى هذا الفن فقد غلبت عليه الشتائم والإسفاف . وبسبب أهاجيه عاش فقيراً . ولو اكتفى بالمدح وحده لعاش فى نعمة سابغة ولكن الهجاء كما قلنا كان طبيعته التى تدفعه ولا يستطيع الخلاص منها :

يقول اللحام فى ذم أبى جعفر العتبى :

تغيرت أخـــلاق هذا العتبي وصـــار لا يعرف غير العتب
وغير ضرب دائم وسـب وقد حشا فصار مثل الدب
عليه ألف لعنة من ربى

وكان قد حصل على عمل البريد فى خوارزم فأطال لسانه فى أهلها . ومن ذلك قوله :

ما أهل خوارزم من سلالة آدم ماهم وحق الله غير بهـائم
أترى شبيه رءوسهم ولغـاتهم وصفاتهم وثيابهم فى العـالم
إن كان يقبلهم أبونـا آدم فأنا برىء من أبينـا آدم

وله فيهم أيضاً :

لانـــال من ربه منـــاه ولا شفـــاه ولا رعــــاه
من ساقنى الكون فى بـــلاد رءوس سكـــانها جبـــاه
أغدو بـــلا مؤنس وأمسى إمســاء من ليله ضحـــاه
لدى خسيس يظن تيهـــا أن ليس فى الورى ســواه

وفى اللحام وولوعه بهجاء الناس يقول أبو نصر الهزيمى :

لم لا تبيع ولم لا تشترى اللحما ياشر من شتم الأحرار أو شتما
لقد صددت عن القول الجميل فما فتحت مذ كنت الا بالقبيح فما
عميت من طول ماتهجو الكرام ومن عمى الفؤاد بدا فى ناظريك عمى

ويقول أبو جعفر محمد بن العباس الوزير يصف طول لسانه وحدته :

من احتـــاج إلى السيف | فـــا فيـــك يكفيـــك
وما جـــارحـــة فيـــك | لنـــا أجرح من فيـــك
وأطـــراف المـــاويك | لتنبو عـــن مـــاويك

وكان بينه وبين الشاعر ابن مطران مهاجاة ومنافسة . ويوم صرف اللحام عن بريد ترمذ تولاه ابن مطران فقال اللحام يهجوه :

قــد صرفنـــا وكــل من | كـــان من قبلنـــا صرف
وصرفنـــا بشـــاعر | نعتـــه ليس ينصرف

ويقول الثعالبي أي أنه أحمق والأحمق لا ينصرف .

ولا نرى له ، فيا أورده الثعالبي ، سوى مدائح معدودة قليلة ، وأغلب شعره هناك في الهجاء .

ويذكرنا هذا الشاعر بشاعر آخر كان من علام الهجاء في الشعر العربي وهو دعبل الذي لم يسلم من هجائه أحد . وكأن اللحام أغرى دعبلا يتحدى في الهجاء دراسته النفسية لأحوال الناس وطبائعهم فوجد أن أكثر الناس ينتفع بهم عند الخوف والرهبة أكثر مما ينتفع بهم عند الأمن والرغبة وأن عيوب الناس أكثر من حسناتهم ، وأنهم يخافون من كشف عوراتهم فوق ما يبتغون من نشر محاسنهم . ويروى صاحب الأغاني أن دعبلا كثيراً ما كان ينشيء الهجاء بلا مناسبة فاذا سئل فيمن هذا الهجاء قال لا أعرف وليس له صاحب بعد . فاذا بدا له بعد ذلك أن يهجو شخصاً استخدم هذا الشعر بعد أن يضمنه اسم المهجو ، فكأنه بذلك كان يرضى طبيعته إلى الهجاء فينفق وقت فراغه في وضع أشعار الهجاء قبل أن يجد من يهجوه بهذه الأشعار .

وعاش اللحام فقيراً ، وله أبيات في الشكوى . من ذلك قوله :

قد نفدت لاعدمتك النفقة ... منذ ثلاث فهجتي قلقة
وليس في البيت ما يباع وما ... يرهن إلا مراعة خلقة

وكما عض اللحام الأيادى التى أحسنت اليه فكذلك كان يفعل دعبل حتى أنه كما يقول صاحب الأغانى كافأ الرشيد بعد موته أقبح مكافأة إذ هجاه رغم العطايا السنية التى كان يجزلها له .

وكما عاش اللحام مبغضاً من الناس فكذلك عاش دعبل شريداً طريداً وكما عذب اللحام فى آخر حياته مختفياً من شره حتى مات فكذلك ضرب دعبل حتى مات .

• • •

ومن شعراء بخارى المطرانى :

كان ابن مطران (أو المطرانى) شاعراً مجيداً حتى عده [illegible] فيمن اجتذبت من الأدباء والشعراء . وكان المطرانى قبيح الشكل ، زرى الهيئة إلا أنه كان فصيحاً فى حديثه ، مؤنساً فى مجلسه ، محسناً فى نثره وشعره . وكان إذ تكلم حاكى فصحاء العرب الا أن لكنة فى لسانه كانت تنم عن أصله الأعجمى .

كان هو واللحام من شعراء زمن واحد ومن [illegible] فى بلاط واحد ، ومن ثم كانت المهاجاة بينهما متصلة لا تنقطع .

وبلغ من جودة شعر ابن مطران وذيوعه أن حمل ديوان شعره إلى الصاحب فأعجب به اعجاباً كبيراً .

وقد عاصر ابن مطران أكثر من واحد من أمراء الدولة السامانية . عاصر أولا نصر بن أحمد . كما أنه عاصر عبد الملك منصور بن نوح بن نصر . وأورد الثعالبى قصيدته فى مدح أبى على البلعمى الوزير وبدأها بذكر الشيب والتحسر على الشباب :

ألم المشيب برأسي نذيراً ... وولى الشباب بعيشي نضيراً
وأصبح ضوء صباح المشيب ... لغربان ليل شبابي مطيراً
كذاك إذا لاح نور البكور ... لسود الطيور هجرن الوكورا
هو الشيب مخبره مظلم ... وإن كان منظره مستنيراً
وقد كان إظلامه في العيو ... ن يجلو العيون ويشفي الصدورا
فاعجب بلون سواد أنار ... ولون بياض أبى أن ينيرا
كأن الغواني رمد العيون ... يطالعن من شيب فودي نورا
إذا هن قابلن نور المشيب ... أدرن على ذلك النور نورا
وإن هن واجهن زور الخضا ... ب أعرضن عن ذلك الزور زورا
بلوناك حين يرجى الولى ... عرفنا ويخشى العدو النكيرا
فلم تملك الا اختيار شوعاً ... ولم تك الا اضطراراً ضرورا
ولم ترد الشر الا جزاء ... أراد بك الله خيرا كثيرا
ولو لم تخف سوء ضن الشكور ... لما كنت بالسوء تجزى الكفورا

وله من تشبيب قصيدة :

أخو الفرق يستطيل الليل في سهره ... والليل في طوله جار على قدره
ليل الهوى سنة في الهجر مدته ... لكنه سنة في الوصل من قصره

وله أبيات مرحة يصف فيها المودة التي تخلو من الهدايا . يقول :

والمودات ما خلت من تهاد مكدرة
كطبيخ خلا من اللحم يدعى مزورة

والمزورة مرقة المريض وطعامه ، فهي مرقة زائفة لخلوها من الدسم والدهن .

وله أيضاً من تشبيب قصيدة أخرى :

ظباء أعارتها المهاحسن مشيها ... كما قد أعارتها العيون الجآذر
فمن حسن ذاك المشي جاءت فقبلت ... مواطىء من أقدامهن الضفائر

فهي ناطقة بما أصاب الشاعر من إعراض الوزير عنه . والبيت الأخير صريح في أن الوزير غير خليق بهذا الهجاء لأن الشاعر يهواه ولكن الهوى قد تلاشى لأن الوزير لم يعرف كيف يغذيه وينميه في نفس الشاعر بآثار الوزارة . وماذا تكون آثار الوزارة في نظر الشعراء الا الأموال والنعم .

هذا وقد عمر الطاهري وعاش حتى اقتربت الدولة السامانية من نهايتها ولهذا يقول في شماتة وفرحة :

أودى ملوك بني سامان وانقرضوا	وأصبح الملك ما ينفك ينتقض
أضحت إمارتهم فيهم وجوهرهم	عبيدهم وهم في عرضها عرض
فليبك من كان منهم باكياً أبدا	فما لنا فاتهم من ملكهم عوض
من لان مرقده فالدهر مبدله	عنه فراشا له من تحته قضض
هاتيك عادته فيمن تقدمهم	وكل مرتفع يوما سينخفض
دعهم إلى سقر واشرب على طرب	فالفجر في الأفق الغربي معترض
غدا الربيع علينا والنهار به	ممتد منبسطاً والليل منقبض
والنور يضحك في خضر البنان ضحى	والبرق مبتسم والرعد مؤتمض
وقوضت دولة قد كنت أكرهها	وزال ما كان منه الهم والمرض
ان أنت لم تصطبح أو تغتبق فمتى	الآن بادر فان اللهو مفترض

أما سر هذه العداوة للدولة السامانية فيرجع إلى أن أبا الطيب الطاهرى عاصر الدولة الطاهرية ، وكان من صنائع الطاهريين . وكان له في أيامهم أملاك وضياع ضاعت منه بضياع دولتهم . وكان كل خير يقدمه اليه آل سامان يعد في نظره قليلا بالنسبة لما ضاع منه . وهذا فيما أعتقد سر نكرانه الفضل وهجائه هذه الدولة :

ومن شعر الطاهرى اللطيف قوله :

خليلي لو أن هم النفو	س دام عليها ثلاثاً قتل
ولكن شيئاً يسمى السرور	قديماً سمعنا به ما فعل

***

وكان أبو الطيب المصعبي كاتباً وشاعراً . كان في أول الأمر صاحب ديوان رسائل الأمير نصر بن أحمد ثم وزر له . ويختلف هذا الشاعر عمن تقدمه من الشعراء الذين ذكرناهم : فهو رجل مرح خفيف الظل حسن المعاشرة والمنادمة . وشعره يعبر عن هذا الاتجاه فهو يقول :

اختلس حظك في دنيـــــاك من أيـدي الـدهـــور
واغتنم يومـــاً تزجيـــــه بلهو وسرور
واصطنع معـــروفاً إلى كل كفـــور وشكور
لك ما تصنـــع والكفـــران يزري بالكفـــور

وله

اليـــوم يـــوم سرور على تمـــام سرور
ويـــوم نـــزل فيـــه مثـــل الخمائل حور
ولا تكـــن عند جـــد تسري بغـــير صغـــير

ويقول في هجاء أعجمي :

يأتي من ... ـــه أعجمي وأرى حسنه فصيح الكلام

وكان المصعبي من ... العربية والفارسية . ولم يبق من شعره الفارسي سوى ... تاريخ البيهقي (١) .

• • •

وأبو علي ... شاعر آخر خفيف الروح . كان كاتباً بارع الخط وشاعراً مرحاً ... فيه ما يعيبه سوى قصر قامته حتى اتخذه الشعراء هدفاً لتندرهم وهجائهم . ومن ... قول اللحام فيه :

---

(١) تاريخ بيهقي : ٢٧٢ ... طبع طهران ١٣٢٤

وقصـــير من قـــرى زو زن في قـــــامة شبر
يـــدعي الكـــــابة إلا أنه في فهـــــم عـــير

واقتدى بالحام كثيرون غيره من الشعراء فقال المضرب الزوزني :

للزوزني أبي علي قامـــــة قامت بسوق هجائه المتراكم
هي عمدة الشعـــراء يعتمدونها بقواضب من شعرهم وصوارم
ياليتها طـــالت فتقصر طولهـــا عنه طوال معايب وشتائم

ثم أبو علي نفسه فكان في شعره كثير الفكاهة . ومن شعره يهجو أبا جعفر العتبي :

يا قليل الخير موفور الصلف والذي قد حار في التيه السرف
كن بخيلا وتواضع تحتمـــل أو سخياً يحتمل منك الصلف

ويقول في آخر :

ان أذني تمل صوت كـــلامه وفؤادي يجن طول سقامه
ان عمري وعمـــره لعجيب مت من بغضه وحب غلامه

* * *

ومن شعراء بخارى وفضلائها أبو علي الساجي . وكان من المتصلين بالبلاط . وله وصف دقيق لأولئك الذين يقصدون البلاط . ويترددون إلى صاحبه ، يقول في بيتين :

أنــــس بالحضرة وقـــف نتعـــــــدى والتهـــانى
وتشـــــــــيع فـــلان وتعـــــزى لفـــــلان

وهو ممن يجيدون الفارسية . ويبدو هذا من قوله في مدينة مرو :

بلد طيب ومـــــــاء معين وثرى طيبه يفـــوق عبيرا
وإذا المرء قدر تفســــير عنه فهـــو يجهـــد بسمه ان يسيرا

لفظة مرو من حيث الصياغة تشبه «مرو» الفارسية ومعناها لا تذهب ، فهي نهي عن السير . وهذا ما قصده الشاعر .

وكان أبو على حسن الاسلام فهو يقول :

لا تأس من دنيـــا على فائت ... وعندك الاســـلام والعـافية
ان فـات شيء تســـعى له ... ففيهمـــا من فائت كافية

ولا يمنعه هذا من المعابثة ، فهو يقول فى غلام تركى :

لا سمرة لا بيـاض فيه لا سمن ... ولا هزال ولا طول ولا قصر
ذو قامة قام فيهـا عذر عـاشقها ... وصورة قبحت مع حسنها الصور

* * *

وكان المرادى شاعراً آخر من شعراء البلاط الساماني فى عهد نصر بن أحمد ويعد من شعراء اللغتين العربية والفارسية . ومن أشعره فى مدح نصر بن أحمد هذه الأبيات التى قالها عندما ركب نصر يوماً لضرب بالصولجة فنزل المطر ورش الأرض ، ولما عاد من رياضته تلقاه المرادى بهذه الأبيات :

أشهــــد أن الأمـير نصرا ... تخدمه الغيـث والسحـــاب
رش تراب الطريـــق كي لا ... يؤذيـه فى المـوكب التراب
لازال يبـقى لــــه ثـــلاث ... العمـــر والملـــك والشباب

ولم يقتصر المرادى على مدح الأمير نصر بن أحمد وحده . فقد مدح إلى جانبه الجيهانى وزيره كما مدح المصعبي ، وأبا على الصاغانى .

ومن قوله فى مدح أبى على الصاغانى :

لم ألق غيرك الا ازددت معرفة ... بأن مثلك فى الآفاق معدوم
أرى سيوفك فى الأعداء ماضية ... ركن الضلال بها ما عشت مهدوم
يحمى الندى والردى من راحتيك فلا ... عاصيك ناج ولا راجيك محروم

وهى أبيات جميلة تدل على قدرة الشاعر وتمكنه حتى صار شاعر بخارى كما يقول عنه الثعالبي . ولما احتضر المرادى أنفذ اليه الجيهانى ثياباً للكفن فأفاق وأنشأ يقول :

كسانى بنوجيهان حياً وميتاً فأحييت آثاراً لهم آخر الزمن
فأول بر منهم كان خلعة وآخر بر منهم صار لى كفن

• • •

وهناك شاعر آخر من أسرة اشتغلت بخدمة البلاط الساماني هو أبو أحمد ابن أبي بكر الكاتب فأبوه أبو بكر تولى الكتابة للأمير اسماعيل بن أحمد والوزارة للأمير أحمد بن اسماعيل . ولهذا نشأ أبو أحمد فى بيت عز ونعمه . ولما مات أبوه رأى نفسه أحق بالوزارة من غيره . ولهذا وجد على من تولوها بعد أبيه كالجيهانى الكبير والبلعمى . ودفعه الحقد عليهما إلى هجائهم . وحاول أن يتقرب إلى الأمير ولكنه لم يستطع . فلزم منزله . وقضى فى اللهو أيامه ولياليه حتى تبدد ماله ورقت حاله . ثم أقبلت عليه الأيام بعد ذلك فترة من الزمان تولى فيها أعمال هراة وبوشنج وباذغيس ونيسابور .

ومن جيد شعره قوله :

اختر لكأسك ندماناً تسر بهم أو لا فنادم عليها جلة الكتب
فللأنس بين ندامى سادة نجب منزهين عن الفحشاء والريب
هذا يفيدك علماً بالنجوم وذا يأتيك بالخبر المستظرف العجب
وبين كتب إذا غابوا فأنت هنا فى أنزه الروض بين العلم والأدب
إذا أنست ببيت من مقتضب أفضى إلى خبر يلهيك منتخب
ويحمل الكأس ساق مردف غنج يسعى بياقوتة سلت من العنب
فأنت من جد ذا فى منظر أنق وأنت من هزل ذا فى مرتع خصب
وخير عمر الفتى عمر يعيش به مقسم الحال بين الجد واللعب
فحظ ذلك من علم ومن أدب وحظ هذا من اللذات والطرب

ولم يطل إقبال الدنيا عليه فعزل عن نيسابور وعاد إلى بخارى يعانى من فقدان المنصب ومن ضيق العيش . وكان ليأسه يرجو أن يموت ليخلص مما يعانيه من المتاعب فهو يقول :

من كان يرجو أن يعيش فإننى أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
فى الموت ألف فضيلة لو أنها عرفت لكان سبيله أن يعشقا

ولما أبطأه الموت تعجله بيده فشرب السم .

دراسة للشعر العربى فى بخارى :

أوردنا فيا سبق مجموعة محدودة من النصوص . وفيما يأتى ملاحظاتنا على هذا الشعر بعد الرجوع إلى مصادره الأصلية كيتيمة .

ويجب أن ننوه أولا بتمث الحرية الفكرية التى كان يحيا فى ظلها أدباء بخارى . فقد مر بنا فيا سبق فى أكثر من موضع مظاهر هذه الحرية . ورغم تطاول الشعراء على الأمير نفسه ، وأهل بيته ، ورجال دولته فان أحداً لم يمسهم بسوء . وقد رأينا فيا مر كيف أن الأمير سعيد نصر بن أحمد بعد كل ما عرفه عن أبى الطيب الطاهرى لم يزد على أن عاتبه عتاباً رقيقاً .

أما الموضوعات فأهمها المدح والهجاء . ودواعى المدح معروفة فكل هؤلاء الشعراء كانوا يتقدمون إلى الأمير وكبار رجال الدولة بأشعارهم طلباً للنوال والمكافأة . وأكثر الفنون رواجاً فى بلاط الملوك فن المديح . وقد رأينا فيا سبق كيف كان العلماء والأدباء يسارعون إلى بخارى طلباً للعطاء والجاه.

أما الهجاء فأمره فى مثل هذه البيئة طبيعى أيضاً . فالمنافسة بين الشعراء على التقرب إلى الأمراء وذوى الجاه شديدة . وكل واحد من هؤلاء الشعراء المتنافسين يريد أن يهدم غيره ليستأثر وحده باهتمام الممدوح ، ولينفرد دون غيره بعطائه . ولا شك فى أن الدسائس أيضاً كانت تعمل عملها ، فهذا يولى وهذا يعزل دون أسباب ظاهرة . وليس هناك من وسيلة فى يد المعزول

أو المحروم للانتقام سوى الهجاء . ولهذا السبب نرى اللحام مثلا يهجو ابن مطران غداة عزل من بريد ترمذ وولي ابن مطران مكانه ظناً منه أن ابن مطران هو الذي سعى لعزله والقيام بعمله . وكثيراً ما كان العطاء دافعاً للمدح والثناء فإذا انقطع العطاء أو أبطأ بعد ذلك دعا انقطاعه أو إبطاؤه إلى الذم والهجاء . وهناك فريق من الشعراء لا يكف عن الهجاء إلا إذا اتصل العطاء . فضلا عن اختلاف الطبائع الانسانية بين الشعراء فمنهم شاكر ومنهم كفور . أما الشاكر فيستعبده الاحسان ويثني على المانح وأما الكفور فقلما يرضى وإذا لم يجد ما يدعوه للهجاء أنشأه من غير داع أو ضرورة الدفعة وراء طبيعته كما رأينا في أمر اللحام مثلا وفي الطيب الطاهري .

وكان الشعراء يحاكون الأسلوب العربي القديم في نظم القصيدة إذ يستهلونها بموضوع كالنسيب أو الشكوى أو الوصف قبل الانتقال إلى الموضوع الأساسي للقصيدة . ومن أمثلة هذا قصيدة المطراني التي أوردناها فيما سبق . فإنه بدأها بذكر الشيب وما اعتراه من ضعف الصحة والتحسر على الشباب قبل المدح الذي هو موضوع القصيدة الأساسي . ولا شك في أن هذه المقدمة كانت تهدف إلى غرض في نفس الشاعر .

ومن الموضوعات الشائعة في هذا الشعر الغزل . ولم يكن في أغلبه مهذباً رقيقاً إذ انتشر فيه ذكر العورات والتعبير عن الأغراض الجنسية تعبيراً مكشوفاً بلا حياء . وقلما رأينا شاعراً سلم شعره من ذلك . ولم نستطع فيما سبق من النصوص أن نمثل لهذا الجانب ونكتفي بالاطلاع على مصدر قديم جمع هذه الأشعار كاليتيمة . وإلى جانب الغزل الطبيعي بالمرأة كان الغزل بالمذكر شيئاً عادياً في تلك الأشعار .

وأحسب أن شيوع هذا الانحلال الخلقي أمر طبيعي في بيئة كبيئة بخارى . فهي أولا بيئة نهرية تحف بها المياه والأنهار من كل جانب . ومن طبيعة البلاد التي تقع على الشواطيء أن تكون أكثر تعرضاً لدواعي الانحلال . وفي هذا المعنى نفسه يقول المقدسي «وكل بلد على بحر أو نهر فالزنا واللواطة فيه

كثير مثل سيراف وبخارى» (١) . يضاف إلى هذا أن المدينة بحكم أهميتها التجارية وموقعها الجغرافي ، ومكانتها السياسية كانت مقصد الناس من جميع الأجناس ولهذا كان أهلها أخلاطاً من الأجناس والأديان ، وألوان التفكير ، وطرائق الحياة. ويذكر المقدسي أن كثيراً من أهل الفساد بالأقاليم المختلفة قد رحلوا إليها وأقاموا بها (٢) .

وعرف عن بخارى ازدحامها بأهلها مما أدى إلى ضيق بيوتها وتلاصق سكناها ، واشتباك مبانيها . وهذا بدوره يهيء الجو المناسب للفساد والمفسدين.

وكانت بخارى بلدة تجارية عظيمة ، كما كانت بساتينها وحقولها غنية الثمار وافرة المحاصيل ، وفواكهها مشهورة في الشرق . وهذا كله انتشر الثراء بين أهلها فتنزعوا إلى الترف والدعة . وظهر منهم قوم لبسوا الحرير والديباج وشربوا في أواني الذهب والفضة وهونوا أمور الدين (٣) .

وكان طبيعياً أن يتأثر الأدب ، وهو مرآة البيئة ، بكل ما حوله . ومن مظاهر الترف واهتمامهم بوصفه قول اللحام في استهداء الشراب :

عصتني يا سيدي ومولائي   من جوده قد صان بلوائي
وقد رأى أن يبيت ضيفي   وكان ما قد رآه من رأي
وليس عندي من الشراب شيء   وحق ما بيننا سوى الماء

ويقول الحصري في بخارى وقد سمع قول محمد بن عبد الله بن طاهر : ما جشت الدنيا بأظرف من بخارى .

ألا إن دنياك معشوقة   تجمشت كل عيش لذيذ
ولكنها قط ما جشمت   من المهيبات مثل النبيذ

---

(١) المقدسي ٣٦
(٢) المقدسي ٢٨٠
(٣) نفسه ، ٢٨٠

وفى السكر وحرصهم عليه يقول الشاعر :

وقائلة لى ما بالك الدهر طافحاً   وأنت ممن لا يليق بك السكر
فقلت لها أنكرت فى الخمر مرة   فأسكرنى ذاك التوهم والفكر

ويقول أيضاً :

وسائل عن مقتضى سكرى   وما درى لم هكذا صرت
قلت له استنشقت من منتشٍ   رائحة الخمر فأسكرت

وكان لطبيعة الاقليم مظهرها فى شعره . والمطرانى فى بعض أبياته يتحدث عن ثلوج نزلت بالبلاد بعد النوروز فأضرت بالأنوار والزرع :

عجباً لآذر جاء فى آذار   وتفاوت الأفلاك فى الأدوار
طلعت عشاء للبياضات سحائب   أنواؤهن خسفن بالأنوار
أبدى الربيع لنا شتاء مضمراً   يأبى ظهور ضمائر الأشجار
ندم الشتاء على التقضى فانثنى   لينال منتقها بقايا الثار

ومن وصف الطبيعة أيضاً قول أبى نصر الخزيمى فى شتاء شديد :

وشتوة شتت أبناء السبيل لها   وغار فى نفق منها المغاوير
يشكو جليدهم من الجليد ضحى   والماء جلدته قرا قوارير
فللحى من خباء البرد أغشية   وللعيون من الشفاف تغوير
إذا تنكبت النكباء عن أذن   فللجنوب من الجنبين تقوير

وقال أبو القاسم الدينورى فى سفرجل وتفاح ورمان وآذريون أهداها إلى بعض الرؤساء فى يوم المهرجان كما جرت العادة بذلك :

بعثت اليك ضحى المهرجان *   بمعشوقة العرف والمنظر
معطرة صانها فى الحجال   مطارف من سندس أخضر

إلى آخر هذه القصيدة التى أوردها الثعالبى فى ترجمة الشاعر .

وكان من الشائع بين شعراء العربية في هذه البلاد نقل المعاني من الفارسية إلى العربية واقتباس المعاني من الشعر العربي . ومن أمثلة هذا قول الشجري :

ان شئت تعلم في الآداب منزلتي وأنني قد عداني العز والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لي والعود والنرد والشطرنج والقلم

ويقول الثعالبي أن هذين البيتين منقولان عن بيتين بالفارسية للأعاجم . وأعتقد أنه يقصد هذين البيتين للشاعر الفارسي آغاجي بخاري وفيهما يقول :

اى آنكه ندارى خبرى از هنر من
خواهى كه بدانى كه بهم نعمت پرورد
اسب آر وكمند آر وكتاب آر وكمان آر
شعر وقلم وبربط وشطرنج ومى ونرد

ومعناهما الحرفي : ان كنت لا تدرى حقيقة فضلى فاعلم أنى رجل لم تفسده النعمة . فهيء الفرس والوهق . وأحضر الكتاب والكمان والشعر والقلم والعود والشطرنج والخمر والنرد . أى أنه رجل يجد حين الجد ويلهو في غير ذلك .

والحقيقة أن هذه الأبيات الفارسية هي بدورها مأخوذة من قول المتنبي :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم

ولأبي الفتح أحمد بن الزوزني بيتين من الشعر :

تصور الدنيا بعين حجاك لابد في أن تبصر
الدهر خير ... وزرقا من عمل ... تعبر

أخذ أوحدهما من قول رودكي .

بچشم دانش بايد بديد جهان را كه چشم سر تو بيند نهان

ومعناه : يجب أن ترى الدنيا ببصيرتك لأن عينك لا ترى الحق .

ومن المعانى العربية التى أخذوها قول الدينورى فى ابنه :

ربيته وهو فرخ لا نهوض له ولا شكير ولا ريش يواريه
حتى إذا ارتاش واشتدت قوادمه وقد رأى أنــه آنت خـــوافيه
مد الجناحين مداً ثم هزهمـــا وطـار عنى فقلبى فيه ما فيه
وقد تيقنت أنى لو بكيت دمـــاً لم يرث لى فهو فظ القلب قاسيه

والاهتمام بالمحسنات البديعية ظاهرة أدبية غالبة على شعراء المشرق . ويرجع تعليل هذه الظاهرة ، فيما يبدولى ، إلى عجمة أصولهم . والأعجمى إذا أجاد اللغة العربية لا يتصور أن البساطة فى التعبير غاية فنية . ولهذا فهو يعمد إلى فنون الصناعة الأدبية المختلفة ليثبت أنه محيط باللغة ، بارع فى التصرف بألفاظها . ويكثر الاتجاه إلى استخدام هذا الأسلوب فى البيئات التى يغلب فيها الأعاجم أو فى عصور الضعف . ويخفى هؤلاء الأعاجم أن بساطة التعبير وسهولته مطلب بلاغى قد يصعب بلوغه على كثير من العرب أنفسهم . ويلاحظ دائماً أن الدخيل على لغة من اللغات عندما يجيدها ، يهتم بالفخم من اللفظ والغريب من الفكرة ، ووسائل الصنعة ، وطرائق الزخرف ، ويتوهم بذلك أن هذه مظاهر قدرته ومهارته بينما نرى أن أهل اللغة نفسها الذين يتملكون ناصيتها يهتمون بالبساطة والوضوح ولا يسيطر عليهم عقدة العجمة ولا الرغبة فى التفاصح . ومن أمثلة الاهتمام بهذه الصناعات الأدبية قول ابن عمران وكان حريصاً على التجنيس حرصاً أفسد شعره :

مضى رمضان مرمض الذنب فقده
وأقبل شوال نشول به فهراً
فيسالك شهراً أشهر الله قـدره
لقد شهرت فيه سيوف العدا شهرا

وقوله :

السحر من مقلتيك ينتثر والخمر من وجنتيك يعتصر
ياشادنا سخر الجمال لــه فكل أفكـــارنا لـه سخر
الريق والطرف منك ياسكنى ضدان ذا مسكر وذا سكر

ويذكر الثعالبي لأبي أحمد بن أبي بكر الكاتب أنه عندما هجا الجيهاني والبلعمي خرج مغاضباً إلى بغداد ثم حن بعد ذلك إلى وطنه بخارى فلما بلغ في طريق عودته قرية آمل قال :

قطعت من آمل المفازة   قطعاً به آمل المفازة

ومن الأمثلة الواضحة على هذه الصناعة قول أبي جعفر محمد بن العباس الوزير في هجاء اللحام :

من احتاج إلى السيف   فما فيك يكفيك
وما جارحه فيك   لنا أجرح من فيك
وأطراف المساويك   لتغني عن مساويك

وقول المطراني :

ترمى مكايدة العدو   ك التحفظ منه ضائع
من رقعات بالمقـ   ـتل قتلات بالمواقع

وله أيضاً :

تزهي علينا بقوس حاجبها   زهو تميم بقوس حاجبها

ومن هذا أيضاً قصيدة أبي جعفر محمد بن عيسى بن الحسن :

لئن أصبحت منبوذاً   بأطراف خراسان
وبعدوا بيت عن لذة   بعيني أجفاني
ومحمولاً على نصيبة   من بعرض سعداني
ومخصوصاً خراسان   من الأزمان أعياني
وحرف عند شكواي   مسن لأذن آذاني
....
كأن القصد من أحدا   ث أزماني برمتاني

وبقية القصيدة زاخرة بألوان الجناس .

والأطفال . ولم يستطع الأمراء الخوارزميون أن يدافعوا عن المدينة وهزموا في الهجمة الليلية التي شنوها على جيوش المغول المرابطة حولها . وعند ذاك أدرك أهل المدينة أن لا قبل لهم بالمقاومة ، فأسرع السادة والعلماء والأشراف والأعيان إلى الخان يعلنون خضوعهم ويطلبون الأمان. وأجابهم جنكيزخان إلى طلبتهم ، ودخل في نفس الوقت مدينتهم . ولما بلغ المسجد الجامع ظنه قصر السلطان فأفهموه أنه بيت الله ، ولكنه لم يرع له حرمة ودخله راكباً حتى بلغ المقصورة فترجل وصعد المنبر وانتشر رجاله يفتحون الصناديق ويلقون بالمصاحف على الأرض ، وجعلوا المسجد اصطبلا . وبالغوا في اذلال أهل العلم والمشايخ فتركوا لهم زمام الدواب وشغلوا بشرب الخمر واللهو والغناء. وبعد ذلك ذهب جنكيزخان إلى ساحة صلاة العيد (عيد كاه) واجتمع بالأهلين وبدأ الكلام بذم السلطان محمد خوارزمشاه والطعن عليه. ووبخهم وأغلظ القول لهم ثم طلب منهم أن يسلموه ما يخفونه عندهم من الأموال والكنوز. وأسرع الأهلون إلى الامتثال وقدموا له ما تملكون . وفي نظير ذلك أعفاهم جنكيزخان من التعذيب ؛ ولكنه علم أن كثيراً من أتباع خوارزمشاه يختفون بين الأهالي فثارت ثائرته وأمر باشعال النار في منازل البخاريين . وكانت أغلب بيوتهم من خشب فما انقضى اليوم حتى كانت المدينة قد حرقت وأصبحت طعمة للنيران ولم يسلم من مبانيها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر . وبعد ذلك أمر جنكيزخان شبان بخارى بالهجوم على قلعتها ورتبت المناجيق من الجانبين . وفي قليل من الوقت استولى المغول على ذلك الحصن الحصين . وقتلوا كل من كان بها من الرجال وأسروا الأطفال وسووا القلعة بالأرض. وبعد هذه الواقعة كان أحد أبناء بخارى قد رحل إلى خراسان فسئل عن تلك الواقعة فأجاب في عبارة موجزة : انهم جاءوا وقلعوا وأحرقوا وقتلوا وسلبوا . ويعلق صاحب حبيب السير على هذه العبارة فيقول : في الواقع لا يمكن أن توجد عبارة في الفارسية أوجز من هذه (١) في بيان ما وقع في بخارى من جيش المغول .

---

(١) نص العبارة بالفارسية «آمدند وكندند وسوختند وكشتند وبردند»

ولأبي القاسم الديوري في البراغيث :

وغبش القوائم حدب الظهور ... طرقن فراشي على غـــرة
فنقطني بخـــراطيمهـــن ... كنقط المصـــاحـــف بالحمرة

ويمثل شعر أبي طالب المأموني مظاهر النعمة والترف التي كان ينعم بها في بخارى . وعني في شعره بوصف أطايب الطعام وأنواع الحلوى والفواكه عناية لا نجدها عند شاعر غيره . وله مثلا في الرطب المعسل في برنية زجاج

وشهدة مثل النسيم كأنهـــا ... مكورة الأجرام من رطب [illegible]
بها من نبات النحل والنحل مودع ... يواقيت خمر في مياه من [illegible]

وله في الطبيخ :

تمزج فيه [illegible] صب وخل [illegible] ... [illegible] ثوب [illegible]
[illegible] مسكية [illegible] ... [illegible] ديباج وعرف [illegible]
[illegible] ... [illegible] فهي بدر [illegible]

وقوله في [illegible] :

[illegible] من [illegible] ... [illegible]
[illegible] ... [illegible] حزوم

وله في الشواء :

طرا طارىء عند العشاء فجئته ... بقرص غضيض من شواء [illegible]
تخال قطاع الملك رصع رصفه ... بفيروزج [illegible] في صحن كافور

وله في اللوزينج :

ولوزينج يهدي إلى الفرس ختمه ... بنان عروس في رقاق الغلائل
إذا حملت أحداه خمس حسبته ... زيادة كف بين خمس أنامل

وهناك غيرها كثير تجده فى ترجمته فى الجزء الرابع من اليتيمة فقد قال فى الأترج المربى (١٧٦) وفى بنادق القند (١٧٨) والأمليج المربى (١٧٧) والزبيب (١٧٩) والباقلاء (١٨٠) والرقاق (١٨٢) والجوذابه (١٨٣) والـفود (١٨٣) ومشاش الخليفة (١٨٥) والمزورة (١٨٦) . كما قال فى أشياء أخرى كثيرة يستصغرها الشعراء ولا يقولون فيها كقوله فى المجمرة (١٨٨) والمقلمة (١٨٨) والسكين (١٨٨) والمقط (١٨٨) والمشط (١٨٩) والمنقاش (١٨٩) .. الخ .

وبالاضافة إلى ما سبق نظم الشاعر مجموعة من الأشعار على ألسنة كثير من الأدوات فمن ذلك قوله على لسان خوان :

فضلت جميع الأوانى وفقـت | فما فى منقصـة واحـدة
مقرى منـازل صيد الملوك | وفى أتت ســورة المائدة

ومنه أيضاً على لسان دار :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من | حكم الخلائف آبائى على الأمم
فكل ما فيه مبـذول لطـارقه | فلا ذمـام لـه إلا على الحرم

... الخ

بخارى بعد السامانيين :

وبانقضاء دولة السامانيين ينقضى عصر بخارى الزاهر ، وتحتفظ بخارى بمكانتها فترة من الزمن تأخذ بعدها فى الضعف التدريجى حتى تأتيها الضربة القاضية فى مطلع القرن السابع الهجرى على يد المغول إذ نالها فى ذلك الوقت مانال غيرها من مدن العالم الاسلامى من التخريب على يد هؤلاء المتوحشين .

عندما فرغ جنكيزخان من السيطرة على المشرق أصبحت حدود دولته متاخمة لحدود مملكة خوارزمشاه . وكان من المتوقع أن يحدث الاحتكاك بين القوتين . وقد تعجل ملك خوارزم وقوع هذا الاحتكاك بقتل رسل جنكيزخان اليه . وكان ذلك خطأ كبيراً منه عجل بوقوع الكارثة ، وإن لم يكن فى الحقيقة سبباً لأن أطماع المغول لم تكن لتقف حيث بلغت .

وفى عهد الشيبانيين ٩٠٦ – ١٠٠٧ هـ = ١٥٠٠ – ١٥٩٩ كانت سمرقند هى العاصمة ولكن كان هناك أيضاً فرع من الأسرة يحكم فى بخارى . وكثيراً ما كان حاكم بخارى هو الحاكم الأعلى لإقليم ما وراء النهر . وهكذا نافست بخارى سمرقند فى عهد هؤلاء الشيبانيين . وينتسب هؤلاء الشيبانيون إلى محمد الشيبانى من سلالة جنكيزخان وأصلهم من سيبريا ثم هاجرت بعض القبائل كالأوزبك إلى ماوراء النهر بزعامة محمد الشيبانى وكونوا بذلك الدولة الاوزبكية التى حكمت ما وراء النهر خلال القرن السادس عشر الميلادى .

وفى عهد أسرة استرخان أى الأسرة الجانية Janids (١) ١٠٠٧ – ١٢٠٠ = ١٥٩٩ – ١١٨٥ استعادت بخارى جانباً من مكانتها القديمة وازدادت ثروتها وأصبحت من جديد منارا يضيء وسط آسيا . ولم يمنع هذا من وجود منافسات مدن مثل سمرقند ، فرغانه ، بدخشان ، بلخ .

وبدأت هذه الأسرة تضمحل إلى أن انتهى أمرها على يد قوة أخرى جديدة كانت قد بدأت تظهر فى خجند (فرغانة) منذ سنة ١٧٠٠ م . وهذه القوة الجديدة هى قبيلة منجيت التى تولت السلطة سنة ١٧٨٥ م .

وكانت هذه القبيلة قد رحلت عن موطنها الأصلى اقتداء بما فعل محمد الشيبانى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى . وقد بدأ نفوذهم فى ظل أسرة استرخان (الجانية) السابقة . وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وزر زعماؤهم لحكام بخارى ثم استطاعوا فى بعد أن يتبوءوا السلطة .

وقد ارتفع شأن بخارى فى عهد أحد أمراء هذه الأسرة وهو الأمير المعصوم . (معصوم شاه مراد ١٢٠٠ – ١٢١٥هـ = ١٧٨٥ – ١٨٠٠ م). وقد عرف عن هذا الأمير تمسكه وتدينه واشتغاله بالأمور النافعة . ومن أمراء هذه الأسرة الأمير نصر الله . وكان ظالماً مستبداً قاسياً .ولم تكن الامارة

---

(١) Lane - Poole : Mohamedan Dynasties p. 274.

مقررة له فهو الابن الثالث للأمير حيدر ، ولهذا ظل فى نزاع مع أخويه حتى استطاع بالحيلة وبالحرب أن يصل فى آخر الأمر إلى الولاية ، وهاجم أخاه عمر فى بخارى ودخلها ظافراً فى ٢٢ مارس سنة ١٨٢٦ ، وأسرع عمر إلى الفرار فنجا بنفسه بينما هلك ثلاثة من أخوته مع من بقى معهم فى بخارى من الأتباع . وعندما استتب له الأمر لم يكن يقيم وزناً لأى اعتبار من الاعتبارات مادام يؤدى إلى تحقيق هدفه . ولم يتورع عن قتل أصدقائه وأعوانه الذين مهدوا له الأمر . وبالجملة فقد كان سفاكاً شريراً . ولهذا لقبه Ross, Skrine فى الفصل الذى عقداه عنه فى كتابهما بلقب نيرون بخارى (١) .

وعندما أحس نصر الله من جيرانه الضعف بسط نفوذه على ممتلكاتهم وحقق أطماعه . وكان يتخذ من تيمورلنك قدوة ومثلا .

وفى عهده بدأت أنظار انجلترا تتجه إلى المنطقة لتراقب المحاولات التى كانت روسيا تبذلها للتسلل إلى المنطقة . ففى سنة ١٨٣٢ أرسلت انجلترا الكسندر برنز Alexander Burnes فى مهمة سرية إلى بخارى . ولم ينجز برنز هذا شيئاً مما عهد به اليه . وكان من حسن حظه أن استطاع أن يفلت من وحشية ذلك الحاكم المتعطش للدماء .

وحاولت بريطانيا مرة أخرى . وكان رسولها فى هذه المرة الكولونيل Stoddart من رجال الجيش بالهند . ولم يكن هذا الرسول على شىء من الكفاءة والدبلوماسية . وبدا من عجرفته ما أوغر صدر نصر الله عليه فألقى به فى السجن يقاسى ألوان العذاب حتى توفى هناك .

---

(١) ص ٢١١ من كتابهما Heart of Asia . وللمؤلفين فى هذا الفصل مايدل على تعصبهما ضد الاسلام . ويبدو أن مصدر هذا التعصب مالقيه نصر الله بعض مواطنيهما من الانجليز كما ورد فى هذا الفصل . ولكن تعميم الأحكام من حوادث فردية أمر لايتفق بمناهج العلم ولايتفق مع مناهج العلماء .

وفي سنة ١٨٤٠ أوفدت بريطانيا رسولا ثالثاً هو الكابتن أرثر كونولي Arthur Conolly وكان رجلا رقيق الحاشية واسع الثقافة . وقد باعدت هذه الصفات بينه وبين ذلك الحاكم الطاغية نصر الله . وكانت مهمة هذا الكولونيل هي انشاء اتحاد بين أمراء وسط آسيا لمواجهة مطامع روسيا في هذا المنطقة . ولم ينجح هذا الكولونيل في تحقيق هذه المهمة بسبب الأحقاد والمنازعات القائمة بين أولئك الأمراء التي تجعل اتحادهم فيما بينهم أمراً عسيراً . وانتهى أمر هذا الرسول إلى الأسر .

وفي هذا الوقت نفسه كانت روسيا تسابق بريطانيا إلى كسب ود نصر الله فأوفدت إليه في سنة ١٨٤١ الكولونيل بوتانيف Butanieff ليعقد معه في بخارى معاهدة صداقة ومودة . وكان لمهارته أثرها في نفس نصر الله . ومع ذلك لم ينجح في مهمته وغادر بخارى في ١٨٤١ .

وعندما امتدت حدود روسيا من الشاطئ الشمالي الشرقي لبحر قزوين إلى حدود الصين أصبحت تباشر حدود هضبة سمرقند ومن ثم اقليم بخارى . وهنا بدأ الخانات المسلمون يدركون حقيقة الخطر الروسي الذي أصبح على الأبواب فقرروا أن ينسوا خلافاتهم ويتحدوا ثم الخوقنديون Ko anids والبخاريون Bokharans وأمراء خيوة والسمرقنديون Khivans . وكانت المشكلة بعد ذلك أن يجدوا زعيماً لهذا الاتحاد . وقد وجدوه في شخص أمير بخارى سيف مظفر الدين ١٢٧٧ - ١٢٨٤ = ١٨٦٠ — ١٨٦٨ . وكان هذا الأمير سليل تيمورلنك ولهذا كان يحلم بمجد كمجده . وسرعان ما استطاع هذا الأمير أن يجند جيشاً ضخماً من أتباعه . وعندما بدأ القتال كان الجيش الروسي بقيادة شرنييف Chernaieff . ومع أنه كان مجهزاً تجهيزاً حديثاً ضخماً إلا أنه فشل في محاربة البخاريين بسبب العداوة التي لقيها من الأهالي وصعوبة التموين . ولذا اضطر أن يتراجع إلى عاصمته . وكان تراجع القائد الروسي مظهراً للضعف أمام الأهالي الذين تقاطروا للانضواء تحت راية الأمير البخاري الذي زحف إلى طشقند .

وجاء الجيش الروسي الثاني بقيادة الجنرال رومانوفسكي الذي لم يستطع هو الآخر أن ينتصر على الأعداء في أول الأمر واضطر إلى التراجع عن مدينة طشقند إلا أنه عاود بعد ذلك الهجوم وهزم الجيش البخاري . وتراجعت الجيوش البخارية في فلول غير منظمة . ورأى الروس أن يستولوا أولا على قلعة خجند لتأمين طريقهم وفي ٦ يونيو سنة ١٨٦٦ سقطت خجند بعد حصار دام ثمانية أيام . وكان لسقوط خجند دوي واسع المدى في أنحاء آسيا الوسطى . ولكن مظفر الدين الذي كان يحرضه رجال الدين على مواصلة القتال رأى أن يقوم بجولة جديدة ضد الروس . وفي أكتوبر كان الروس قد بلغوا مشارف بخارى وبذلك استطاعوا أن يسيطروا سيطرة كاملة على وادي زرفشان . وفي ربيع سنة ١٨٦٧ استولى الروس على يني كرجان . وهكذا وجدوا أنفسهم سادة للإقليم الذي يضم منبع بخارى وهي حوض نهر زرفشان وسيحون .

وفي ١٢ مايو سنة ١٨٦٨ هاجم القائد الروسي كوفمان Kauffman القوات البخارية الخوارزمية المتحدة على المرتفعات الواقعة في الجانب الغربي من نهر زرفشان على بعد خمسة عشر ميلا من سمرقند . وعبر الروس النهر فضحل وأطبقوا على عدوهم . وفي اليوم التالي حاصروا مدينة سمرقند ثم تركوها بعد عدد من المناوشات إلى بخارى نفسها . وبالسيطرة على بخارى أصبحت لروسيا السيادة في تلك المناطق .

الدراسة الجيومورفولوجية

مناهجها ، ووسائل البحث الحديثة فيها

للدكتور حسن سيد احمد ابو العينين

الجيومورفولوجيا علم من العلوم الجغرافية الحديثة التي لم تعرفها المناهج العلمية إلا منذ أواخر القرن التاسع عشر . ومن ثم نرى أنه من الضرورى أن نعرف بهذا العلم وبنشوئه وبتطوره .

دلت قواميس الإنجليزية على أن كلمة «جيومورفولوجيا Geomorphology» تشمل دراسة قشرة الأرض وتمييز ظواهر السطح التى تتكون فوقها . ولذا استخدمت أحياناً كلمة Geomorphogeney مرادفاً لها . ولكن الأستاذ دودلى ستامب D. Stamp أوضح أن كلمة جيومورفولوجيا تعبير مركب مشتق من عدة مقاطع من كلمات يونانية وهى Ge ومعناها «الأرض» و Morphe ومعناها الشكل و Logos ومعناها علم أو دراسة . ويتفق هذا المعنى الحرفى لكلمة جيومورفولوجيا وهو العلم دراسة سطح الأرض . وقد اتسع مجال هذا العلم فى الآونة الأخيرة حيث شملت موضوعاته التوزيع الجغرافى لظواهر سطح الأرض ودراسة نشأتها ومراحل تطورها والزمن أو الأزمنة التى تكونت فيها ، كما أهتمت كذلك بدراسة توزيع المسطحات المائية والعلاقة بين طبوغرافية اليابس وأشكال قاع المحيطات . أو بمعنى آخر أنماط المنحنى الهبسوغرافى للقشرة الأرضية . وعلى ذلك يمكن تقسيم موضوعات الدراسة الجيومورفولوجية إلى ثلاثة أقسام كبيرة هى :

(١) دراسة شكل سطح الأرض ومظهره العام Morphographic Analysis

وعن هذه الدراسة هى الإلمام بأشكال انحدارات سطح الأرض المختلفة وتقسيم هذه الانحدارات من حيث تنوع أنماطها واختلاف درجاتها

وقد تعرض مفهوم الدراسة الجيومورفولوجية وتحديد مجالها للتطوير والتعديل منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كما تطورت طبيعة الدراسة نفسها ، وكيفية مادتها تبعاً لاختلاف المناهج التي سلكها الباحثون . والحديث التالي يوضح بعضاً من المناهج القديمة والحديثة ووسائل البحث في علم الجيومورفولوجيا .

المناهج الدراسية القديمة في علم الجيومورفولوجيا

من الحقائق المسلم بها أن كتاب هذا الجيل نموا مجال الدراسة الجيومورفولوجية وشكلوا جوهرها على ضوء الدراسات التي قام بها الباحث الأمريكي وليم موريس دافز W. M. Davis في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فلم تكن الدراسة الجيومورفولوجية قبل دافز دراسة منظمة قائمة على أسس علمية سليمة ، بل كانت في غالب دراسة سطحية وكتابات وتأملات وصفية لبعض الظواهر الجيومورفولوجية التي قد تبهر الباحث ، ويدفعه إعجابه بها إلى الحديث عنها ووصفها ، ويقدم محاولات أولية لتفسير نشأتها . وقد أجرى معظم هذه الدراسات جيولوجيو القرن التاسع عشر ، وقد حاول هؤلاء في دراساتهم تفسير تكوين قشرة الأرض ، وما تتميز به من ظواهر طبوغرافية مختلفة . ويؤخذ على هذه التفسيرات القديمة أنها كانت معتمدة اعتماداً كلياً على رأي الباحث وحده . وتبعاً لما يحس أو يشعر به في الحقل ، بالإضافة إلى مقدرته على التخيل وعرض الافتراضات والاستنتاجات النظرية بدلا من كونها مبنية على أساس استنتاجات كمية علمية أو عملية منطقية . وعلى ذلك فقد كانت مناهج دراستهم كيفية وصفية مجردة Descriptive Approach . وقد ازدهر هذا النوع من الدراسة في أواخر القرن التاسع عشر في كل من المملكة المتحدة وألمانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية .

فقد أضيئت مشاعل الدراسة الجيومورفولوجية في المملكة المتحدة بجهود الباحث الأسكتلندي المشهور جيمس هطون (١٧٢٦ – ١٧٩٧) الذي دعم دراسته ونتائج أعمـــاله بوسطة البحث الحقلي كما وضع بعض الأسس الهامة التي ساعدت بدورها على تطور المعرفة

الجيومورفولوجية . وأهم ما أضافه هاطون إلى التراث الجيومورفولوجي هو عبارته الخالدة التي تعتبر في الوقت الحاضر بمثابة معادلة بغيضة والقائلة " أن الحاضر مفتاح الماضي The present is the key to the past " وقد أوضح هاطون كذلك أن ظواهر سطح الأرض تتكون خلال مراحل زمنية طويلة متعاقبة ، تسير سيراً تدريجياً بطيئاً ، وعليه فقد تمكن من اكتشاف مبدأ التطور التدريجي المنتظم Uniformitarianism . وعلى الرغم من إدراك هاطون للدعائم الأساسية في علم الجيومورفولوجيا إلا أن كتاب عصره ضلوا الطريق من بعد وفاته ، وتلاشت تدريجياً تعاليم المدرسين الأول ، وبذا عادت كتابات جيولوجيي بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من جديد إلى صورتها الأولية الوصفية [illegible] . ويتضح من [illegible] أن هؤلاء الكتاب لم يهتموا بدراسة تطور [illegible] الظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض من زمن إلى آخر [illegible] في [illegible] والنواحي الجيولوجية [illegible] التي [illegible] وسماتها في مظهرها . ولم [illegible] من [illegible] [illegible] سطح الأرض [illegible]

[illegible] بعض هؤلاء الكتاب [illegible] ظواهر [illegible] سطح الأرض [illegible] [illegible] [illegible] سطح الأرض [illegible] في [illegible] [illegible] التعرية [illegible] [illegible]

(أ) التعرية الهوائية : Subaerial or atmospheric denudation

(ب) التعرية البحرية : Marine planation

(ج) التعرية الجليدية : Glacial action

وكان من أنصار الرأى الأول كل من ويتكر Whitaker, 1867 وماو Maw, 1866 وتيدمان Tiddemann, 1868 وأنستد Ansted, 1869 . ومن مؤيدى الرأى الثانى كل من فيليبس Phillips, 1853 وهل Hull, 1857 وماكينتوش Mackintosh, 1865 وجرين Green, 1868 . أما أصحاب الرأى الثالث فهم الباحث جودتشيلد Goodchild, 1872 الذى اقترح أن معظم الظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض فى العروض المعتدلة يرجع نشأتها إلى فعل التعرية الجليدية .

وعلى ذلك فقد اتسمت الدراسة الجيومورفولوجية فى بريطانيا بالطابع الوصفى العام واعتمادها بشكل على خبرة الباحثين الجيولوجيين واتساع أفقهم وتطور أفكارهم. أما الدراسة الحقلية التى استعان بفائدتها بعض منهم فكانت فى الواقع دراسة سطحية عابرة حيث كان الباحث يقوم باجراء العمل الحقلى فى منطقة كبيرة المساحة قد تبلغ ٥٠٠ ميل٢ فى أقل من أسبوع واحد . وخلال هذه المدة القصيرة من الزمن يبنى الباحثون استنتاجات وهمية مبنية على افتراضات غير سليمة علمياً . ولذا اتسمت بحوثهم بالنمط الوصفى العام أو المجرد .

أما فى بقية بلدان أوربا عامة وفى ألمانيا خاصة فقد ازدهرت المعرفة الجيومورفولوجية بفضل كتابات الباحث الراحل ألبرخت بنك A. Penck وقد استخدم هذا الباحث الوصف الجيومورفولوجى التحليلى فى دراسته لظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض . وقد عنى ألبرخت بنك بدراسة الانزلاقات الأرضية Landslides . ويعتبر من أوائل الباحثين الذين بذلوا محاولات جدية فى تصنيف الأنماط المختلفة للانهيارات الأرضية والأراضى المنزلقة وتساقط الصخور وتحرك التربة ، ومعرفة وتحديد العوامل الجغرافية والجيولوجية المختلفة التى تساهم فى نشأة هذه العمليات .

وخلال أوائل القرن العشرين سار فالتر Walter ابن ألبرخت بنك في الطريق الذى سلكه والده من قبل ، وظهرت له كتابات عديدة تدور حول تفسير الأشكال العامة لسطح الأرض . وتحليل ظاهرة الانزلاقات الأرضية وأنماط انحدارات سطح الأرض ومراحل تكوينها . وكانت أهم أعماله هي تلك التي ظهرت في كتابه المعروف باسم والتحليل الجيومورفولوجي لظواهر سطح الأرض في عام ١٩٢٤ .

"Die Morphologische Analyse" "Morphological analyses of landforms"

وقد اعتمدت دراسات فالتر بنك على تمييز المفتتات الصخرية التي تحللت بدورها من الكتل الصخرية بواسطة عوامل التعرية المختلفة . وأوضح أن عملية تفتيت الصخر وتحلله من أهم العوامل التي تؤدى بطريق مباشر أو غير مباشر إلى انخفاض سطح الأرض Aufbereitung . ونتائج تفتيت أو تحلل الصخر إما أن تنقل بواسطة عوامل النقل المختلفة أو تترك في نفس الموقع الذى تحللت منه أو بجواره . وقد تكون حركة نقل أو سير المفتتات الصخرية بطيئة على شكل ما يسمى باسم زحف التربة وانسياب الغطاءات الطينية . Soil Creep, Mud Flow أو سريعة وتعرف في هذه الحالة باسم تساقط الأرض وانزلاقها Rockfall and Landslides وقد اهتم فالتر بنك بدراسة أثر كل من فعل التعرية ثانية في تشكيل انحدارات سطح الأرض من جهة ، وتأثير قوة الجاذبية الأرضية في نقل المفتتات الصخرية وانزلاقها على طول هذه الانحدارات من جهة أخرى ، وقد أوضح فالتر بنك آراءه وتفسيراته باستخدام رسوم توضيحية متعددة ، ولكن يؤخذ عليها أنها وضعت في أشكال هندسية فرضية ، وبنيت على استنتاجات خيالية وهمية . ولم يأخذ في الاعتبار كذلك أثر كل العوامل التحاتية المختلفة التي تدخل في تشكيل انحدارات سطح الأرض في المناطق المختلفة.

وعلى ذلك فلم يكن من الحكمة أن يرجع فالتر بنك مثلاً أن التراجع الخلفى لانحدارات سطح الأرض يتم في مراحل متتالية مكوناً في كل مرحلة سطوحاً

موازية لما سبقها من انحدارات وأن أثر فعل عوامل التعرية متساو ومتشابه على طول الأجزاء المختلفة من سطح الانحدارات .

وتبعاً لاهتمام فالتر بنك بدراسة ظاهرة أو ظواهر جيومورفولوجية محددة والتنقيب عن نشأتها ومراحل تطورها وذلك مثل ظاهرة الانزلاقات الأرضية ، وظاهرة زحف التربة ، أو أنماط الانحدارات المختلفة وتحديد العوامل التي تؤثر في تشكيل الظواهر الجيومورفولوجية ، وتؤثر في سرعة أو بطء تكوينها . فقد سلك بنك بذلك طريقاً آخر في الدراسة الجيومورفولوجية وهو المنهج الموضوعي » .

وفي نفس هذه الحقبة من الزمن (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ظهر في أمريكا كتابات وصفية تحليلية لبعض من الظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض بقلم رائد الجيومورفولوجيا الأول وليم موريس دافز (١٨٥٠ – ١٩٣٤) . وقد بلغ عدد المقالات الجغرافية التي نشرها هذا العالم خلال فترة حياته ما يزيد على ٣٠٠ مقالة كتبها بلغات مختلفة منها الإنجليزية ، الفرنسية ، الألمانية ، الإيطالية ، والإسبانية . وقد اهتم وليم موريس دافز بتوضيح العلاقة المتبادلة بين طبيعة التركيب الصخرى ونظام طبقاته من جهـــة وتنوع الظواهر الجيومورفولوجية من جهة أخرى . وبين كذلك أن الظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض لا تختلف فيما بينها من حيث المظهر أو النشأة فقط . بل إن الظاهرة الواحدة منها لا تتكون بنفس القدم أو المظهر وفي نفس الوقت فوق أجزاء سطح الأرض المختلفة . وعلى ذلك فقد بنى دافز نظريته المعروفة وهي الدورة التحاتية أو الدورة الجغرافية Geographical Cycle

وقد أوضح دافز أن لفعل التعرية النهرية دوراً كبيراً في نظام سير الدورة التحاتية نفسها . ففي المناطق ذات الأنهار النشطة التي تتميز بعظم نحتها الرأسي والجانبي يتآكل سطح الأرض بسرعة ، ويتعرض لعمليات التجزئة والتقسيم بواسطة الأودية النهرية العميقة ، وتتكون منطقة من سطح الأرض تتميز بوعورتها وشدة تضرسها . وقد أطلق دافز على مثل هذه المنطقة تبعاً لمظهرها الجيومورفولوجي بأنها في مرحلة الطفولة ؛ ذلك لأن فعل

عوامل التعرية مازال قوياً ولم يبق بعد المدى الذي يضعف فيه حتى تشيخ ظاهرات سطح الأرض وإلى أن تصل صورتها تقريباً إلى حالة شبه الثبات وتصبح بطيئة التغيير والتعديل . وعلى ذلك قسم دافيز مراحل تكوين ظواهر سطح الأرض وتطورها إلى :

(أ) مرحلة الطفولة — Young Stage

(ب) مرحلة الشباب — Mature Stage

(ج) مرحلة النضج — Old or Senile Stage

وقد تقسم كل من هذه المراحل الكبرى حسب تطورها الجيومورفولوجي إلى مراحل ثانوية هي Early, Mid or Late Stage

وقد بين دافيز كذلك أن [illegible] تساعد على إجراء عملية النحت الرأسي للمجرى بالإضافة [illegible] من رواسب هو تغير مستوى سطح البحر ، فإذا انخفض منسوب سطح البحر وتراجع الشاطئ يشتد فعل النحت الرأسي [illegible] إنما ستحاول بدورها أن تعمق مجاريها وتصل [illegible] تنخفض فيه منسوب سطح البحر ، [illegible] تعمق أوديتها ، وكذلك [illegible] جوانب [illegible] الأودية [illegible] النحت [illegible] lateral erosion [illegible] وقد عرف [illegible] مستوى القاعدة Base-level ، وكان من أهم الاكتشافات التي تطورت وعممت في التفكير الجيومورفولوجي [illegible] ولهذا فقد نص الباحث الأمريكي رسيل Russell [illegible] دافيز في [illegible] ١٩٠٤ أن المدرسة الجيومورفولوجية بعثت أو [illegible] من جديد بظهور نظرية التطور أو نظرية الدورة التحاتية : Geomorphology was vivified by evolution

من هذا العرض يتضح أن دافيز اهتم بتفسير ظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض ودراسة العوامل الجغرافية و الجيولوجية المختلفة التي أثرت

في تطورها ومراحل تكوينها . هذه العوامل جمعها دافيز في ثلاث كبرى هي :

(ا) طبيعة التركيب الصخري ونظام طبقاته Structure

(ب) عوامل التعرية Process

(ج) مراحل النمو Stage

ومراحل النمو هي في الواقع نتيجة للعلاقة المتبادلة بين أثر فعل عوامل التعرية في أنواع الصخور المختلفة . وبدراسة أشكال مراحل النمو ومعرفة العمر أو الزمن النسبي الذي تكونت فيه الظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض يمكن استنباط الشكل الأولي أو الصورة الأصلية لهذه الظواهر . أعني بدراسة الصورة الحالية لظواهر سطح الأرض يمكن للباحث أن يدرك ما إذا كانت الحالة التي عليها تلك الظاهرة الجيومورفولوجية شابة أو ناضجة وإذا كانت مثلا ناضجة فمن اليسير عليه كذلك أن يستنبط الحالات أو المراحل الأولية الأخرى التي مرت بها هذه الظاهرة إلى أن وصلت لحالتها الراهنة على سطح الأرض في الوقت الحاضر . ومن هنا دعم دافيز الأساس الهاطوني القائل «إن الحاضر مفتاح الماضي» من جهة ورسم معالم المنهج الوصفي الحقل التجريبي لظواهر سطح الأرض ، وتتبع مراحل تطور هذه الظواهر ونشأتها Genetic description من جهة أخرى . وقد أطلق بعض الكتاب على هذا المنهج من الدراسة اسم المنهج الوصفي الدافيزي .

المناهج الدراسية الحديثة في علم الجيومورفولوجيا

كان لكتابات كل من وليم موريس دافيز في أمريكا ، وجيمس هاطون في انجلترا ، وفالتر بنك في ألمانيا ، تأثيراً كبيراً في دفع عجلة المعرفة الجيومورفولوجية خطوات سريعة نحو التطور والتقدم وبفضلها أخذت تتغير مناهج الدراسة الجيومورفولوجية عما كانت عليه من قبل خلال مراحل نشأتها الأولى . وقد بذل كتاب هذا الجيل من الجهد الكثير في القيام بدراسة

سطح الأرض ومظاهره دراسة عملية كمية قائمة على أسس علمية سليمة كما اهتموا كذلك بدراسة أقاليم معينة من سطح الأرض وتحديد ظواهرها الجيومورفولوجية ومعرفة مدى اختلاف مظاهر السطح من إقليم لآخر. وعليه فقد تعرضت المناهج الوصفية الأولية للتعديل والتطوير، كما ظهر في الميدان بعض المناهج العلمية الجديدة، ساعدت بدورها على اتساع أفق الدراسة الجيومورفولوجية في الوقت الحالي. ويمكن أن نقسم هذه المناهج الحديثة إلى ما يلي :

(١) المنهج الأقليمي Regional Approach

المقصود بالمنهج الأقليمي هي الدراسة الخاصة لإقليم محدد من سطح الأرض وتمييز الظواهر الجيومورفولوجية التي تشكل سطحه وتفسير التوزيع الجغرافي لهذه الظواهر، وتتبع نشأتها ومراحل تطورها، ثم جمع هذه الظواهر وتقسيمها إلى أقاليم جيومورفولوجية ثانوية متباينة تختلف كل منها من حيث خصائصها ومميزاتها الجيومورفولوجية. وبإتباع هذا المنهج يتعرض الباحث لمشكلة هامة؛ وهي كيفية تحديد الإقليم نفسه والذي تخصه الدراسة. فقد قام بعض الكتاب مثلا بدراسة أقاليم معينة تميز حدودها وأبعادها اختلاف مظهرها الجيومورفولوجي العام عن الأقاليم الأخرى المجاورة لها. ومن هذه الأبحاث تلك التي أجريت لدراسة الإقليم السهول الوسطى، في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحديد صفاته الجيومورفولوجية وتقسيمه إلى أقاليم ثانوية تبعاً لاختلاف أشكالها ومظاهرها (١). هذا على الرغم من تضارب آراء الباحثين في تحديد أبعاد إقليم السهول الوسطى الأمريكية نفسه وكيفية تمييزه عن غيره من الأقاليم الجيومورفولوجية الأخرى. وهناك فئة أخرى من الكتاب قاموا بدراسة وحدات سياسية معينة، أو بمعنى آخر لم تكن الحدود الفاصلة للإقليم حدوداً طبيعية بل حدوداً سياسية قد لا تتمشى مع الاختلاف

(1) G. M. Lewis, "Changing emphases in the description of the natural environment of the American Great Plains area"

T. P. Institute of Brit. Geog., No. 30 (1962), 7-19

في المظاهر الجيومورفولوجية المختلفة للمنطقة . ولكن قسمت هذه الوحدة أو الوحدات السياسية إلى أقاليم جيومورفولوجية متباينة . ومن أقدم هذه الدراسات تلك التي قام بها الأستاذ فنيمان N. M. Fennemain في عام ١٩١٤م عند دراسته للأقاليم الفيزيوغرافية في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد سلك منهج فنيمان كل من ديزى G. F. Deasy في دراسة الأقاليم الجيومورفولوجية في شبه جزيرة ملايو عام ١٩٤٨ ، والأستاذ هاموند E. H. Hammond في دراسة الأقاليم الجيومورفولوجية في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٤ وكذلك ولاس W. H. Wallace في دراسة الأقاليم الجيومورفولوجية لنيوزيلند عام ١٩٥٥ .

ولم يكن أساس هذه التقسيم الجيومورفولوجية واحداً في كل منها ، بل اتبع كل باحث أسساً مختلفة في تصنيفه الأقاليم الجيومورفولوجية وفقاً لاختلاف مظاهر سطح الأرض وأشكاله من إقليم لآخر ، [illegible] فضلاً عن [illegible] كان [illegible] من [illegible] سمات الجيومورفولوجية ، [illegible] تشابه [illegible] الأجزاء المختلفة في الإقليم الجيومورفولوجي الواحد من جهة ، أو [illegible] المناطق الحدية Marginal areas التي تقع بين الإقليمين الجيومورفولوجيين [illegible] المختلفين المتجاورين من جهة أخرى .

وقد أكد الباحث فنيمان ١٩٤١ مثلاً أن التقسيم [illegible] على أساس الاختلاف في التطور الفيزيوغرافي (٢) تتفق [illegible] على أسس الاختلافات الطبوغرافية حيث إن هذه الاختلافات [illegible] وليدة التطور الفيزيوغرافي الذي تعرضت له مناطق سطح الأرض المختلفة

"A division based on "physiographic history" would agree in the main with one based on "topography" because the latter is the product of the former"

---

(١) يقصد فنيمان N. M. Fenneman بتعبير (التطور الفيزيوغرافي) هو أثر كل من التطور الجيولوجي والتقلبات المناخية التي تعرض لها الإقليم في تشكيل مظاهر سطح الأرض من جهة وتكوين أنواع مختلفة من التربة والغطاءات النباتية الطبيعية من جهة أخرى .

وقد اتفقت أسس تقسيم التي استخدمها ديزي G. F. Deasy عام ١٩٤٨ م فى دراسته للأقاليم الجيومورفولوجية فى شبه جزيرة منشوريا إلى حد كبير مع تلك التي رجحها فينمان فى أمريكا من قبل . وقام ديزي بتقسيم الأقاليم الجيومورفولوجية الكبرى إلى أقاليم ثانوية تبعاً لاختلاف شكل سطح الأرض ومظهره العام فى تلك الأقاليم المختلفة .

أما الأستاذ هاموند E. H. Hammond فقد أوضح أنه يقابل أيا من التقاسيم الجيومورفولوجية صعوبات عديدة أهمها جميعاً هي مشكلة مقياس رسم الخريطة (انظر فيما بعد) . وإذا وضعت الأقاليم الجيومورفولوجية على خرائط ذات مقياس صغير كان من العسير على الباحث أن يوضح كل التفاصيل التي يشاهدها فى الحقل وقد رجح هاموند عام ١٩٥٤ م أن أهم العناصر التي تشكل سطح الأرض وتميز بعضها عن الآخر هي : درجة انحدار السطح وأشكاله ، منسوب المنطقة بالنسبة لمستوى سطح البحر ، درجة تضرس المنطقة وأخيراً التركيب الصخري لقشرة الأرض . ووفقاً لهذه العناصر مجتمعة أمكنه أن يقسم أمريكا الشمالية إلى الأقاليم الجيومورفولوجية التالية :

١ — السهول المسطحة

٢ — السهول غير مستوية السطح .

٣ — سهول مسطحة تبرز منها بعض تلال منعزلة .

٤ — مناطق هضبية متقطعة

٥ — مناطق تلالية .

٦ — مناطق جبلية منخفضة .

٧ — مناطق جبلية مرتفعة .

٨ — قمم جليدية .

وقد اتبع الباحث ولاس W. H. Wallace عند تقسيمه الأقاليم الجيومورفولوجية فى نيوزيلند عام ١٩٥٥ م نفس الأسس التي بنى عليها

الأستاذ هاموند تقسيمه السابق من قبل ، مع إضافة بعض التعديلات الثانوية إليها . فقد أوضح والاس أن أهم ما يميز أقاليم سطح الأرض المختلفة هى العناصر العامة التالية :

(أ) الارتفاع أو منسوب السطح المحلى .

(ب) درجة انحدار سطح الأرض وأشكاله المختلفة .

(ج) شكل سطح الأرض ومظهره العام .

ويرجع الأستاذ ثورنبرى Thorobury فى عام ١٩٦٥ تقسيما آخر صنف بواسطته نماذج مختلفة من سطح الأرض فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان أساس هذا التقسيم ما يلى :

(أ) اختلاف التركيب الصخرى .

(ب) النظام الطبقى للصخور وأشكال الكتل الصخرية . ومدى تأثرها بفعل الحركات التكتونية .

(ج) التطور الجيومورفولوجى للمنطقة ، والدورة الحتاتية التى مرت بها

من هذا العرض يتضح أن الأقاليم الجيومورفولوجية فى منطقة واحدة قد تختلف فى أنواعها وصفاتها وفقاً للأسس المختلفة التى بنيت عليها تلك التقسيمات . وقد حاول بعض الكتاب ومنهم الأستاذ لنتن D. L. Linton عام ١٩٥١ أن يضعوا أسساً ثابتة لكى تستخدم فى تقسيم الأقاليم الجيومورفولوجية المختلفة وتمييزها فى العالم . كما حاول البعض الآخر الاستعانة بالدراسات الكمية الحسابية والرياضية فى استنباط المعلومات الخاصة عن ظواهر الجيومورفولوجية لسطح الأرض . ثم تصنيف هذه الظواهر وجمعها ووضعها فى أقاليم جيومورفولوجية متباينة قائمة على نتائج الدراسات الرياضية الحسابية . ومن أهم الأبحاث التى ظهرت فى هذا المجال هى تلك التى تقوم بها هيئة البحوث العلمية والهندسية التابعة لقوات الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية .

وتتلخص الصعوبات التي تواجه المنهج الإقليمي في الدراسة الجيومورفولوجية فيما يلي :

(أ) مشكلة التقسيم والتجميع :

على الرغم من أن أي باحث يضع عادة أسساً ثابتة محددة عند تقسيمه الأقاليم الجيومورفولوجية المختلفة فإن المميزات الجيومورفولوجية لكل من هذه الأقاليم قد لا تطابق تماماً الأسس التي أقام عليها الباحث تقسيمه ، أو ربما تتفق فعلا مميزات بعض أجزاء من الإقليم الجيومورفولوجي الواحد مع هذه الأسس الموضوعة . ولكن قلما نجد أن كل أجزاء الإقليم الواحد متشابهة كل التشابه . وكثيراً ما يصادف الباحث مناطق قد تكون صغيرة المساحة محدودة الامتداد ، ولكنها تتشكل بصفات ثانوية لا تتمشى مع الشروط العامة التي وضعت لتحديد إقليم جيومورفولوجي ما . وفي هذه الحالة يجد الباحث نفسه مضطراً خاصة تحت بعض الظروف إلى أن يعمم دراسته ويجمع كلا من هذه المناطق الثانوية الصغيرة ويعتبرها ضمناً بالأقاليم الجيومورفولوجية العامة المجاورة .

(ب) مشكلة المناطق الحدية :

يقصد بالمناطق الحدية هي تلك الأراضي التي تمثل صفاتها ومميزاتها مرحلة انتقالية ، وواقعة بين إقليمين جيومورفولوجيين مختلفين متجاورين . هذه المناطق قد تشابه كلا من هذين الإقليمين المتجاورين في بعض من صفاتهما الجيومورفولوجية . وبالتالي يصبح من العسير على الباحث أن يحدد إلى أي من الأقاليم يمكن إضافة هذه المناطق الحدية . ومن هنا ندرك كذلك أن الحدود الفاصلة بين الأقاليم الجيومورفولوجية المختلفة قد تكون في بعض الأجزاء حدوداً صورية . وليس حقيقة أن هذا الحد يفصل بين أراضي أو أقاليم جيومورفولوجية مختلفة عن بعضها البعض تمام الاختلاف .

(ج) مشكلة مقياس رسم الخريطة :

تختلف مدى كثافة المعلومات التي توضحها الخريطة تبعاً لاختلاف مقياسها . فإذا كانت الخريطة ذات مقياس صغير فإنه من الصعب أن يوضح عليها كل التفصيلات الثانوية التي دونها الباحث أثناء قيامه بالبحث الحقلي والعكس قد يكون صحيحاً . ومعنى هذا أنه حتى لو تمكن الباحث من أن يلاحظ كل المميزات الجيومورفولوجية للأقاليم المختلفة أو أجزاء الإقليم الواحد ، فقد يكون عسيراً أن يصورها تماماً على الخريطة في حالة ما إذا كانت الأخيرة ذات مقياس صغير .

(٢) المنهج الرياضي أو الكمي Quantitative Approach

تواجه كل من الدراستين الجيومورفولوجية الوصفية والإقليمية في الوقت الحاضر نقداً شديداً من بعض الباحثين والكتاب الذين اهتموا بدراسة العوامل الجغرافية دراسة تفصيلية قبل أن يشيروا إلى أية نتائج خاصة بأصل الظواهر الجيومورفولوجية المختلفة وتكوينها ونشأتها وتطورها . وتبعاً لآراء هذه المجموعة الأخيرة من الكتاب فإنه يصبح من الصعب تتبع أصل ظاهرة جيومورفولوجية ما أو تحديد عمرها طالما أن العوامل الجغرافية المختلفة التي أدت إلى تكوينها لم تدرس دراسة كاملة كمية . هذا فضلاً عن أن الدراسة الجيومورفولوجية الوصفية تتأثر كيفيتها تبعاً لمدى خبرة الباحث القيام بالعمل الحقلي . كما قد نوصف مزايا بعض الظواهر الجيومورفولوجية وتحدد نشأتها وتطورها وفقاً لما يعتقد الباحث أن يكون بدلاً من الواقع فعلاً . وعليه، فقد اعترض بعض الباحثين على مناهج الدراسة الوصفية الكيفية ورجحوا بأن هذا الوصف يجب ألا يعتمد على خبرة الباحث في الحقل فقط ، بل يجب أن يعتمد كذلك على أسس الدراسة الرياضية الكمية ولأثر فعل كل من عوامل التعرية المختلفة في الحقل . هذه الدراسة تعرف باسم :

Statistical or Morphometric analysis

وباستخدام هذه المبادىء أو المناهج الجديدة في الدراسة الجيومورفولوجية تصبح النتائج الدراسية علمية محددة Quantitative بدلا من كونها دراسات وصفية عامة Qualitative وقد أوضح الأستاذ ديورى Dury, G. H. عام ١٩٥١ أن تعبير « الدراسة الرياضية Morphometric Analysis » تعبير جامع مانع يدخل ضمن معناه عدة دراسات حسابية أخرى هي :

(أ) دراسة عناصر سطح الأرض Geometric analysis

(ب) دراسة العلاقة بين كل من مساحة المنطقة ومنسوبها Arithmetric analysis

(ج) دراسة أنواع تضاريس سطح الأرض وتحديد كل مجموعة منها بالنسبة لمساحة المنطقة Volumetric analysis

(د) دراسة انحدارات سطح الأرض Clinometric analysis

ويتضح أن من نتائج المنهج الرياضي في الدراسة الجيومورفولوجية قد يستطيع الدارس أن يجري أي من هذه الدراسات بدقة أو كمياً .

ومن أهم الأبحاث الجيومورفولوجية الرياضية التي أجريت في الآونة الأخيرة هي تلك التي أصدرها ونشرها ديفيز بحوث البحرية والهندسية التابعة للقوات المسلحة العسكرية . وقد خصصت هذه الأبحاث بدراسة تحليل عناصر سطح الأرض خاصة في المناطق الصحراوية من أمريكا الشمالية . ويعتبر رائد المنهج الرياضي في الوقت الحاضر في أمريكا ستريلر A. N. Strahler الذي يعد حقيقة مؤسس المنهج الرياضي الحديث في علم الجيومورفولوجيا ومن أشهر مؤيديه في هذا الميدان كذلك روبرت هورتون الذي ظهرت سلاسل أبحاثه بعد عام ١٩٤١ . أما في انجلترا فمن أشهر مؤيدي المنهج الرياضي في الدراسة الجيومورفولوجية الأستاذان ديورى G. H. Dury, 1951 وكورلى R. J. Chorley, 1958

وقد جاء في الدراسات التي قامت بها هيئة البحوث العلمية والهندسية التابعة لقوات الولايات المتحدة العسكرية بتحديد عناصر سطح الأرض ودراستها دراسة تحليلية رياضية واقتراح عدة معادلات توضح العلاقة المتبادلة بين أثر فعل عوامل التعرية وظاهرات سطح الأرض . ومن أهم عناصر سطح الأرض التي أشاروا إليها في دراساتهم هي :

١ ـ درجة تضرس سطح الأرض :

ويقصد بذلك العلاقة بين أشكال مظاهر سطح الأرض وامتدادها بالنسبة إلى المساحة الكلية للإقليم . وهذه يمكن الحصول عليها بمعرفة مدى تقارب أو تباعد السلاسل الجبلية والحوائق النهرية عن بعضها البعض . وبالتالي قد تقسم سطح المنطقة من حيث درجة التضرس إلى :

(أ) منطقة شديدة التضرس Coarse grain

(ب) منطقة بسيطة التضرس Fine grain

٢ ـ السطح المحلي Local Relief : ويقصد به كل من :

(أ) متوسط منسوب أجزاء المنطقة بالنسبة لمستوى سطح البحر .

(ب) البعد الرأسي بين كل من أعلى منسوب للمناطق الجبلية المرتفعة وأقل منسوب للمناطق السهلية المنخفضة في الإقليم بالنسبة لمستوى سطح البحر .

٣ ـ معدل ارتفاع المنطقة Elevation relief ratio

وتشمل نسبة أجزاء كل من المناطق الجبلية المرتفعة والمناطق السهلية المنخفضة في الإقليم وتوضحها المعادلة الآتية :

$$م\ س = \frac{م - ق}{س}$$

حيث إن :

م س = معدل ارتفاع المنطقة .

م = متوسط ارتفاع المنطقة .

ق = أقل منسوب فى المنطقة .

س = السطح غنى (البعد الرأسى بين كل من أعلى وأقل منسوب فى المنطقة) .

٤ ـ متوسط انحدار سطح المنطقة Average Slope

ويقصد به متوسط انحدار سطح المنطقة محسوباً بالنسبة إلى الامتداد الأفقى . ويمكن إيجاد هذا المتوسط بطريقة حسابية بسيطة وذلك بعمل عدة قطاعات فى اتجاهات متعددة على الخريطة ثم يحسب عدد خطوط الكنتور التى تمر بهذه الخطوط وبالتالى يمكن إيجاد متوسط انحدار سطح باستخدام معادلة وينتورث Wentworth Equation وهى :

$$ظح = \frac{ف \times ع}{٣٣٦١}$$

حيث إن :

ظح = ظل زاوية الانحدار .

ف = الفاصل الرأسى بين خطوط الكنتور محسوباً بالأقدام" .

ع = عدد خطوط الكنتور التى تمر بخطوط القطاعات فى كل "ميل" .

أما الباحث روبرت هورتون فقد اهتم بدراسة التصريف النهرى وجيومورفولوجية الأودية النهرية ، مستعيناً فى ذلك بنتائج المنهج الرياضى . ومن أهم أبحاثه تلك التى ظهرت فى عامى ١٩٤١ ـ ١٩٥٠ . وقد أوضح هورتون بأن المجارى النهرية يمكن أن تقسم إلى مجموعات مختلفة تبعاً لصلتها المباشرة أو غير المباشرة بمجرى النهر الرئيسى . وعلى ذلك فقد قسم مجارى الأنهار فى منطقة ما إلى :

مجرى النهر الرئيسي ــ أنهار المجموعة الأولى ــ أنهار المجموعة الثانية ــ أنهار المجموعة الثالثة ــ أنهار المجموعة الرابعة ــ وهكذا .. ويقصد بأنهار المجموعة الأولى هي تلك الروافد التي تصب مباشرة في النهر الرئيسي . أما أنهار المجموعة الثانية فهي مجموعة الروافد التي تصب في مجارى أنهار المجموعة الأولى مباشرة وتغذى النهر الرئيسي بطريق غير مباشر . وعليه تمكن هورتون من استنباط ما أسماه بتعبير (نسبة امتداد مجموعات المجاري النهرية) Bifurcation Ratio وتحصل على هذه النسبة بمعرفة نسبة عدد المجاري النهرية بين مجموعتين نهريتين مختلفتين أو أكثر . فقد يقال مثلا ان نسبة أنهار المجموعة الرابعة إلى المجموعة الثالثة إلى المجموعة الثانية هي : ٦ : ٤ : ٢ ومعنى هذا أنه يعنى حوض هذا النهر عدد كبير من الروافد والمسيلات الجبلية القصيرة والتي تصب بدورها في الروافد الثانوية للنهر الرئيسي . وتدل هذه النسبة كذلك على أن كثافة التصريف النهرى (أنظر أسفله) في المنابع العليا من حوض النهر كبيرة . وتبعاً لقلة عدد المجارى النهرية تقل الكثافة النهرية في جزءه الأوسط والأدنى من حوض هذا النهر . وقد تقارن المجموعات النهرية المختلفة ليس فقط تبعاً لأعداد مجاريها ولكن كذلك حسب اختلاف أطوالها . وهذا ما أطلق هورتون عليه تعبير «اختلاف نسبة أطوال المجارى النهرية Length Ratio

ووفقاً لمدرسة هورتون فإن كثافة التصريف النهرى في منطقة ما Drainage density عبارة عن الطول الأجمالى للمجارى النهرية في حوض النهر (محسوبة بالأميال مثلا) ومقسومة على مساحة هذا الحوض (بالأميال المربعة) كما توضحها المعادلة الآتية :

$$ك ص = \frac{ل}{م^2}$$

حيث إن :

ك ص = كثافة التصريف النهرى .

ل = الطول الاجمالى للمجارى النهرية فى حوض النهر (بالأميال مثلا) .

م٢ = مساحة هذا الحوض (بالأميال المربعة) .

أما الباحث الأمريكي شترهلر فهو مؤسس المنهج الرياضي في علم الجيومورفولوجيا . وقد طبق آراءه فى مقالات متعددة اختصت بدراسات تحليلية حسابية لظاهرات سطح الأرض المختلفة ، وتمييز درجة انحدارات سطح الأرض وأشكال التضاريس والتصريف النهرى ، ومن هذه المقالات تلك التى ظهرت فى أعوام ١٩٤٩ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٨ .

ويجب أن نشير كذلك إلى أن نتائج المنهج الرياضى ليست صحيحة تماماً بل هى أيضاً تشبه الدراسة الوصفية الكيفية فى عموميتها . وقد تعرض منهج الكيفى فى الدراسة الجيومورفولوجية للنقد الشديد خاصة فى كتابات الباحث الانجليزى كلارك J. I. Clarke عام ١٩٥٨ . ويتساءل هذا الباحث فى كتاباته عن العناصر الأساسية التى تقوم عليها الدراسة الرياضية الحسابية ويجيب نفسه بأنها تشمل :

(أ) الخريطة الكنتورية الدقيقة .

(ب) تعيين مناسيب الأراضى المختلفة لسطح الأرض وتحديد اتجاه الانحدار الفعلى ودرجاته .

(ج) استخدام القوانين والمعادلات الرياضية .

ويضيف كلارك أن كلا من هذه العناصر لا يمكن أن تمد الدراسات الجيومورفولوجية بنتائج صحيحة تماماً ولا يستبعد أن يشوبها أى تعميم ذلك لأن المعلومات التى توضحها الخريطة الكنتورية تختلف فى كل منها تبعاً لاختلاف مقياس رسم الخريطة . كما تختلف أشكال الخرائط التوضيحية حسب المساقط التى استخدمت فى إنشائها . ومن الصعب كذلك تحديد المنسوب الحقيقى

وابراز أبعادها وأشكالها باستخدام الستريومتروجراف Stereometrograph من وسائل الدراسة الحديثة فى الوقت الحاضر وتبرز أهمية استخدام الصور الجوية خاصة عند القيام بدراسة مناطق تبعد كثيراً عن مركز إقامة الباحث . مما يجعل من الصعب له الوصول إلى الحقل باستمرار . وبهذا تعتمد الدراسة الجيومورفولوجية فى كل من المناطق الصحراوية وكذلك فى المناطق الجليدية فى الوقت الحاضر عادة على أساس المعلومات والنتائج المستمدة من تفسير الصور الجوية . وفى المناطق القريبة للمواصلات والقريبة من مركز إقامة الباحث قد يلزم الأمر كذلك استخدام الصور الجوية فى دراسة ظواهر جيومورفولوجية معينة . فمن الصعب مثلا أن يقوم الباحث برسم ظواهر الجيومورفولوجية الثانوية الناشئة عن فعل الانزلاق الأرضى Landslides وتحديد الحدود الأرضية لها فى الحقل ويمكن التغلب على مثل هذه الصعوبات باستخدام الصور الجوية وتفسير محتوياتها . ودراسة الظواهر الجيومورفولوجية فى مراحلها فى دور التكوين فى الوقت الحاضر يحتاج دراستها كذلك باستخدام الصور الجوية حتى يمكن عمل دراسات مقارنة لتتبع التغير الذى حدث وما قد يحدث بين كل عام وآخر فى الشكل العام لهذه الظواهر . وثمة قوى بالبحث الحقلى لدراسة الظواهر الناشئة عن عمل الانهيارات الأرضية كان من العسير وضع هذه الحدود على حرائط وتحديد أشكالها المختلفة بواسطة العمل فى الحقل وحده . ولكن بمراجعة الصور الجوية وتفسيرها أمكن عمل خريطة توضح معظم الظواهر الموجودة فى هذه المنطقة انظر شكل (٣) .

وخلاصة القول يمكن أن نحدد قيمة استخدام الصور الجوية فى الدراسة الجيومورفولوجية فى النقاط التالية :

١ — توضح الصور الجوية صورة عامة لإقليم الدراسة وبواسطة استخدام الفحص الاستريوسكوبى تظهر الظواهر الجيومورفولوجية بصورة مجسمة A three dimensional view .

٢ – حيث إنه يمكن فحص عديد من الصور الجوية فى وقت واحد فإنه قد يمكن بالتالى كذلك تحديد توزيع الجغرافى لبعض الظواهر الجيومورفولوجية التى تهم البحث فى أجزاء المنطقة العظيمة الامتداد ، كما أنه يصبح من السهل تحديد معالم هذه الظواهر وتمييز أشكالها واختلاف طبيعتها من منطقة إلى أخرى .

٣ – من السهل عمل مقارنة شاملة بين كل من التركيب الصخرى من جهة وظواهر سطح الأرض ونوع الغطاءات النباتية وتكوينات التربة من جهة أخرى .

٤ – عند فحص الصور الجوية ، ودراسة النقاط التى تخص الباحث فى الدراسة من السهل عليه بالتالى تحديد ما يريد أن يقوم بعمله فى الحقل فى المستقبل . أو بمعنى آخر يمكنه أن يضع تخطيطاً عاماً للخطط التى سيقوم بعملها فى الحقل مستقبلا .

٥ – يمكن للباحث أن يستخدم الصور الجوية عدة مرات فى نفس المكان دون أن يكلف نفسه مشقة تعب السفر والارتحال إلى المكان المقصود بالدراسة .

٦ – توفر طريقة استخدام الصور الجوية التكاليف التى تصرف عادة على المواصلات والبحث فى الحقل كما توفر للباحث كذلك وقتاً طويلا وجهداً كبيراً يستنفد منه خلال إجراء العمل الحقلى .

ولكن تجدر الاشارة إلى أن استخدام الصور الجوية فى تفسير الظواهر الجيومورفولوجية المختلفة يجب أن تستخدم جنباً إلى جنب مع دراسات البحث الحقلى . وأن يستفيد الباحث من كل هذه الوسائل العلمية فى استيعاب مادته وجمع المعلومات التى تخص دراسته .

وتؤخذ كل مجموعة من عـ
وباستعمال الآلـ

Horton, R. E. "Hydrophysical approach to quantitative morphology". Bull. Geol. Soc. Amer., vol. 56. (1941), 275 — 370.

Horton, R. E., "Erosional development of streams and their drainage basins, Hydrophysical approach to quantitative morphology". Bull. Geog. vol. 41. (1950), 209.

Linton. D. L., "The delimitation of morphological regions". London Essays in Geography, Editors, O. Stamp. and S. W. Wooldridge, (1951), 199 — 217.

Mackintosh, D.E., "The relative extent of atmospheric and oceanic denudation". Adva. of Sci. (1865), 65 — 66.

Maw, G., "Notes on the comparative structure of surfaces, produced by subaerial and marine denudation". Geological Mag., vol. 3 (1866), 439 — 451.

Penck, A, "Morphologie der Erdaberfläche". Pub. Stuttgart, J. Engelhorns, (1894).

Penck., W., "The morphological analysis of landforms" Translated by Hella Czech and Katherine C. Boswell., London (1953).

Philips, J., "The rivers, mountains and Sea — coast of Yorkshire London (1853).

Stamp, D. L., "A glossary of geographical terms" Longmans, London (1961).

Strahler, A. N., "Recent developments in the quantitative analysis of erosional landforms". Ann. Assoc. Amer Geog., vol. 39 (1949) 65.

Strahler, A. N., "Statistical analysis in geomorphic research." Journal of Geology, vol. 62. No. 1. (1954).

Strahler, A. N., "Basic principles of quantitative geomorphology" Ann. Assoc. Amer. Geog., vol. 46. (1956), p. 275.

Strahler, A.N., "Dimensional analysis applied to fluvially eroded landforms". Bull. Geol. Soc. Amer., vol. 69 (1958), 279 — 300

Thornbury, W. D., "Principles of geomorphology". Wiley, New York, (1958).

Thornbury, W. D., "Regional geomorphology of the United States. J. Wiley and Son, New York, (1965).

Tiddemann, K. H., "The valleys of Lancashire". Geological Mag., vol. 5. (1868), 39 — 40.

Wallace, W. H., "Newzealand Landforms". Newzealand geographers, vol. II. No. 1. (1955) p. 17.

Whitaker, W., "On subaerial denudation". Geological Mag. vol. 4 (1867), 327 — 328.

فن الشعر لهوراتيوس

بحث وترجمة

فاطمة سالم سيف

النقد الأدبى

لن نعنى بتعريف النقد الأدبى تعريفاً يحدد ماهيته ويكشف عن وظيفته فإن الباحثين فى النقد الأدبى يختلف تعريفهم له اختلافاً يحدده تطور الثقافة واتساع المعرفة وتبصر الناقد بالأساليب الأدبية على اختلاف ضروبها وألوانها . ومن هنا كان .

وما دمنا نتحدث عن تاريخ النقد فى العالم القديم فإن دقة البحث وعمقه يقتضيان أن ندرك شيئاً ما عن ماهية النقد عند القدماء ووظيفته بين النقاد منهم . ولا نكاد نظفر بتعريف له فيما خلفوه من آثار أدبية غير أن مجموعة النظريات التى جاءت أثناء بحثهم ودراساتهم قد تحدد النقد الأدبى تحديداً يكشف عن إحساسهم بالجمال ، وتقديرهم له [illegible] النص الأدبى جديراً بالتقدير مؤثراً فى النفس ، مثيراً لمعانيه المختلفة والإحساسات المتعددة ؛ ومن هنا لم يكن النقد الأدبى عندهم علماً مستقلاً أو فرعاً من الدراسات متميزاً بل كان نتاجاً فرعياً لعلوم مختلفة لها مساسها بالحركة الفكرية كالفلسفة والبلاغة وعلم النحو إلى آخر ذلك . لذا نجد النقد فى عصره القديم الأول إشارات عابرة فى كتابات هوميروس وهسيودوس كما نلمسه فى الأحكام الأدبية التى تصدر فى الإنشاد والمباريات الغنائية التى أصبحت وسيلة فنية معترفاً بها أيام هسيودوس ثم نراه فى صورة مناقشات عن وظيفة الشعر وأهدافه ، هل هو للمتعة كما يعتقد هوميروس أم هو للتعليم والنفع كما يراه هسيودوس .

وفى القرن السادس ق. م تطور النقد تطوراً يتجاوب مع تقدم الفكر اليونانى فهو ثورة فكرية قام بها الفلاسفة الأيونيون تزعمها الشاعر الفيلسوف

كسينوفانيس الكولوفونى ضد أساطير هوميروس التى تنسب إلى الآلهة والآلهات كل رذائل الإنسان فهو لذلك ملحد ولابد أن يعاقب على إلحاده . وقام تطاحن بين الفلسفة والشعر فأنتج الرمزية التى حاول بها بعض الشعراء والفلاسفة إصلاح ذات البين وتفسير الأساطير عما تتضمنه من معنى باطنى فعراك الآلهة مثلا يرمز إلى الصراع بين الخير والشر وسهام أبولو ترمز لأشعة الشمس .

ثم ازدهر الأدب فى القرن الخامس ووصل إلى قمته ودرس الشعر كفن وقام بنداروس يتحدث عن قوانين الفن ،وقوانين الترتيل ويصدر أحكاماً على القيم الخاصة بالإلهام وبفن الشعر فالشاعر يرتكز على الإلهام والموهبة الطبيعية أما الفن فهو عديم الفائدة فى نظره .

وقام شعراء الكوميديا ينتقدون التقاليد والسياسة والأدب والفن والدين ويصدرون أحكامهم على المسائل العامة المحيطة بهم وأخذ السوفسطائيون أمثال جورجياس يدرسون الخطابة والبلاغة كل هذا ساهم مساهمة فعالة فى التمهيد لظهور النقد كعلم مستقل .

وتتحدد البداية العلمية الجدية للنقد بمسرحية الضفادع لأرستوفانيس التى تتلخص فى أن ديونيسوس إله المسرح صمم على الذهاب إلى عالم الآخر ليعود بشاعر مأساة إلى الأرض يعيد إلى المأساة مجدها الضائع فقصد بلوتو وعلم منه أن مناظرة توشك أن تتم بين أيسخيلوس ويوريبيديس من أجل ارتقاء عرش المأساة وما أن بدأت المناظرة حتى أرهف ديونيسوس السمع وتملكته الحيرة للهجوم الذى كان يشنه كل من الشاعرين على الآخر وكان على ديونيسوس أن يصدر حكمه ويفضل أحد الشاعرين وجئ بموازين ووزنت أشعار المتناظرين وهنا رجحت كفة أيسخيلوس ومع ذلك ظل تردد ديونيسوس فى النطق بالحكم فهو يعجب بيوريبيديس أيضاً وأخيراً فضل أيسخيلوس على يوريبيديس ورجع إلى سطح الأرض فرحاً مسروراً .

ثم جاء أفلاطون ولعب دوراً هاماً فى تاريخ النقد فهو صاحب النظرية المثالية فى الفلسفة التى حاول بها أن يفسر ظواهر الوجود المختلفة وبظهور أفلاطون بهذه النظرية الجديدة وبتطور فن النثر نجد مرحلة جديدة فى تاريخ

النقد. فقد ظهرت في كتابته لأول مرة مجموعة من القواعد الأساسية التي تحدد طبيعة الشعر ووظيفته كما تتناول الفن وتكشف عن جوهره .

ولعل هذه الأصول النقدية التي تطورت عند أفلاطون والتي ضمت كثيراً من تجربته الفلسفية والنفسية فزادتها عمقاً وأصالة ، كان لها أثرها في تلميذه أرسطو وعليها اعتمد في كتابه فن الشعر . وقد حاول أرسطو في هذا الكتاب أن يحدد طبيعة الشعر ووظيفته الجمالية وأثره النفسي كما أنه تحدث فيه عن أنواع الشعر كالمأساة والملهاة مبيناً أصول كل منهما وإن كان قد [illegible] وجوانبها المتعددة [illegible] أرسطو ثمرة [illegible] الناضجة وتجاربه [illegible] الأدبية [illegible] السياسية [illegible] الجديدة [illegible] الشعر والنقد [illegible] إلى [illegible] الإسكندرية [illegible] .

[illegible] في ذلك [illegible] كتب مفقودة [illegible]

[illegible] المذاهب [illegible] المفكر في هذا العصر إلى [illegible] لمكتبة الإسكندرية كما اتجه إلى إثبات مذاهب [illegible] أنواع معينة من الأدب [illegible] والإبداعات(?) وإلى اكتشاف [illegible] في الأساطير فكان عصر

ازدهار للنحاة والشراح واللغويين . وقد تزعم كاليماخوس مدرسة الشعر فى الإسكندرية كما تزعم حركة النقد فيها وقد امتاز بآرائه الأدبية التى جاهر بها وأعلنها فى الناس وكان من رأيه أن يدع الشعراء فن الملاحم وأن يتجهوا إلى القصيدة القصيرة بنوع خاص وألا يسرفوا فى المحاكاة بل عليهم أن يعنوا بصقل ما أنتجته قرائحهم حتى يتوافر لإنتاجهم عنصر الأصالة . ومن أشهر أقوال كاليماخوس فى النقد « إنى أكره القصيدة الطويلة وأكره الطريق العام الذى سلكه كل فرد . والكتاب الكبير عبء فى الواقع » .

واشتهرت فترة العصر المتأغرق أيضاً بنشر نصوص هوميروس ونقدها ونصوص كتاب المسرحية والشعر الغنائى ومن أهم العاملين فى هذا الحقل أراتوسثنيس وأريستوفانيس البيزنطى وأرستارخوس وزنودوس وغيرهم من معاصرى زينودوتوس المتأخرين . ولا نغفل أيضاً زوينوس رجل البلاغة والنقد الذى اكتسب شهرة واسعة فى دراسته لهوميروس ونقده له على ضوء العصر الهوميرى وقد كان هذا العصر عصر شجار بين القديم والحديث ، ورغم أن فهم معناه له غير واضح المعالم إلا أنه يكون مرحلة توحى بنتائج هامة لتاريخ نقدى متأخر .

بعد موت ثيوفرستوس عام ۲۸۷ ق. م. انتقلت مؤلفات أرسطو إلى تلميذ له أخفاها فى كهف حتى لا تمتد إليها يد آل أتالوس الذين اتصفوا بجنون الكتب وظلت هذه النصوص غير معروفة حتى عام ۱۰۰ ق. م. حين اكتشفت ونقلت إلى أثينا وظلت هناك حتى نقلها سلا إلى روما عام ٨٦ ق. م. ثم أخذ المشاءون يفتنون ويعددون بطريقتهم الخاصة النظام الذى كان قد حدد معالمه أرسطو .

ويمكن الوقوف على مدى تحول النقد فى مرحلته الثانية من كتاب فن الشعر للمشائى نيوبتوليموس البارى الذى اكتشفت آراؤه حديثاً فى أجزاء من بردى محروقة والذى تأثر به الفيلسوف الأبيقورى فيلوديموس وقد تناول موضوع الشعر بطريقة منهجية تحت رءوس الموضوعات الآتية : (فن الشعر

القصيدة – الشاعر) وقد عرض الأدب فى هذا الكتاب عرضاً متزناً وتناول أنواع الشعر القديم والخصائص المميزة له وأصوله وناقش بعض القضايا الأدبية مثل أيهما أكثر أهمية للشاعر . أهى الفكرة أو الأسلوب وبالتالى ماهدف الشاعر أو الأديب أهو التعليم أو المتعة ؟ وهو فى كل هذا يبين الوسائل التى تعين الشاعر أو الأديب على بلوغ الغاية من فنه ، وقد أثبت هذا الكتاب كما أثبتت آراء فيلوديموس الذى تأثر به أن ما وصل إليه اليونان القدماء من فنون الشعر المختلفة لن يخضع لتغيير جوهرى أو تبديل بل إنها نماذج ثابتة قوية ينسج الأديب على منوالها ويحتذى آثارها . وبعض القضايا الكبرى التى أثارها القدماء مازالت تناقش اليوم فى مصادر النقد الأدبى فى العصر الحديث منها هدف الشاعر ووظيفة الشعر . وعلى العموم وجه النقاد والأدباء همهم إلى صيانة التراث اليونانى القديم وخصوصاً التراث الفنى وشرحه والتعليق عليه وضبط نصوصه .

تلك هى الملامح العامة لحياة النقد الأدبى عند اليونان وهى التى تركت أثرها فيما بعد فى النقد العربى حين ترجم بعض هذا التراث إلى اللغة العربية فى العصر العباسى وتأثر به الأدباء العرب واتبعوا نهجه وأقاموا أحكامهم النقدية والأدبية على هدى منه ثم انتقل ذلك التراث إلى الغرب فأحيى من جديد .

ولم ينته النقد الأدبى من حيث هو فن له أصوله وقواعده فى العالم القديم بانتهاء العصر الاغريقى بل إن حياته امتدت وتطورت تطوراً ملحوظاً عند الرومان وهم ورثة الحضارة الإغريقية وحفاظها .

ولو أن الباحث فى تاريخ النقد فى هذه الفترة أراد أن يتحدث عن ملامحه العامة ويكشف الإضافات الجديدة التى أضيفت إلى التراث القديم لوجد أن النقد اتجه وجهة أخرى تبعاً لنوع الثقافة وطبيعة الحياة الأدبية والفكرية التى كان يعيشها الرومان . والمعروف أن الرومان لم يكن لهم استعداد قوى للدراسات الفلسفية كذلك الاستعداد الذى وجدناه عند اليونان ولكنهم

مع ذلك يمتازون بعقلية قانونية قادرة على تشكيل الموضوع تشكيلا له قواعده وأصوله المنضبطة المحدودة ومن هنا اتجه الرومان إلى تقنين النقد الأدبي مترسمين فى إنتاجهم الفنى آثار اليونان القدماء .

ويعرف هذا العصر لافى تاريخ النقد وحده بل فى جميع مظاهر الحضارة الرومانية بالإغريقى الرومانى فبعد أن صارت روما سيدة البحر الأبيض واتصلت بالفكر اليونانى وحضارته انتقلت مراكز الثقافة من الإسكندرية وغيرها من مراكز العصر المتأغرق إلى روما فسيادتها ساعدتها على تبوء هذا المركز الممتاز .

وقامت حركة النقد على يد الفلاسفة أمثال بنايتيوس الذى ناقش الأساليب المختلفة ما هو مباشر وما هو صنعة وخصائص كل منهما وما يمت إليهما من قضايا أدبية ونحوية ولغوية كما أسهم فى بلورة النقد مؤرخو هذه الفترة أمثال بوليبيوس وكتاب المسرحية أمثال ليفيوس أندرونيكوس ونايفيوس وبلوتوس وترنتيوس الذين ساروا على نهج الملهاة الإغريقية فى أداء رسالتهم من نقد اجتماعى وأدبى وسياسى وقد عرض النقد السياسى البعض منهم للنفى كما حدث لنايفيوس . فلم تكن الجمهورية تسمح فى ذلك الوقت بالتعرض لتقاليدها ونقد رجالاتها ، وعلى الرغم من هذا لم يقف كتاب الملهاة عاجزين بل لجأوا إلى البالياتا ينفذون من خلالها إلى أهدافهم .

ويتميز ترنتيوس من بين هذه الأسماء بأنه نقد الأساليب الجوفاء فى عصره وثار على الترجمة الحرفية للملهاة الإغريقية وثار على الغموض الذى كان يعترى بعض المسرحيات نتيجة حرفية النص وطور الملهاة تطويرا لم يعرفه الرومان من قبل . وبهذه الملاحظات وغيرها ألف ترنتيوس ما يشبه نظرية متكاملة فى النقد الأدبى وهى نظرية تكشف عن القواعد والأحكام المتصلة بفنه باعتباره شاعرا من شعراء الملهاة المجددين فيها .

هكذا نرى مولد النقد الرومانى حتى جاء شيشرون . وقد كان موضوع النقد فى هذه الفترة يتصل بالخطابة وقد ترك شيشرون أبحاثاً متفرقة عن هذا

الفن إذ كان خطيباً يعالج هذه الصناعة ويفتن فيها وهو فى أبحاثه لم يقنع بالقواعد المدرسية الجافة وإنما اتجه إلى دراسة الأصول كأفلاطون وأرسطو وثيوفراستوس وغيره من فلاسفة الإغريق وخطبائهم وحاول أن يهتدى بأعمالهم وآثارهم ولكنه فى الوقت نفسه حاول التجديد والتبسيط وهو يحاول فى دراسته المتعددة أن يتبع القواعد وعدد الأصول التى يتوافر بها للخطيب البراعة والقدرة على اجتذاب الجماهير فضلا عن أن الخطابة وسيلة ناجحة لعرض مظاهر النشاط الفكرى وهو لذلك يؤكد أن لغة الكلام هى الفيصل بين الإنسان والحيوان وأن القدرة على الإقناع هى التى منحت الإنسان حياة أفضل من ناحية إقامة حياة مدنية منظمة تحرسها القوانين والشرائع . ولم ينس شيشرون أن يربط بين جمال الأسلوب ووضوح الفكرة وهو يرى أن الفصاحة تكون دائماً نتاج الترابط بين هذا الجمال والوضوح على أنه يرى أيضاً أن الفكرة يجب أن تسبق الكلام من ناحية ترتيبها والتأمل فى مضمونها ثم إنه يؤكد أن نجاح الخطيب يتوقف على إدراكه طبيعة النفس الإنسانية ودراسة ميولها ورغباتها حتى تكون لغة الخطيب متسقة مع عواطف الناس وإحساساتهم وحتى ينجح الخطيب فى إثارة الناس وإذكاء حماسهم لما يقول وانفعالهم به واستجابتهم له . وعلى ذلك حدد شيشرون واجب الخطيب فى ثلاث كلمات وهى أن « يمتع ويعلم (١) ويثير » . كذلك يقرر أن نجاح الخطيب وبراعته تتوقفان على توافر الملكة والقدرة الطبيعية وهذه الملكة فى رأيه يمكن أن تصقل وتهذب بالمران والتدريب و ... الخبرة الأصيلة وقد تأثر فى هذه النظرية بأفلاطون وبغيره من قدامى اليونان ولم يقف تأثره عند هذا الجانب بل تعداه إلى ما يجب أن يكون عليه سلوك الخطيب وهو أنه يجب عليه أن يضمن فى خطابته النزاهة والبراعة . وكان ما دفع شيشرون إلى إثارة كل هذه النظريات حول الخطابة وأصولها وتأثيرها فى النفس . وصفات الخطيب وثقافته ، أن يعمل على تهيئة الظروف الممكنة لأن يكون الخطيب بالغاً القمة فى فنه فكان يهدف إلى الجانب المثالى من الخطابة .

راجع :

(١) Cicero, De optimo genere oratorum, 3, (optimus est enim orator qui dicendo animos audientium et delectat et docet et permovet.

وبهذه الدراسات المختلفة احتل شيشرون مركزاً (١) كبيراً فى حياة النقد الأدبى على العموم وفى حياة النقد الأدبى الرومانى على الخصوص كما أنه كان من أكبر الداعين إلى دراسة الأدب اليونانى فى مهده الأول دون العصر المتأغرق ، وبهذه النظرة بدأت دعوة جديدة إلى إحياء التراث اليونانى القديم ومحاكاته والتأثر به وذلك لأن هذا التراث هو الذى يتوافر له عنصر الأصالة ، والعبقرية دون سواه من العصور التى تلته . وتلا عصر الخطابة والنثر الشيشرونى عصر الشعر فى عهد أوغسطوس فرأت روما عصراً لم تشهد مثله فى تاريخ أدبها القديم فقد تبلور الأدب وتكمل وتفرع وبلغ الذروة وقمة المجد فى فروعه المختلفة شعراً ونثراً . وما قام به شعراء هذا العصر معروف وغنى عن التعريف . وفى مجال النقد نجد حركة ونشاطاً لم يسبق لها مثيل فنقاد هذا العصر من شعرائه وكتابه لم يتركوا فرعاً من فروع الأدب إلا نقدوه وقيموه وفقاً لتقديرهم

ولو تعمق الباحث فى خطوات تشكيل النقد فى هذا العصر فلن يغفل ذكر ماكيناس الذى ضم تحت رعايته كل ما هو جدير بتأدية رسالة الدولة واختار من بين الشعراء والكتاب من توفرت له موهبة حقة وقلم نفاذ كأعضاء لحلقته المشهورة يوجههم توجيهاً صادقاً فى اختيار مادة الكتابة وفى صقل الأساليب وغير ذلك حتى يؤدوا رسالتهم على الوجه الأكمل ولاشك أن ماكيناس بتصرفه هذا أسهم فى حركة النقد وفى ازدهارها .

ولكن النقد لم يتشكل تشكيله شبه الأخير إلا بظهور هوراتيوس فى عالم الأدب وقد مهد له فى أهاجيه ورسائله بإشارات وعالج بعض القوانين المختلفة ثم توج آراءه المتفرقة فى كتاباته بمؤلف خاص بالنقد يتضمن قوانين عن الشعر ويعرض المسائل الأدبية الهامة .

---

(١) يرى Saintsbury فى هذا الرأى أن شيشرون فى نظره لم يكن ناقداً ، إذ أنه لم يهتم بنقد كتاب أو شعراء عصره أمثال لوكريتيوس وقد نشر كتابه المشهور De rerum natura
Saintsbury, History of Criticism and Literary Taste (Cicero page 212 seqq).

ونصوص هوراتيوس النقدية الهامة هي هجاؤه الرابع والعاشر من الكتاب الأول وهجاؤه الأول من الكتاب الثاني ورسالته إلى أوغوسطوس وإلى فلوروس ثم رسالته إلى بيزو أو فن الشعر .

وفي هجاء هوراتيوس الرابع من كتابه الأول الذي كان يدافع به عن نفسه وعن شعره يتكلم عن الحرية التي تمتع بها شعراء الملهاة الإغريقية القديمة في نقد زان أو سارق أو ما أشبه ويطالب باستعمالها في الهجاء ، ولعل هذه المطالبة تتضمن طلباً لحرية النقد أيضاً فالهجاء ناقد للحياة في مظاهرها المختلفة . ثم نراه يعرض لمشكلات أدبية فيوجد الصلة بين لوكيليوس مبتكر الهجاء الروماني وبين شعراء الملهاة القديمة فيربط بهذه الصلة بين الهجاء وبين الملهاة ثم ينتقد لوكيليوس ولا يقبل رغبته لسيل من الأبيات في زمن قصير ولا يقبل خشونة أسلوبه وعدم صقله ويتعرض للهجاء عامة أهو شعر أم نثر أهو شخصي يؤذي الأفراد أم جماعي ينقد الحياة المحيطة ثم للمسرحية أهي شعر أم نثر ويجيب هوراتيوس بتسويه الممتع على كل هذا ، فالهجاء في نظره ليس شعراً رغم تقيده بالوزن لأن الشاعر لابد له من موهبة وروح إلهية . والهجاء ليس شخصياً إلا بقدر ما يدافع عن نفسه فهو لا يسب ولا يتصف بنفس سوداء قاتمة ، والهجاء جماعي يبرز المساوئ . وهي عادة أخذها عن أبيه حين كان يقوم أخلاقه ببعض أوصافه على الأفراد فليس الذنب ذنب الهجاء بل الأشخاص أنفسهم وإن سخر من روفوس الذي تفوح رائحته الطيبة كأن لو كان زجاجة عطر متحركة فليس هذا سباً منه وإنه أحق في أن يسخر .

والكوميديا في رأيه ليست شعراً إذ ينقص كلماتها ومعانيها قوة الوحي وحرارته ، لا تختلف عن الكلام النثري إلا في تقيدها بالأوزان والإيقاع . وقد يعترض معترض على هذا الرأي ويرى قوة في الملهاة حين ينفعل الأب إذ رفض ابنه الزواج من امرأة ذات ثروة لأن له عشيقة ، ويجيب هوراتيوس إن ثورة الأب عاطفة طبيعية ولو تخلصنا من قيود الوزن لأصبحت كلماته نثراً يقوله كل أب في مثل هذا الموقف .

وإذا رجعنا إلى الهجاء العاشر من نفس الكتاب نجد المزيد فقد أثار هجاؤه الرابع النقاد فكيف يجرؤ على نقد لوكيليوس الذي هو جزء من تراثهم

القديم ويصمم هوراتيوس على موقفه الأول ويقول إنه يحترم لوكيليوس ويتخذ منه مثالا يحتذيه ولكن أى معجب بلوكيليوس لا يستطيع أن ينكر عليه أخطاءه ولو تسامح عن أخطاء لوكيليوس لاعتبرت هزليات لابيريوس شعراً ممتازاً .

والهجاء فى نظره فى حاجة إلى الاختصار حتى لا يمل السامع وحتى تجرى الفكرة دون عائق والهجاء فى حاجة إلى أسلوب يتراوح بين الجد والمرح والهجاء خطيب أحياناً وشاعر أحياناً أخرى وهو فى حاجة إلى الصقل والضحك والسخرية ، والسخرية المصقولة لها قدرة فى التأثير عن الجد فبهذه السخرية نجح شعراء الملهاة ويجب أن يقلدهم الهجاء .

وفى الهجاء الأول من الكتاب الثانى يعود هوراتيوس للمرة الثالثة للدفاع عن نفسه متخذاً من هذا الدفاع وسيلة لتعريف بآرائه النقدية . وهو يطلب النصح من ترباتيوس فشعره فى عرف البعض فوق الحد القانونى وفى عرف البعض الآخر خال من الروعة وينصحه ترباتيوس أن يترك الشعر أو يكتب الملاحم (إذا كان ترك الشعر مستحيلا) . فإذا استمر فى كتابة الهجاء فسوف ينفض عنه أصدقاؤه أو يعاقبه القانون على أشعار تسىء إلى الأفراد . ولا يأخذ هوراتيوس بهذا النصح وسوف يكتب الهجاء فقد كتب لوكيليوس قبله ولم ينفض عنه أصدقاؤه وسوف يكتب الهجاء دفاعاً عن نفسه لا للهجوم على الناس وإنه لن يكتب سبابا بل شعراً جميلا يوافق عليه أوغوسطوس .

ونرى خلال الحوار الذى دار بين الشخصيتين أن هوراتيوس أشار إلى وجود قانون لكل فرع من فروع الأدب ثم بين الكتابة فى أى فرع ترجع لميل الكاتب ومقدرته كما أشير جانبا من عنصر الشخصى للهجاء وهو الدفاع عن النفس فليس هجوؤه سبابا يكيله على الأفراد بل شعر جميل ينقد به من يستحق اللوم فيجمع هوراتيوس بهذه الصفة الهدف الشخصى والاجتماعى من الهجاء . ويرى بعض (١) النقاد الأصالة فى بعض هذه الأهجيات وهذا

---

(١) يعتبر بعض النقاد أهجيات هوراتيوس ورسائله النقدية أكثر أهمية من فن الشعر ويرون أن الهجاء الرابع والعاشر من الكتاب الأول أكثر أصالة إذ كتبهما قبل أن يتصل بنيوبتوليموس
راجع : Saintsbury, History of Criticism and Literary Taste page 228

حتى نقد هوراتيوس للهجاء وتشكيله تراثيه لا نجده عند الإغريق ولا نجده عند نيوبتوليموس كما أن صلة الهجاء بالملهاة لم يعالجها الإغريق أيضاً وهذا واضح إذ أن الهجاء رغم تأثره بالإغريق : روماني في نوعه ابتكره لوكيليوس .

ويتخذ نقد هوراتيوس في الرسالتين مظهراً آخر . ففي رسالته لأوغوسطوس يقول هوراتيوس إن الرومان يبجلون الأبطال بعد وفاتهم ولكنهم يبجلونه في حياته وهذا المبدأ الذي سنكوده معه لا يطبقونه إلا عليه فهم في الأدب لا يقدرون إلا ما هو قديم . إن التقدير يجب أن يكون للقديم والمعاصر على أساس غير أساس الزمن فلم يكن القدماء على درجة من الكمال وليس كل قديم له قيمة فنية وقد يأتي شعر حديث بما لم يصل إليه القدماء ، والتمسك بالقديم لأنه قديم لا مبرر له . إن الذوق يتطور بتطور الأزمنة فما قبله الذوق بالأمس قد لا يستسيغه اليوم ، لننظر إلى الإغريق نجد يغيرون تسليتهم كالأطفال من وحدة إلى أخرى فقد شغفوا بالمصارعة ثم النحت والرسم والموسيقى ثم المأساة ولكن الرومان كانوا أكثر جدية منهم فقد كرسوا حياتهم للأعمال العامة ولم يهتموا بالشعر والكتابة إلا حديثاً كما يفعل هو بدوره . ولئن كان الشغف بالكتابة له أخطاؤه فضلاً عن هذا أنه جنون خفيف فإن له فوائده إذ أن الشعراء ارتقوا بتربية النشء وطبعوا النفوس بمبادئ رحيمة وخصصوا للذين يتعلمون إن الإغريق فقد صقل الرومان وتهذيبهم . والرومان ميال وأكثر قابلية للمأساة منهم للملهاة ولكن كتاب الملهاة أمثال بلوتوس لهم أخطاء كثيرة ولا يحكم عليهم بما يلقونه من تصفيق الجماهير فهو لا يعترف بحكم الجمهور الذي يطلب المصارعة ويعنى بما يسر عينيه من ألوان وملابس أكثر مما يعنى بالمسرحية ، فلو كان ديموقريطوس حياً لضحك من هذا الجمهور الذي يصفق للممثل قبل أن ينطق بكلمة . وهو بنقده هذا لا يقلل من قيمة فن لا يستطيع ممارسته ولكنه يطلب الكمال ، يطلب الشعر الذي يحرك روحه ويبتكره .

ورسالة هوراتيوس إلى صديقه فلوروس تضيف إشارات عن الشاعر وكتبه . يقول هوراتيوس بعد أن شرح لصديقه الأسباب في عدم الكتابة إليه ، إن موضوع كتابة الشعر الجيد موضوع جاد يتطلب ذوقاً وعناية في اختيار

لغة مهذبة وقد تبدو نتيجة هذا الاختيار سهلة ولكن هذا السهل نتيجة عمل مضن طويل ، ثم ينهي هوراتيوس رسالته بإبداء رغبته فى الاتجاه إلى الفلسفة ويتحدث عن الثروة والملكية والبخل .

تلك هي الخطوط العريضة للعوامل والعناصر التي بلورت النقد في تاريخه القديم ومهدت لظهور "فن الشعر" الذى يعتبر المؤلف الرومانى الوحيد فى عالم النقد الرومانى .

ويقع فن الشعر فى الجزء الأخير من حياة هوراتيوس وإن لم يعرف على وجه التحديد تاريخ تأليفه . يعتقد البعض أنه نشر قبل وفاة هوراتيوس بقليل (١) وهذا يعنى أنه نشر عام ٨ ق. م. ويرى البعض الآخر (٢) أن تأليفه لايمكن أن يقع بعد عام ٢٦ ق.م ويرى البعض الثالث أنه كتب عام (٣) ١٩ ق. م. ولم يقف النقاش عند هذا الحد فهناك آراء أخرى فى هذا الصدد نورد منها على سبيل المثال رأى الأستاذ . ى كامبل الذى يظن أن فن الشعر (٤) كتب بين عامى ٢٣ – ٢٠ق. م. واختلف علماء العصر الحديث فى نوع تأليف فن الشعر فاعتبرها فعلك نوعاً من أنواع الأيسجوجية ويعرف نوردن (٥) هذا النوع من التأليف بأنه كتيب صغير لقوانين معدة للاستعمال وضعت لتحكم أى فرع من فروع الفن أو العلم رتبت وفقاً لنظام بلاغى وقسمت إلى قسمين كل منهما يمت إلى الآخر بصلة الأول هو الفن والثانى هو الفنان . وتكتب الأيسجوجية عامة إما فى شكل أسئلة وأجوبة القصد منها الإرشاد أو التعليم أو فى شكل حث يلقى فيه خبير فى فن أو علم قوانين هذا الفن أو هذا العلم وتعاليمه لتلميذه المبتدئ ليشجعه على دراسة علمية صحيحة . ولقد تأثرت الأيسجوجية بالبلاغة الرواقية تأثراً كبيراً خاصة

---

(١) ، (٢) راجع : A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica Page 50

(٣) راجع اللغة اللاتينية حياة هوراتيوس (م. السلاموني . عبد اللطيف أحمد الى آخر ذلك) ص ١٢٩

(٤) راجع : H. R. Fair-Clough, Horace, Satires, Epistles and Ars Poetica footnote page xiii

(٥) راجع Fiske, Lucilius & Horace, Page 446

فى تطور تخطيطها وفى تقسيمها بل تعتبر الأبسجوجيات أمثلة للانتقال من البلاغة الروائية إلى فن معين أو علم تعالج فيه نظريات مصوغة لهذا الفن أو العلم .

ويرى بعض الكتاب والنقاد أن وفن الشعر» بحث ، ولقد كان لهذا الاعتبار أثر كبير فى توجيه نقد قاس لهوراتيوس فى القرن السادس عشر والثامن عشر فقد كان لزاماً أن تتوج هذه القصيدة تاج هوراتيوس الأدبى بهالة من فنه الرائع وأن تكون مرآة تعكس نضوجه الفكرى وتجاربه وأن يطبق عليها تلك القواعد التى أملاها على غيره فى التأليف فهى فى نظرهم مفككة الأجزاء وليست بحثاً منظماً لا على الشعر عامة ولا على الشعر المسرحى خاصة يسودها الشرود والإسهاب. ولم ينتقد هوراتيوس فى تلك القرون من يدافع عنه فقام المعجبون بكتاباته ونادوا بأن هوراتيوس لم يقصد كتابة بحث عن الشعر عامة أو الشعر المسرحى خاصة وما هى إلا ملحوظات قلبية دونها لصديق لينتفع بها فهدموا بذلك أساس الاتهام وإن لم يتمكنوا من الدفاع عن جميع المآخذ التى وصمت بها فاز ان النقد مسلطاً عليها فى العصر الحديث حتى لدى المعتدلين من النقاد أمثال سانتسبرى .

يقول سانتسبرى فى هذا الصدد « ووضح أنه لا يليق بنا أن نضع عليه سرجاً ملتاثاً بالاستنباط والتعليقات التى نسبها إليه نقاد القرن السادس عشر والثامن عشر والتى أثقلوه بها فكثيراً من الأحيان لا يستحق هوراتيوس منهم هذا الموقف ولم يكن سبباً فى إثارتها ولكن رغم هذا التساهل العادل الكريم تتعرض القطعة لنقد شديد . أولا إن عدم ارتباط الموضوع مبالغ فيه وفيه نوع من الإسراف ويجب أن نسمح بحرية من هذه الناحية لمن يمزج بين النافع والسار بواسطة شعر تعليمى ولكن أية حرية نعطيها لهوراتيوس لن تكفى لتغطية طريقته التى يمكن تسميتها باللاطريقة (١)». ووجه بروكس نقده على هوراتيوس لا فى فن الشعر فحسب بل فى كثير من كتاباته الأخرى فهو يرى أن أجزاء من هذه الكتابات لا تتأثر بالنظريات والقوانين التى نادى

(١) راجع : Sainsbury, History of Criticism and Literary Taste, Page 224.

بها إذ أن هوراتيوس ينفى نفسه كصاحب نظريات نقدية ويتمسك بأى لون من النفع فى كتابة apologia poetae وعلى هذا فقد عرض بروكس نظريات هوراتيوس وبيّن ما فيها من مرونة أو مآخذ .

والرأى الأخير فى نوع تأليف «فن الشعر» هو الذى نادى به المتحمسون لهوراتيوس والمعتدلون من النقاد فهى فى نظرهم رسالة أهداها إلى صديق له من آل بيزو لينفع بها رعا ليحذره من كتابة شعر أو مسرحية تتفق وقوانين الدراما الساتورية الإغريقية إذ أنها محاولة غير عملية(١) وقد انتهز هوراتيوس هذه الفرصة لينقد الكثير من المسائل الأدبية وليجمع الكثير من قواعد النقد والقوانين المعروفة حينئذ .

ولم يتفق علماء هذا العصر على من قصده هوراتيوس بهذا الإهداء فقد كانت فى عصر هوراتيوس أسرتان باسم Piso : الأولى أسرة Lucius Calpurnius Piso الذى ولد عام ٤٨ ق. م وكان قنصلا عام ١٥ ق. م وولداه Gaius - Lucius والثانية أسرة Gnaius Piso الذى كان له ابن واحد أرسله الإمبراطور Tiberius إلى سوريا عام ١٧م وانقسم الشراح والعلماء إلى قسمين فمنهم من يزعم أنها الأسرة الأولى ومنهم من يفضل القول بأنها الأسرة الثانية ولكل منهم أدلة لاتصل إلى درجة اليقين والراجح أنها أهديت لآل Lucius Calpurnius Piso لعدة أسباب : كان عائل هذه الأسرة ولدان ولعائل الأسرة الثانية ولد واحد فلا ينطبق عليه نداء هوراتيوس حين يقول Omaior iuvenum وقد عرف أيضا عن الابن الأكبر Lucius Calpurnius Piso الاشتغال بالأدب فقد أراد أن يكتب مسرحية على أساس هومرى أما ابن Gnaius Piso فكان يشتغل بالسياسة فمن غير المعقول أن يهدى هوراتيوس قصيدته

---

(١) كان الشعر المسرحى منتشرا فى عصر أغسطس ولكن المحاولات التى قام بها المؤلفون فشلت ولم تكتب سوى مسرحيات عقيمة مقلدة من الأغريق هذا لأن لغة العصر الأوغسطى واتجاهاته لم تناسبه كما ذكر الأستاذ أ. دالتون فى "فن الشعر" ولم يصلنا من هذه المسرحيات سوى أجزاء للكاتب Varius.

راجع : A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica Pages (50—51).

لرجل لايعنى بالتأليف وقد نادى بهذا الرأى بورفيريون (١) فى القرن الثالث الميلادى فى شرحه وتعليقه لفن الشعر وقد عزز أيضا هذا الرأى فى العصور الحديثة باكتشاف أجزاء محترقة من البردى(٢) فى Herculaneum فى منزل Lucius Calpurnius Piso تحتوى على كتاب عن الشعر للفيلسوف الأبيقورى Philodemus لخص فيه آراء Neoptolemus الكاتب المشائى من بلده باريوم فى بيثينيا ، وقد سهل هذا الاكتشاف على المؤرخين أن يتخيلوا هوراتيوس عضواً فى نخبة من مجتمع أدبى عصرى فى مدرسة الحديقة فى نابولى حيث كان Philodemus أستاذاً أو يجتمع به فى منزل Lucius Piso فى حلقة من الأدباء والشعراء أمثال فرجيليوس وجالليوس يناقشون فى المذاهب الفلسفية المعارضة للأبيقورية والنفعية المشائية .

وقد أكد اكتشاف هذه البردى أيضاً الصلة التى ذكرها Porphyrion بين آراء هوراتيوس فى فن الشعر وآراء Neoptolemus فى تعليقه المعروف الذى لم يكن واضحاً قبل هذا الاكتشاف "Horatius Congessit praecepta Neoptolemi."

ولو درسنا فن الشعر بمعنى لنحدد نوع تأليفه لوجدنا أن هوراتيوس لم يكتب من الوجهة الشكلية بحثاً عن الشعر وقوانينه أو شرحه وإن كان قد تكلم عن الشاعر والشعر والبلاغة وأنواعه وما يتطلبه كل نوع من موضوعات وما يتصل به من وزن وإيقاع ولم يكتب أيساجوجى ينطبق عليها تعريف نوردن انطباقاً كاملا فيجعل من نفسه فيه أستاذاً يسأل فيجيبه تلميذه الناشئ أو يعلمه أصول الشعر وقوانينه . بل كتب رسالة إلى صديق تتصف ببعض مميزات الأيساجوجية وخصائصها وتخضع كما يبين العلماء والنقاد أمثال بروكس

---

(١) P. Porphyrion كاتب عاش فى أوائل القرن الثالث الميلادى كتب شرحا وتعليقا على كتابات هوراتيوس مازال محفوظا حتى وقتنا هذا فى نسخة A. Holder 1894 وإن لم يكن فى صورته الأصلية . راجع : The Oxford. Classical. Dictionary (Reprinted) 1950 Page 719

(٢) اكتشف (G. Jensen) فقرات من كتابات نيوبتوليموس فى سياق كتابات فيلوديموس وقد نشرت عدة مرات وأول نشر لها كان فى :

"Cramer's Anecdota e. g. by Dübner, p. XXVII"

ولم يتح لى الاطلاع على المراجع الأصلية لعدم وجودها ولكن راجع :

H. J. Rose, A Hand Book of Greek Literature page 400 footnote 17 & 18

لتقسيم واضح المعالم متأثر إلى حد كبير بتقسيم نيوبتوليموس البارى ؛ فقد بدأ فى الشعر بنداء أصدقائه «آل بيزو» على نهج رسائله التى يهديها إلى ميكيناس وأغوسطوس وفالا وغير أولئك من الأسماء المعروفة لدى قرائه ، لو كرر الثناء فى ثلاثة مواضع أخرى حتى لا يفقد شكلية الرسالة لطول القطعة .

أما وسط الرسالة فهو استرسال فى سرد ملاحظات أدبية أو هو تاريخ لأنواع من الشعر وخصائص كل منها وما يتعلق بها من وزن ونغم وكلمات وقوانين أو نظريات . قد ينتقل المؤلف من جزء إلى جزء فى شيء من التفكك الظاهرى : أو بإحلال جذاب مفرح بدون طريقة معينة ليقودنا إلى معنى من المعانى كما لو كان المرء يكتب أخباراً لصديق فيقدم جزءاً ويؤخر آخر دون أن يفكر كثيراً فى صلة أحدهما بالآخر .

أما نهاية فن الشعر فهى لوحة رائعة للشاعر المجنون ومصرع امبيدوكليس (١)، ولو قورنت هذه النهاية بكثير من رسائل هوراتيوس وأهجياته نجد تشابهاً كبيراً بينها وبين نهايات كثير من الرسائل والأهجيات : فهى إما حوار أو وصف لا نكاد نرى فيه مغزى معين أو فكرة أو رأى تدفنه فى الأهجية أو الرسالة يعززه فى نهاية هذا الحوار أو الوصف ليأخذ أو ليقتنع به قارئه بطريقة تلقائية إن أراد ذلك دون فرض أو إملاء .

وأعتقد أن هوراتيوس قصد بإنهاء قصيدته بهذا الوصف ليسخر من الشاعرين الذين يعتقدون فى أنفسهم موهبة الشعرية ويرون أن مظهر هذه الموهبة لا يتم إلا بعدم اغتسالهم وعدم حلق ذقونهم وبالالتجاء إلى الأماكن

---

(١) امبيدوكليس . فيلسوف وعالم وشاعر وخطيب ولد فى صقلية فى الجزء الأول من القرن الخامس ق. م وقد اهتم بعلم الحياة والطب والطبيعيات واكتشف أن الهواء عنصر يتميز عن الفراغ المحيط بالكائنات واشتهر امبيدوكليس بإرجاع المظاهر الطبيعية إلى أربعة عناصر أساسية هى : التراب – والهواء – والنار – والماء . راجع :

P. Harvey.

The Oxford Companion to Classical Literature page 158 & The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 314.

المنزلة فيلون ذلك كله لا ينزل الوحي عليهم وقليتدضون فى التأمل والتحديق للرجة الوقوع فى بئر أو هوة فلا يجدون من ينتزعهم منها ، ويؤدى شرودهم المتصل إلى مصير محتوم . وقد يكون الشاعر جن حقاً بموهبته ونسى نفسه فلقى حتفه وقد يكون فى كامل وعيه فيدفع نفسه إلى الموت دفعاً ليخلد اسمه عيشة خالدة كما يسميها هوراتيوس ، هذا كما فعل الفيلسوف امبودوكليس الذى رمى نفسه وهو هادئ الأعصاب فى بركان محترق .

فهوراتيوس يسخر بهذه اللوحة من الادعاء الذى قد يؤدى إلى الموت أو الموهبة التى قد تؤدى إلى الجنون والموت معاً ويطلب من الشاعر الموهوب أن ينمى موهبته ويصقلها بالدرس والتحصيل والتمرين فتأتى ثمارها شعراً ناضجاً يبلغ درجة الكمال. «فن الشعر» فى نظرى رسالة وقد سميت قديماً باسم «رسالة إلى آل بيزو» ولم تعرف باسمها الحديث إلا فى عهد كونتليانوس الذى أطلق عليها هذه التسمية . ولهذه التسمية مغزاها من رجل له مركزه فى البلاغة والنقد فلا شك أن محتويات الرسالة دفعت كونتليانوس إلى رفعها إلى مستوى البحث العلمى فى فن الشعر فنوه به بهذه التسمية تمييزاً لها عن بقية أهجيات هوراتيوس ورسائله النقدية المعروفة . ونوافق أن فن الشعر كان تتمة لما بدأه هوراتيوس من إشارات وعذولات للنقد صاغها فى رسالة كما صاغ آراءه الأخرى فى رسائل وأهجيات من قبل فهى لا تتميز من الناحية الشكلية أو المدلول عن بقية الرسائل فى هذا الصدد إلا أنها أكثر طولا .

أما خصائص الأيسجوجية التى رآها فيسك من :

١ ـــ استعمال المخاطب الذى يقصد به النوع .

٢ ـــ التدريس بالقدوة أو بالأمثلة الشخصية .

٣ ـــ حديث هوراتيوس عن مثله العليا بإلحاح تعليمى يراه فيسك فى تكرار كلمة Ego ثم الإلحاح والتشديد على ممارسة أى فن أو علم بالدراسة أكثر من الاعتماد على المواهب الطبيعية التى ضرب لها عدة أمثلة وعززها بوصف هوراتيوس الساخر للشاعر المجنون كل هذا رغم وضوحه فى القصيدة

لا يبرر هذه التسمية ، ويمكن الرد على الأستاذ فيلك بسهولة ، فهى أولا تفتقد فى شكليها حوار الأستاذ وتلميذه والسيطرة العقلية ، ثم إن هوراتيوس وإن كان فى الواقع يملى قوانينه على صديقه ويعلمها للناس أجمع إلا أنه حاول إيجاد جو من الود والاحترام العميق ولم ينس مركزه الاجتماعى الوضيع الذى عانى منه الكثير فى بدء حياته وبعد اتصاله بمكيناس ، ذلك المركز الذى لا يسمح له بمخاطبة آل بيزو ذوى المكانة البارزة بأسلوب المعلم رغم الصداقة القائمة بينه وبينهم .

ولو رجعنا إلى المواضع الأربعة التى نادى فيها هوراتيوس آل بيزو نجد أنه استعمل فى الموضع الأول صيغة الجمع للاسم Piso تأدباً ووصفهم بأصدقائه . « فهل تمتنعون ، يا أصدقائى ، عن الضحك؟ صدقونى يا آل بيزو ، إن الكتاب ذو خيالات فارغة (١) .... »

فلا يمكن أن يتخذ من آل بيزو جميعاً تلاميذ ، ولم يكن الأب على الأقل فى حاجة إلى تلمذته رغم اهتمامه بالأدب إذ كان قنصلا ثم بروقنصل .

وفى الموضع الثانى استعمل صيغة الجمع للاسم Piso أيضاً وأظهر تقديره لهم . يقول هوراتيوس « إن جمهرتنا نحن الشعراء (٢) : يأيها الأب ويأيها الأبناء الجديرون بهذا الأب نخدع أنفسنا بما هو شبيه بالحقيقة . »

وفى الموضع الثالث استعمل صيغة الجمع من جهة ومن جهة أخرى جعل النصح منسوباً إلى شخصه « أما عن نفسى يا آل بيزو فلو أننى كتبت ساتيرات فلن أحب الكلمات الشائعة السائدة ولن أحاول الابتعاد عن اللون التراجيدى (٣) »

---

(١) مقدمة النص (٥ - ٦)

(٢) (٢٤ - ٢٥)

(٣) (٢٣٥ - ٢٣٦)

وفى الموضع الأخير الذى فرد فيه النداء لأكبر الشبان راعى فى هذا الإفراد أن يكون ممزوجاً بالتقدير العميق :

(١) «يا أكبر الشبان سناً خذ هذا القول واذكره رغم ذكائك الذى شحذته التجارب وطورته المعرفة ورغم صوت أبيك الذى أعدك للحق» .

(ثانياً) استعمال المخاطب الذى يقصد به النوع لازمة من لوازم أسلوب هوراتيوس المعروفة فى كتاباته فالأهجيات مليئة بهذا النوع من الاستعمال . والتدريس بالقدوة وبالأمثلة الشخصية هى عادة أيضاً عند هوراتيوس أخذها عن أبيه الذى كان يعتبره المدرس الأول له والمقوم لأخلاقه والحارس الأمين على عقليته وقد تحدث عنها هوراتيوس بصراحة (٢) وقد حذا هوراتيوس حذو أبيه فكان ينقد الحياة بإبراز ما فيها من عيوب اجتماعية [illegible] حية . وقد كتب فن الشعر لم يتمكن من التخلص من هذه العادة التى [illegible] منذ طفولته جزءاً لا يتجزأ من حياته

[illegible] ما ذكره فيبدو من التطويل عن مدرسة أى فن أو علم بالدراسة [illegible] عزيزه بموهبة الشعر [illegible] فهذا [illegible] أفهمه من عالمنا الجليل . فالسبب فى كتابة هذه [illegible] والغرض منها أن يبهم [illegible] وقرائنه بالدراسة والتحصيل [illegible] فوق أهميتها على الموهبة [illegible] يستطيع هوراتيوس أو غيره [illegible] هوراتيوس المدرسة على الموهبة [illegible] من اجتماعهما فى تآلف [illegible] واضحة لا جدال فيها .

[illegible] دراسة [illegible] قلبها مغزى

---

(١) فن الشعر (٣٦٦ – ٣٦٨)

(٢) فى الجزء الرابع من الكتاب الأول سطر ١٠٣ الخ . وفى الجزء السادس من نفس الكتاب سطر ٨١ الخ ...

(٣) (٤٠٨ – ٤١١)

تهكمي أراد به السخرية من المتشاعرين والمجانين من الشعراء، فجميع خصائص الأبسجوجية التي ذكرها فيسك أو معظمها على الأقل ملحوظ في عدد كبير من أهجيات هوراتيوس ومع ذلك لا يمكن تسميتها بالأبسجوجيات ، ولعل طبيعة موضوع هذه القصيدة دفعته إلى الإكثار من هذه اللوازم فهي قوانين ونظريات جمعها لعصره وللأجيال القادمة .

ففن الشعر إذن خطاب من الناحية الشكلية ، أما موضوعه فهو قوانين للشعر والشعراء ثم مشكلات أدبية أثارها النقاد قديماً وحديثاً عرضها هوراتيوس دون مقدمات ، يقول : إن تمثيل الفن وتصويره مثل تصوير الطبيعة يجب أن يتميز بالانسجام بين الأجزاء ، فعلى الشاعر ألا يصل أي شيء بآخر لا ينسجم معه ، قد يعترض معترض ويقول : إن الرسامين والشعراء يتمتعون بحرية الخيال وهذا حق مكتسب ؛ ولكن يجب مراعاة الدقة والاعتدال في استعمال هذا الحق . وفي محاولة القيام بشيء صحيح تقع الأخطاء ، فالغموض ينتج عن الإيجاز كما ينتج الاستطراد عن الإسهاب - على الشاعر أن يختار موضوعاً مناسباً لقدرته . أما الكلمات فالحكم فيها هو الاستعمال فقد يحيي الاستعمال كلمات قديمة وقد يميت كلمات لها عزة وزهو . وهناك أوزان للأنواع المختلفة من الشعر سبق أن اتفق عليها وإن كنا لا نعرف أحياناً مخترعها ، فالبحر السداسي التفعيلة للقصص ومخترعه هو هوميروس والإيلجية تعبر عن الشكوى ولا نعرف مخترعها والأيامب للهجاء ومخترعه هو أرخيلوخوس وقد استعمل بعد ذلك للتراجيديا والكوميديا ، والشعر الغنائي لقصص الآلهة ، ثم لكل شخصية أسلوبها وخصائصها وعلينا ألا نضيف ألواناً جديدة على شخصيات أبطال صورهم التقليد على نحو معين مثل أخيليس ، وعلى الكاتب ألا يسرف في الموضوعات المألوفة وإذا ابتكر شخصية جديدة فلتكن متكاملة والأفضل التمسك بالقديم ، وعلى الشاعر ألا يبدأ بطريقة مفخمة بل ليسرع إلى موضوعه كما لو كان معروفاً ؛ لكل سن خصائص لابد من دراستها حتى لا يسند

إلى الصبي دور الشاب أو إلى الشاب دور الشيخ ، وحوادث المسرحية إما أن تروى وإما أن تمثل وما يرى على المسرح أوقع مما يسمع ولكن على الشاعر ألا يأتى بالأشياء البغيضة إلى النفس أمام الجمهور ، ولتكن المسرحية من خمسة فصول ، وعلى الشاعر ألا ينزل الإله إلا لحل العقدة وألا يشترك فى الحوار أكثر من ثلاث شخصيات ، ليتحاز الكورس للخير وينبغى ألا يغنى بين الفصول .

إن الموسيقى تطورت وتطورت القيثارة والناى تبعاً لذلك ، على أنه يمكن الجمع فى العرض بين الدراما الساترية وبين التراجيديا دون المزج بينهما للترفيه والتسلية من جهة ولكيلا يبتذل أبطال التراجيديا فى القيام بالأدوار الهزلية من جهة أخرى . ثم عرض لأوزان الشعر ومواضع استعمال كل منها وملاحظات على النقاد والشعراء : إن بعض النقاد لا يميز بين الشعر الردىء الموسيقى وسليمها ، وإن شعراء الرومان يتمتعون بحرية غير محمودة فى كتاباتهم والشاعر فى حيرة بين ذلك كله فأين يقف من هذه الحرية أيخطئ فيغفر له النقاد أم يعمل فى حذر ليتجنب اللوم !

وللشعر أنواع ولكل نوع مخترع وتاريخ : لقد اخترع Thespis التراجيديا ومثل قصائده على عربات رجال صبغت وجوههم بثمالة النبيذ وجاء بعده Aeschylus واستعمل القناع فى التمثيل وغطى المسرح بألواح خشبية . ثم تبعت الكوميديا القديمة التراجيديا ولم يعوزها المديح والإطراء والواقع أن شعراء الرومان عالجوا كل أنواع الشعر ولم يكن هذا دون نجاح ، ولو أن كل شاعر منهم يصقل شعره لتفوقت روما فى الأدب كما تفوقت فى الحرب .

إن خروج الشعراء فى حياتهم عن مألوف الناس والمغالاة فى ذلك الخروج سخف وإن لم يتمكن هو من تأليف شعر فإنه سيعلم الآخرين كيف يؤلفونه ، فعلى الشاعر أن يهتم بموضوعه ويجب أن يهدف شعره للمتعة والتعليم وألا يكتب مبالغات وغرائب — وعلى الشاعر أن يتجنب الخطأ وإن كان الخطأ الناتج عن الطبيعة أو عن ضخامة العمل الفنى مغفوراً . وليكن الأسلوب مناسباً للموضوع خالياً من الكلمات الزائدة عن الحاجة ؛ ولا يعترف بالشعر الوسط عند الشعراء ، وينبغى صقل أعمالهم ، والتأنى فى نشرها ، وللشعراء تاريخ مجيد وموقف مشرف . أورفيوس ، أمفيون ، هوميروس ، ترتايوس حمل لهم التاريخ عظمتهم . شرط القصيدة الناجحة أهو الموهبة الطبيعية أم الفن ومن يكون

الناقد وما أهمية هذا النقد ؟ وتنتهى القصيدة بلوحة رائعةللشاعر المجنون ومصرع امبدوكليس .

ومن هذا الملخص يمكن تقسيم فن الشعر إلى تقسيم واضح المعالم .

الجزء الأول (١ — ٧٢) يعالج تأليف الشعر وموضوعاته والصفات العامة التى تخص القصيدة وروابطها العامة .

أما الجزء الثانى (٧٣-٢٩٤) فيعرض للأنواع الأدبية المختلفة تاريخها وقوانينها وشكل القصيدة .

الجزء الثالث (٢٩٥ — ٤٧٦) يحدثنا عن بعض نكت الشعراء ويعطى نصحاً لما يجب أن يفعله الشاعر وما ينبغى ألا يفعله وهذا الجزء يمثل بدوره مزيجاً من مجموعة آراء عن الشاعر .

وقد يظهر من ملخص القصيدة بعض التفكك الذى تهم به هوراتيوس ولكن لو درسنا القصيدة بعناية لرأينا أن التفكك الذى وصفت به ظاهرى فى كثير من المواقع ويمكن إرجاعه إلى أكثر من سبب .

(أولا) كان هوراتيوس يسرد قوانين وملاحظات عن الشعروالشعراء أو يناقش رأياً يمت إليهما بصلة فإذا قدم قانونا وأخرآخر فمن يمس هذا التقديم أو التأخير الجوهر .

(ثانياً) إن أسلوب هوراتيوس الحى الملىء بالصور والأمثلة يؤدى فى كثير من الأحيان إلى بعض الشرود عن الفكرة الأساسية لقارىء غير حريص على تتبع أفكاره . فهوراتيوس يتطلب عادة من قارئه أن يستنبط لنفسه العلاقات الباطنة ويصل هذه الصور الحية المتتبعة بروابط عقلية ويستنتج وشأنه فى هذا شأن جوفنال الذى تنازع فيه النقاد والعلماء قديماً وحديثاً ووصفوا كتاباته بأنها لا ترتفع عن مستوى موضوعات البلاغة المدرسية

وكاد البعض ينتزع منه لقب الشاعر ومع ذلك أثبت (١) البحث الحديث عظمة جوفنال ونبوغه وبيّن طريقة تأليفه التي لها تركيب ظاهري مفكك تربطه صلات من باطن المعنى .

وقد أضافت قوانين الشعر وقيوده شيئاً من هذا التفكك، فقصيدة فن الشعر خضعت لوزن ونغم وتفعيلة وما إلى آخر ذلك من شروط علم العروض فمهما بلغت قوة هوراتيوس على التعبير والترتيب فهو لا يستطيع أن يرتب أفكاره أو يرسلها كما يرتب الناثر كلماته .

ورغم هذا النقد ، لفن الشعر قيمة علمية كبرى فهي مرجع روماني هام لا يمكن الاستغناء عنه ولولاه لفقد العلم الحديث حلقة هامة من تاريخ النقد القديم . ولم يخترع هوراتيوس جميع القوانين التي ذكرها في فن الشعر ولم يؤرخ تاريخاً لأنواع الشعر غير معروف ، ولم يخلق مشكلات تمت للأدب أو الشعر بصلة غير معروفة بل استقى كل هذا من نحويي الأغريق ونقادهم القدامى ومن فلاسفتهم أمثال أرسطو وتأثر بهم تأثراً واضحاً كما تأثر بصفة خاصة بنيوبتوليموس وردد أقوال غيره من كتاب الرومان وشعرائهم أمثال بلوتوس وترنتيوس وشيشرون وكثير من الأدباء والنقاد المعاصرين .

وقد اهتم علماء العصر الحديث وشراح نصوص هوراتيوس بدراسة هذه القوانين وردوها إلى أصولها وبينوا مدى تأثر هوراتيوس بهذه الأصول. كما عالج نقاد العصر الحديث نظرياته وقارنوا بينه وبين القدماء، فقد قرن . بروكس مثلا بين فن الشعر لهوراتيوس وكتاب الشعر لأرسطو وقال إن هناك فرقاً بين فن الشعر وكتاب الشعر لأرسطو من ناحية تأثيرهما الأخلاقي والميتافيزيقي كما يوجد هذا الفرق في فايدروس أفلاطون فيما يتصل بهذا التأثير .

---

(١) رسالة الدكتوراه للمؤلف جامعة لندن ١٩٥٥ The Structure of Juvenal's Satires.

وقد ذكر بروكس أيضا الصلة القائمة بين فن الشعر لهوراتيوس وبين آراء نيوبتوليموس ووصل إلى أنه تأثر به كثيراً ولم يتأثر بكتابات فيلوديموس الفيلسوف الأبقورى . وبيّن فيسك وجه الشبه بين فن الشعر لهوراتيوس وبين الكتاب السادس والعشرين للوكيليوس فى تخطيطهما البلاغى كما بين مدى تأثره العميق بشيشرون فهو يرى تشابهاً فى معالجة الموضوع بين الخطيب « وفن الخطابة » لشيشرون وبين الشاعر «وفن الشعر» . والواقع أن هوراتيوس يهدف إلى الجانب المثالى من الشعر كما يهدف شيشرون إلى الجانب المثالى للخطابة .

تلك هى بعض آراء العلماء الذين تتبعوا آثار هوراتيوس فدرسوها وأصدروا عليها أحكاماً استقرءوها من دراساتهم الطويلة أما مركز هوراتيوس فى حياة النقد الأدبى الذى يمثله كتابه فن الشعر ورسائله وأهجياته النقدية فلا يمكن للمرء أن يتجاهله فلم يكن هوراتيوس ناقلا كالعبد الذى لا يحيد شعره عن حرفية ما ينقل ولم يكن جامعاً فقط لما ذكره القدماء والمعاصرون ، بل ناقش وبحث وأفاض ثم أبرز آراءه مشعلا ينير الطريق فى لغة تفيض بالقوة والحيوية ،ولم ينتقص نقل هوراتيوس لهذه الآراء أو مناقشته لـ هو معروف ، مركز هوراتيوس كناقد . فهو كغيره من كتاب تلك العصور يتخذ لنفسه فى كل لون من ألوان الكتابة نموذجاً يحتذيه فكما نعرف جميعاً اتخذ لوكيليوس نموذجاً له فى الهجاء وأرخيلوخوس نموذجاً لأناشيد الإيودوس وأنكايوس نموذجاً لشعره الغنائى وفى فن الشعر لم يجد نموذجاً واحداً يفى بحاجته فرجع إلى الأغريق نحوييهم ونقادهم وفلاسفتهم بصفة عامة وإلى نيوبتولوموس بصفة خاصة وإلى الحياة الأدبية المعاصرة فاستفاد مما كتب قديماً وحديثاً وأكسب كل ذلك ملكية خاصة به وبعض نصوص هوراتيوس النقدية تعرض آراءه الخاصة فى الصور الأدبية التى كانت شائعة فى عصره والتى كان الأدباء والفنانون يتخذونها وسائل التعبير عن آرائهم وانتقاداتهم وتصويرهم للحياة فى مظاهرها المختلفة . ثم إن هوراتيوس لم يغفل المشاركة فى المشكلات الأدبية والفنية التى كانت تتنازع فى عصره والتى كان يختلف فيها النقاد والأدباء فيتخذ كل منهم موقفاً خاصاً يمثل وجهة نظره . فهل الهجاء شعر أم نثر وما صلة الهجاء

بالمسرحية وما صلته بالمجتمع ؟ ثم ما مقدار الحرية التى يمنحها المجتمع لشاعر الهجاء ؟ وما مقدار الحرية التى تمنح للشاعر فى صوغ الكلمات الجديدة ؟ والخطأ أمغتفر أم غير مغتفر ؟ والشعر الوسط هل يعترف به ؟ إلى آخر ذلك فهوراتيوس فى الواقع يكون جزءاً هاماً من تاريخ النقد القديم .

أما إذا ألقيت ما عهد إليك بطريقة سيئة فسوف أنام أو أضحك.

إن الكلمات الحزينة تناسب الوجه الحزين، والمليئة بالتهديدات تليق بالوجه الغضوب، والمرحة تلائم الوجه المرح، أما الكلمات الرزينة فهي للوجه الجاد الرزين، فقد شكلتنا الطبيعة أولا من الداخل لنواجه أي مظهر من مظاهر الحياة فهي تفرحنا وتدفعنا إلى الغضب أو تحني رءوسنا إلى الأرض وتعذبنا بسبب حزن ثقيل ثم تظهر انفعالات النفس متخذة من اللسان مترجما لها. فإذا كانت الكلمات لا تتفق مع حالة الانفعالات الظاهرة سوف يضحك الرومان: مشاتهم وفرسانهم ضحكا عاليا.

هناك اختلاف كبير بين أن يتكلم عبد(1) أو بطل وبين أن يتكلم شيخ ناضج أو شاب في ازدهار حيويته وقوته، تغلي دماؤه، وهناك فرق بين أن تتكلم سيدة من طبقة رفيعة ذات جاه وعزة وبين مرضعة دائبة الحركة وهناك فرق بين أن يتكلم تاجر متجول وبين زارع حقل خضر يانع وهناك فرق بين الكلداني أو الأشوري

(1) عبد ترجمة لقراءة دافوس Davus ولقد انقسمت المخطوطات بين قراءتين Divus بمعنى إله و Davus وهو اسم شائع يطلق على العبيد ويكون من القراءتين أنصار. والواقع أن كلا من القراءتين محتملة ولا تلغي الواحدة الأخرى فقد أراد هوراتيوس أن يظهر الفرق الموجود في كلام الشخصيات المختلفة والقراءتان تظهران هذا الفرق فهناك فرق بين كلام الإله والبطل وهناك فرق شاسع بين كلام العبد والبطل وإني أرجح القراءة Davus للفرق البين الموجود بين العبد والبطل أما مقارنة البطل الذي كان نصف إله فلا يحدث التقابل المنشود لما بينهما من أوجه الشبه وما يعزز هذا الرأي استمرار هوراتيوس في انتقاء كلمات تعبر عن تضاد واضح مثل الشيخ والشاب في عنفوان شبابه ثم سيدة المجتمع والمرضعة الى آخر ذلك من الأمثلة

وبين من ترعرع في أحضان طيبة أو أرجوس . اتبع التقليد أو ابتكر أشياء تناسب بعضها بعضاً .

١٢٠- إذا تصادف أن كنت كاتباً لمسرحية تعيد وصف (١) أخيلليس الشريف فليكن نشيطاً غضوباً لا تهزه المشاعر والتوسلات ولا يعترف بأن القوانين قد سنت له ، لا تحتكم فيما يدعيه لنفسه إلا بالسلاح ، ولتكن ميديا (٢) متوحشة لا تهزم ولتكن اينو (٣) منهمرة الدموع ولیکن إکسیون (٤) غدارا وإيو (٥) متجولة وأوريستس (٦) حزيناً

---

(١) هذه إشارة إلى الشجار بين أخيلليس وأجاممنون .

(٢) Medea هي ابنة آييتيس ملك الكولخيين وقد اشتهرت بالسحر وساعدت ياسون على الاستيلاء على الجزة الذهبية وتزوجت ياسون وهربت معه إلى بلاد الإغريق تتبعهما أبوها فقتلت أخاها أبسيرتوس وقطعت أوصاله وبعثرتها على أمواج البحر حتى تشغل عنهما أبوها في جمع أشلاء ولده فنجت ميديا وعاشت مع ياسون إلى أن مل منها وأحب ابنة كريون فانتقمت من زوجها انتقاما شديدا بأن ذبحت ولديها منه وقتلت زوجته الجديدة ثم فرت إلى أثينا في عجلة تجرها وحوش خرافية ذات أجنحة . راجع :

(A) The oxford classical Dictionary (reprinted 1950) p. 547/548

(B) Harvey, The Oxford Companion To Classical Literature page 263

(٣) Ino هي ابنة كادموس وزوجة أثماس كانت حياتها الزوجية مليئة بالأحزان والهموم ومصائبها متعددة وآخر مصائبها أن زوجها قتل أحد أبنائها وهو في نوبة جنون فقذفت نفسها في البحر مع ابنها الآخر . راجع : Athamas :

The Oxford classical Dictionary (reprinted 1950) page 112

A. Dalton, Horace, Epodes Ars Poetica, notes page 66.

(٤) Ixion هو ملك لابيثا في تساليا قتل ... زوجته وقد رفعه زيوس إلى السماء ليطهره من هذه الجريمة إذ لم يجد من يطهره على الأرض فحاول أن يتصل بهيرا فخلق له زيوس طيفاً يماثلها وأنجب منها الكينتاور وهو حيوان خرافي وقد عوقب عقاباً شديداً بأن شد إلى عجلة لا تكف عن الدوران. راجع : The Oxford classical Dictionary (reprinted 1950) page 466

(٥) Io هي ابنة إيناخوس وراهبة هيرا في أرجوس أحبها زيوس وشكلها في صورة بقرة حتى يخفي حبه عن هيرا ولكن هيرا عرفت هذا الحب وطلبت منه البقرة فلم يتمكن من الامتناع وعهدت بالبقرة إلى آرجوس ذي المائة عين فأرسل زيوس هيرميز ليقتله ويحرر البقرة ، ولما أصبحت طليقة سلطت هيرا عليها ذبابة تطاردها من أرض إلى أخرى حتى استقرت في مصر وحولها زيوس إلى صورتها الإنسانية ثانية وأنجبت منه ابنا هو أيانوس . راجع :

The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 456

(٦) Orestes هو ابن أجاممنون وكليتمنسترا وتقول الروايات إنه انتقم لقتل أبيه فقتل أمه وعشيقها ايجستوس. راجع : The Oxf. Class. Dictionary (reprinted 1950) page 654

وإذا عرضت للمسرح موضوعا لم يعالج من قبل وكانت لك الجرأة على إبداع شخصية جديدة فلتحتفظ بها حتى النهاية ولكن متوافقة

من الصعب أن تعالج مادة شائعة بين الكتاب بأسلوب خاص بك فخير لك أن تقسم قصيدة طروادة (المعروفة) إلى فصول من أن تكون أول من ينتج شيئاً مجهولا لم ينشر على الملأ بعد . المادة الشائعة تصبح حقاً مكتسباً لك لو أنك لم تتلكأ حول الحلبة الرخيصة المفتوحة ، وإذا لم تكن مترجماً أميناً عن حرفية الترجمة فتعنى بنقل كلمة بكلمة . وإذا قلدت فلا تسقط في هاوية فيمنعك الخجل أو تخطيط العمل أن تنقل منها قدمك خطوة إلى الأمام .

ولا تبدأ كما بدأ الكاتب القصصي(١) في العصر القديم : سأغني مصير بريام والحرب المشهورة . أي شيء جدير يقيمه ذلك الذي علا فمه بالوعود ؟ سوف تشعر الجبال بآلام المخاض ولا تلد سوى فأر مضحك ؛ ولكم هو أكثر صوابا ذلك الذي لا يخطط أي شيء بسخف (ويبدأ قائلا) «أي ربة الشعر حدثيني عن الرجل الذي رأى عادات رجال كثيرين ومدنهم بعد سقوط طروادة فهو لا يفكر في إعطاء دخان من الوميض الخاطف بل يفكر في إعطاء ضوء من الدخان لكي يؤلف من هذا أشياء خلابة وعجائب مثل أنتفاتيس (٢) وسكيلا (٣) وخاريبديس

---

(١) Scriptor Cyclicus أو كوكلوس بالأغريقة هو نوع من الشعراء الذين عاشوا بعد هوميروس من ٧٦٦ ق. م فصاعداً كانوا يروون الإلياذة والأوديسا وقد نظموا ملاحم صغيرة .
راجع : A. Dalton Horace, Epodes & Ars Poetica notes page 68.

(٢) Antiphates هو ملك اللايستروجين الذي بلع أحد رفقاء أوديسيوس ودمر سفنه ما عدا سفينة واحدة نجا أوديسيوس بواسطتها. راجع : The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 61 واللايسترجونيون Laestrygones شعب متوحش آكل للحوم البشر يسكن في إيطاليا .

(٣) اختلفت روايات الأساطير حول نسبة سكيلا وتكتفي هنا المختص Charybdis, Scylla إضمان لصخرتين عاليتين متقابلتين في المضيق بين إيطاليا وصقلية ويحكي في الأساطير أن سكيلا بنت كراتاييس وهو حيوان خرافي كانت تعيش في كهف في الصخرة القريبة من إيطاليا . أما في الصخرة المقابلة فقد نبتت فيها شجرة تين تحتها دوامة باسم خاريبديس تبلع ماء البحر ثلاث مرات يوميا ثم تقذفه خارجا ثلاث مرات . وللتفصيل أنظر :
أوديسا هوميروس ، الكتاب الثاني عشر (٨٤ الخ)

وكوكلوبس (١) ولايبدأ عودة ديوميديس (٢) من موت ملياجر (٣) أو حرب طروادة من البيضتين التوأمين (٤) فهو دائماً يسرع إلى الحادثة ويسرع بسامعه إلى وسط قصته كما لو كانت معروفة لديه ويترك الأشياء التي عالجها ويئس من استطاعته أن يجعل لها بريقاً وعلى ذلك يخترع وبهذه الطريقة يمزج الزائف بالصحيح حتى يتفق أول القصة مع وسطها وينسجم وسطها مع نهايتها .

واستمع الآن إلى ما أشتاق ويشتاق الناس إلى رؤيته على المسرح ، لو أردت مصفقاً ينتظر حتى تسدل الستار ويجلس في مقعده إلى أن يقول المغنى «هيا صفقوا» عليك أن تتعرف على عادات كل عمر وتعطى الطبائع المتغيرة والسنين السمات الجميلة اللائقة بها . الطفل الذى يعرف كيف ينطق (٥) بالكلام ويمشى على الأرض بقدم ثابتة يفرح للعب مع أقرانه ويغضب ثم يتخلى عن غضبه بغير تعقل ويتغير من ساعة إلى أخرى . أما الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد ، فإنه يجد سعادته في الخيل والكلاب وعشب ساحة الإله مارس المشمسة بعد أن انتهت مهمة حارسه ، وهو مرن

---

(١) Cyclops نوع من المردة لهم عين واحدة مستديرة الشكل وقد اختلف الكتاب في وصفهم وربما تحمل بهم من أساطير . راجع :

The Oxf. Class. Dictionary reprinted 1950' page 247

(٢) Diomedes هو ملك أرجوس وأحد أبطال حرب طروادة ورجوع ديوميديس الذى يشير إليه هوراتيوس إما من حرب طروادة أو الغزوة التى قام بها أدراستوس وأعوانه السبعة ضد طيبة .

راجع: A. Dalton Horace, Epodes & Ars poetica notes 63 — 69

(٣) Meleager هو ابن أرنيوس ملك كاليدونيا وأحد الأبطال الذين اشتركوا في رحلة ياسون على السفينة أرجو للبحث عن الجزة الذهبية وقد اشتهر ملياجر بقتل الوعل المتوحش الذى كان يدمر زروع في كاليدون وإن كانت هناك روايات عنه . راجع :

The Oxf. Class. Dictionary (reprinted 1950) page 554

(٤) بيضتا ليدا وقد ولدت من إحداها هيلين ومن الأخرى كاستور وبولوكس . راجع :

A. Dalton Horace, Epodes & Ars poetica, notes page 69.

(٥) يقصد هوراتيوس بكلمة Voces الكلام فالطفل الذى يطلق أصواتاً فقط لا يمكنه أن يطأ الأرض بقدم ثابتة تترك أثرها عليه كما يقصد بهذا التعبير الأخير المشى فاللعب مع الأقران على النحو الذى ذكره هوراتيوس يحدث في مرحلة متقدمة نوعاً ما من الطفولة .

كالشمع يميل ثنيه نحو الرذيلة خشن مع ناصحيه بطيء فى بعد نظره للنافع من الأشياء مبذر شامخ الرأس له نزعات قوية ، سريع فى ترك ما قد أحب . أما فى سن الرجولة وقد تغيرت ميول المرء وأهدافه فان عقله يسعى وراء الثروة وتبحث نفسه عن الصداقات ويصبح عبداً للمراكز العامة فى الدولة ويخشى أن يأتى شيئاً يعمل على تغييره فى تقريب العاجل . أما المسن فتحيط به مضايقات عدة إما لأنه يسعى وراء خير وإذا ظفر به ذلك الرجل التعس امتنع عنه وخشى من الانتفاع به وإما لأنه يدير جميع أموره بخوف وبرود وهو متباطئ ومتوان فى تحديد أمله ، كسول طامع فى حياة أطول ، صعب دائب الشكوى مداح للأزمنة الماضية حين كان صبياً ، مؤنباً لمن هم أصغر منه سناً ورقيباً عليهم . إن السنين المقبلة تجلب الكثير من النعم وتأخذ الكثير تلك التى تدبر وتنحدر نحو النهاية . وسوف تتمهل دائماً فى معرفة الصفات المتصلة بكل عمر والمناسبة له حتى لا نعهد بالصدقة دور الشيوخ للشباب وأدوار الرجل الناضج للغلام .

والحادثة فوق المسرح إما أن تمثل أو تروى وما يصل إلى عقولنا عن طريق السمع أقل تأثيراً على المشاعر مما يطرح تحت الأبصار وأكثر تأثيراً مما يوصله المتفرج إلى عقله بالمشاهدة ومع ذلك عليك لا تجلب على المسرح ما يجب أن يؤدى فى الخلف وعليك أن تبعد عن أعين الكثير مما سوف يحكيه الممثل شخصياً للمشاهدين . فلا تدع ميديا تقتل أولادها أمام الجمهور أو أتريوس (١) الشنيع

(١) Atreus هو ابن بيلوبس وهيبوداميا تزوج من أكثر من امرأة : (كليولا ، أيروبيا ثم بيلوبيا) وقد قتل أخاً له غير شقيق وفر مع أخيه الذى ساعده فى القتل إلى ميكينا حيث استقبل بحفاوة وبعد أن مات ملك ميكينا خلفه أتريوس على العرش ثم اكتشف أتريوس أن أخاه قد أغرى زوجته أيروبيا ، فنفاه ، فأرسل أخوه ثويستيس ابن أتريوس الذى كان قد رباه ليقتل أباه لكن أتريوس قتله دون أن يعلم أنه ابنه ثم تظاهر بالصلح مع أخيه وطلب منه العودة إلى ميكينا فقتل أتريوس بدوره ولدى أخيه وطهى لحمهما وقدمه إلى أبيهما على المائدة فأكل المسكين دون أن يعرف ثم هرب ثويستيس وأنزلت الآلهة نقمتها على أتريوس وبيته . وقد أصابت مملكة أتريوس مجاعة شديدة فنصحته الكاهنة أن يستدعى ثويستيس فرحل باحثاً عنه حتى نزل ضيفاً على ملك يدعى تسبروتوس وتزوج من بيلوبيا ابنة أخيه معتقداً أنها ابنة الملك وأخيراً قتل أتريوس .

(A) The Oxf. Class. Dictionary (reprinted 1950) Page 117 Seqq. : راجع (Atreus)

(B) Harvey, The Oxford Companion to Classical literature (Pelops) page 311

يطيى لها آدمياً أو بروكنيه (١) تتحول إلى طير أو كادموس (٢)
إلى ثعبان فما تريني إياه من هذا النوع وبهذه الطريقة أمقته ولا أومن به:
تكن المسرحية التي يريد الشاعر أن تطلب ثانية ويعاد عرضها مكونة
من خمسة فصول لاتنقص عنها ولا تزيد ولا تسمح بتدخل إله مالم
تكن هناك عقدة تستحق الإله المنقذ ولا تسمح لشخصية رابعة
أن تحاول الكلام أثناء الحوار .

ولتدافع المجموعة عن دور الممثل وواجبه المتلىء بالرجولة وعليها
ألا يتغنى بين فصول المسرحية إلا ما ينفع تخطيط المسرحية وهدفها
وما ينسجم مع هذا التخطيط والهدف . وعلى المجموعة أن تتحيز
للأخيار وتنصح بود وتقمع الغاضبين وتحب الذين يخافون معصية
ولتمدح وجبات المائدة المتواضعة والعدالة والقانون والسلام بأبوابه
المفتوحة ، ولتكتم الأسرار التي عهدت إليها ولتصل للآلهة
وتتوسل أن يعود الحظ للتعساء ويبعد عن المتعالين .

---

(١) Procne هي بنت بانديون ملك أثينا تزوجت من تريوس ملك تراقيا ... ادعى تريوس أن بروكنيه ماتت وطلب من أبيها إرسال أختها فيلوميلا فلما وصلت اعتدى عليها ثم قطع لسانها حتى لاتحكي ماحدث وقد طرزت قصتها على قطعة قماش ونجحت في إرسالها إلى أختها فلما عرفت بروكنية بالأمر قتلت ابنها إتيس وقدمت لحمه لأبيه تريوس وحين هم تريوس بتعقب بروكنيه ولكن الآلهة حولته إلى هدهد وحولت بروكنيه إلى بلبل وفيلوميلا إلى عصفور وبعضهم يعكس أي أن فيلوميلا تحولت إلى بلبل وبروكنيه إلى عصفور . راجع :

The Oxf. Class Diction. (reprinted 1950) (Philomena p.683).

(٢) Cadmus هو ابن أجنور ملك صور في فينيقيا وقد أرسله أبوه يبحث عن أخته يوروبا التي خطفها زيوس ولما عجز عن العثور عليها استشار كاهنة دلفي فأشار عليه أبولو أن يتبع بقرة معينة حتى تسقط من الإعياء فيبني مدينة في البقعة التي سقطت فيها البقرة ، وقد قادته البقرة إلى مكان طيبة حيث بنى قلعة الكادمية التي أصبحت فيما بعد قلعة طيبة ولكي يجد ماء قتل حيوانا خرافيا من سلالة آريس وقد نصحته أثينا بعد أن قتله أن يبذر أسنان الوحش الخرافي على الأرض فبذرها على الأرض فنبتت منها رجال مدججون بالسلاح قتل بعضهم بعضا ولم يبق منهم سوى خمسة اتخذ منهم الطيبيون . راجع :

The Oxf. Classical dictionary (reprinted 1950), page 151

لم يكن الناى ، كما هو الآن ، مقيداً بالنحاس ومنافساً للبوق بل كان ضئيلا بسيطاً ذا فتحات قليلة وكان بعزفه نافعاً للمجوعة ومساعداً لها كما كان نافعاً لملء المقاعد التى لم تكن قد ازدحمت بعد والتى يأتى إليها عدد من الناس ، بعد لقلته ، لا يشرب الخمر ، طاهر حيى .

وبعد أن بدأ المنتصر عد حقوله ويحيط المدن بأسوار أعرض عن ذى قبل ويهدئ فى الأعياد الروح (١) التى تلازمه بشرب خمر فى واضحة النهار دون عقاب ، اكتسبت الموسيقى والأوزان حرية أكبر ، فأى ذوق ينتظر من رجل جاهل أصبح طليقاً بعد انتهاء مشاغله وأى ذوق ينتظر من جمهور امتزج فيه الريفى بالحضرى والرعاع بالنبلاء ؟ وعلى هذا أضاف عازف الناى إلى فنه القديم الحركة والمغالاة وأخذ يتجول فى الجزء الأمامى من المسرح وهو يجر (أذيال) ثوبه وهذا أيضاً نشأت أوتار جديدة للقيثارة الرزينة وجلبت البلاغة المندفعة كلاما غير مألوف ولم يختلف الفكر السديد المتصف بالحكمة والخاص بالنافع من الأمور ، والمتنبئ بالمستقبل ، عن تنبؤات دلفى .

والشاعر (٢) الذى تنافس بشعره التراجيدى من أجل جدى رخيص

---

(١) Genius كان القدماء يعتقدون أن هناك روحا تحمى الإنسان ويرى البعض أن للإنسان روحا خيرة وأخرى شريرة يلازمانه منذ الولادة وكانت هذه الأرواح تعبد فى الأعياد ، خاصة أعياد الميلاد وتقدم لها قرابين من الخمر والزهر الخ ... : راجع :
A Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica notes page 74

(٢) يقصد هوراتيوس Thespis الذى نال جائزة عام ٥٣٤ ق.م فى أثينا . تقول بعض المراجع إنه من ايكريا وهو أول ممثل ظهر منفصلا عن المجموعة وقد لبس قناعا من كتان ساعده على القيام بأدوار متعددة إذ أنه كان يبدل القناع فى كل دور . وما يراه هوراتيوس من أن ثيسبيس اخترع التراجيديا سطر ٢٧٥ الخ) غير صحيح لأن تيسبس لم يخترعها بل اخترع المسرحية بوجه عام ولم يأخذ تسبيس مسرحياته على عربات كما وصف هوراتيوس ويقول المعجم الكلاسيكى فى ذلك لعل هذا الوصف نشأ من اللبس الموجود بين التراجيديا القديمة والكوميديا القديمة . راجع :
The Oxf. Class. Dictionary (1950) (reprinted 1950) Page 899.

أما كلمة تراجيديا فمشتقة من تراجوس الإغريقية ومعناها جدى وهناك ثلاثة آراء فى نشأة التراجيديا وعلاقتها بالجدى .

سرعان ما أظهر ساتيرات الغابة سافرة على المسرح وحاول النكته بخشونة دون أن يمس وقاره بالأذى إذ أن عليه أن يحتفظ بانتباه المتفرج لمدة أطول بمغريات وابتكار جذاب فهو فى حالة شديدة من السكر لا يعى معها أى قانون بعد أن قدم قرابينه، بهذه الطريقة تأتى الفرصة المناسبة حقاً لتطلق ساترياتك الضاحكة المثرثرة على المسرح وتحول الجد إلى هزل حتى لا يتنقل إله أو بطل فى القيام بالأدوار الجزئية وقد شوهد منذ لحظة فى ثوب ملكى أرجوانى اللون مزركش بالذهب وحتى لا يهبط من هذه العظمة إلى مستوى الحانات الغامضة بكلام رخيص وحتى لا يظل ممسكاً بسحب أو الفضاء فى الوقت الذى يترفع فيه عن الأرض، فلا يليق بالشعر جيديا أن تقول أبياتاً تافهة فهى كسيدة المجتمع الرفيع حين يطلب منها أن ترقص فى الأعياد . تختلط بساتيرات الغابة فى شىء من الحياء .

أما عن نفسى يا آل بيزو ، فلو أننى كتبت ساتيرات فلن أحب الأسماء والكلمات غير المنمقة الشائعة السائدة ولن أحاول الابتعاد عن تلون تراجيدى للدرجة التى لا أهتم معها فيما إذا كان المتحدث دافوس(١) أو بيثياس(٢) الجريئة التى كسبت مبلغاً من ... بمداهنة سيدها

أولا : كان يتنافس شعراء تراجيديا كل عام فى عيد ديونيسوس من أجل ... أنه جائزة هذا النوع من الشعر وهو رأى هوراتيوس .

ثانيا : إن مجموعة ... تغنى فى أعياد ديونيسوس كانت تلبس ... جلود ... تعرف بالساتيرا وهى تشبه الجدى ويرى البعض أن التسمية نشأت من هنا .

ثالثا : إن القربان الذى كان يقدم فى هذه المناسبة كان جديا ... وحيد .

(A) The Oxf. Class. Dictionary (reprinted) 1950 page 915 Seqq. (Traged.)

(B) Harv... The Oxford Companion to Classical Literature page 434

(C) فن الشعر لدكتور لويس عوض هامش ٤٦ ص ١٢٦-١٢٩

(١) Davus هو اسم شائع بصفة عامة للعبد فى الكوميديا .

(٢) Pythias هو اسم فى مسرحية ... حيث خدعت سيدها سيمو وكسبت منه مبلغاً من المال اشترت به حريتها .

ميسو أم كان المتحدث سيلنوس (١) حارس ابن الإله أو خادمه ، فغايتى هى نظم شعر يتخذ مادته من المألوف على نحو يجعل الطامع فى الوصول إلى مثله يرتد من محاولاته الجاهدة دون جدوى . فما أعظم الأثر الذى يحدثه تسلسل الكلمات وقرنها وما أجل الشرف الذى تضفيه الصياغة على ما اختاره المرء من واقع المألوف .

وأرى أن الفيوس (٢) التى اجتلبت من الغابات ينبغى ألا تكون كمن ولد فى مفترق الطرق أو كمتشردى الأسواق (الفورم) وينبغى ألا تمثل أدوار الشباب بأشعارها الرقيقة أو تتشدق بأقوال بذيئة لاحياء فيها فإن الفرسان والشيوخ والأغنياء ليتأذون من ذلك ولا يتقبلون بشعور الرضا والاستحسان ما يوافق عليه مشترى الفول الحمص أو البندق كما أنهم لا يمنحون أكليلا .

المقطع الطويل الذى يعقب مقطعاً قصيراً يسمى أيامب وهو تفعيلة سريعة ومن هنا اقتضت الأيامب أن تسمى الأيامبيات بترامبات رغم أنها من ستة إيقاعات (٣) وتتكرر التفعيلة إلى آخر البيت على نسق واحد .

---

(١) Silenus تختلف روايات تقدمه وأرسانهم من سيلينوس، وسيلينوس أصلا نوع من مخلوقات الغابة له ذنب وأذنا فرس . ويطلق اسم سيلنوس على مؤدب باخوس إله الخمر وخادمه (راجع المعجم الكلاسيكى أكسفورد طبعة ١٩٥٠ تحت (Satyrs & Sileni) . ص ٧٩٧ .

(٢) هى ترجمة لكلمة Fauni وهى أصلا أرواح الريف والغابات وقد نشأ منها عبادة Faunus الذى يطابق Pan وهو الذى يحمى المحصول والماشية ويعتبر ال Fauni نوعا من مخلوقات الغابة التى يطابقها الساتيرا لدى الإغريق . راجع :

A Dalton, Horace Epodes & Ars Poetica notes page 77. & The Oxf. Class. Dictionary page 358

(٣) هذا لأن كل تفعيلتين تكونان metrum .

ولم يمض وقت طويل حتى سمح الأديب للتفعيلة السبوندية الرزينة أن تدخل ضمن حقوقها الموروثة لكي تصل إلى الآذان بشيء من البطء والتثاقل فهي مناسبة وثابتة على ألا تقع التفعيلة السبوندية في المركز الثاني أو الرابع من التفعيلات إذا اشتركت مع التفعيلة الأيامبية في تكوين هذا البحر .

ويظهر الأيامب نادراً في ترااميات أكيوس النبيلة ويشكل لأشعار إينياس تهمة شائنة : هي عدم العناية والجهل ، تلك التي أرسلها للمسرح والتي تجر معها حملا ثقيلا .

ولا يميز أي ناقد تشاء ، القصائد اللاموسيقية وقد منح الرومان حرية للشاعر وتسامحوا عن أخطائه تسامحاً غير لائق ، فهل قياساً على هذا أخطىء وأكتب دون قيد ؟ . وبذا اعتقدت أن جميع النقاد سيرون أخطائي ؟ أكون سالماً وحذراً بعوضي أمل التسامح والعفو عن هذه الأخطاء ؟ في هذه الحالة تجنب اللوم ولكني لا أستحق الثناء .

قلبوا بأيديكم النماذج الإغريقية ليلا ثم قلبوها نهاراً ، ولكن قد تقولون إن أسلافكم مدحوا موسيقية بلوتوس وملحه ، وحتى لا أصف إعجاب الأسلاف ببلوتوس بالسخف : أقول إنه كان إعجاب الصابر الذي يفوق صبره الحد : لو أننا — أنا وأنتم — عرفنا فقط كيف نميز بين ما هو غير مصقول وبين ما هو مجذاب معجب . وإذا عرفنا بالتجربة كيف نميز النغم المشروع بآذاننا وأصابعنا .

يروى عن تسبيس أنه اكتشف نوعاً من الشعر لم يكن معروفاً من قبل خاصاً بربة (١) التراجيديا وأنه قد نقل قصائده على عربات ليلقيها ويمثلها رجال صبغت وجوههم بحثالة النبيذ وجه بعده

---

(١) ارجع الى هامش (٢) ص ١٧٨ .

أيسخيلوس (١) مخترع القناع والثوب الجميل وغطى المسرح بألواح خشبية وعلّم الممثلين الكلام الفخم والمشى بالحذاء العالى . تبعت الكوميديا القديمة هؤلاء مباشرة ولم يعوزها المدح والإطراء العظيم ولكن الحرية التى استعملها كتاب الكوميديا وقعت فى رذيلة وعنف يستحقان أن يقمعا بقانون (٢) ، وقد رحب الكتاب بهذا القانون وسكتت المجموعة خزية بعد أن سلب منها حق الإيذاء .

لم يترك شعراؤنا شيئاً لم يعالجوه وحين جرءوا على عدم اقتفاء أثر الإغريق والاحتفاء بالأحداث الرومانية سواء أولئك الذين أنتجوا تراجيديات يلبس فيها البرايتكستا أم كوميديات يلبس فيها التوجا ، فاستحقوا شرفاً ليس بالقليل ، ولو أن كل شاعر آلمه مهمة صقل شعره وتهذيبه لما تفوقت لاتيوم فى الشجاعة والأسلحة الشهيرة على اللغة . فيا أبناء بومبيليوس (٣) ، أدينوا أية قصيدة لم تخضعها الأيام العديدة للتنقيح الشديد وتعرضها عشرات المرات لاختبار دقيق كاختبار النحات بآلته لكشف النتوء الشاذ فوق المرمر الذى يشكله .

ولأن ديموقريتوس(٤) يعتقد أن الموهبة الطبيعية أسعد حظاً من الفن التعس وأبعد الشعراء أصحاء العقول من هليكون (٥) ، لم يهتم عدد كبير من الشعراء بتقليم أظافره أو قص لحيته وأخذ يبحث عن الأماكن الخفية ويتجنب الحمامات ، لسوف يفوز المرء بجائزة

---

(١) الشاعر اليونانى العظيم الذى ينسب إليه أول عمل تراجيدى .

(٢) لقد صدرت عدة قوانين فى هذا الصدد عام ٤٤٠ ق . م ، وعام ٤١٥ ق.م الخ .

(٣) نسبة إلى نوما بومبيليوس

(٤) ديموقريتوس الأبديرى الفيلسوف العظيم الذى مات ٣٥٧ ق . م

(٥) جبل فى بيوتيا ، وفقا للأساطير كان يؤمه ربات الشعر

الشاعر ولقبه إذا لم يعهد إلى الحلاق(١) لوكينوس برأسه الذى لاتستطيع الأنتكريات الثلاث(٢) شفاءه .

آه لحمقى أنا الذى أطهر عصارتى (٣) الزائدة قبل بدء الربيع فلولا ذلك التطهير لما نظم رجل آخر قصائد أفضل؛ ولكن ليس هناك حقاً ما يستحق هذا التقدير العظيم ؛ وعلى هذا سأقوم بدور الرحى التى تستطيع أن تشحذ الصلب وهى فى حد نفسها سلبت القدرة على القطع ففى الوقت الذى لا أكتب فيه بنفسى شيئاً سأعلم وظيفة الشاعر وواجبه ، من أين يأتى بالمصادر؛ ما يغذى الشاعر وما يشكله ، ما يليق به وما لا يليق ؛ إلى أين تقود الفضيلة وإلى أين يقود الخطأ. إن الذكاء الذى أرشدته المعرفة وطورته (٤) التجربة هو منشأ الكتابة ونبعها . والآراء(٥) السقراطية يمكن أن تدلك على المادة فإذا ما توفرت المادة أتت الكلمات فى غير امتناع .

والمرء الذى يتعلم ما يجب نحو وطنه وما يجب نحو أصدقائه وبأى نوع من الحب عليه أن يحب أباه وأخاه وضيفه وما واجب عضو الشيوخ والقاضى وما هى مهمة القائد الذى يرسل للحرب يعرف حقاً كيف يضفى على كل شخصية ما يناسبها .

إنى لآمر المقلد الذى أرشدته (٦) المعرفة وحنكته التجارب أن يجعل نصب عينيه نموذجاً من الحياة والعادات يستقى منه حواراً حياً .

---

(١) كان حلاقاً مشهوراً فى ذلك الوقت يحبه الشعراء [illegible]

(٢) الأنتكريات الثلاث أى جميع الأعشاب التى تنتجها بلدة أنتكيرا ، وهو نوع من نبات كورنث لعلاج الجنون والعدد ثلاثة ليس له مفهوم .

(٣) كانت زيادة العصارة تعتبر سبباً للجنون وتطهير العصارة الزائدة معناه الابتعاد عن الجنون

(٤) هذه الترجمة تحليل لكلمة Sapere التى لا يمكن ترجمتها فى لفظ واحد .

(٥) ترجمة لكلمة Scripta ويعنى ما كتبه أفلاطون وغيره من آراء سقراط .

(٦) هى ترجمة لكلمة Doctum التى أرجعتها من حيث التحصيل الفكرى إلى مصدره الأول وهو Sapere فقد توافر للكاتب الذكاء والمادة وقوة التمييز وأصبح مدركاً لما يحيط به .

فى بعض الأحيان تدخل السرور على الناس بطريقة أقوى قصة لها فقرات بارزة صورت شخصياتها تصويرا صحيحا وإن كانت خالية من أية جاذبية وإن كانت دون وزن أو فن وتستحوذ عليهم وتثير اهتمامهم لمدة أطول مما تثيره أبيات من الشعر خالية من المادة أو مما تثيره توافه رنانة منحت ربة الشعر الإغريق الموهبة والقدرة على التعبير (١) المتكامل والتشوف إلى المجد وحده . يتعلم الصبية الرومانيون كيف يقسمون الآس (٢) إلى مائة جزء بمسائل طويلة فلو طرحت أوقية من خمسة أوقيات فماذا يتبقى؟ ليجب ابن ألبانوس : فى استطاعتك أن تكون قد أجبت «الثلث» حسن ، سوف تتمكن من المحافظة على أملاكك ، أضف أوقية (على خمسة أوقيات) ماذا يكون الناتج ؟ النصف (٣) . ولكن حين يلوث الصدأ والاهتمام بقتناء ملك خاص نفوسنا فهل نأمل فى ابتكار قصائد تستحق أن تطلى (٤) من الخلف بزيت البندق أو تحفظ فى علب من السرو المصقول . يهدف الشعراء إما للنفع أو إدخال السرور أو لقول سار ومناسب للحياة ولتكن موجزاً حين تعلم أى شىء حتى تستبق العقول المتنبهة فهم كلماتك السريعة وتعيها

(١) هى ترجمة Ore rotundo التى شرحها الأستاذ دالتون بالعبارات المكتملة من نواحيها المختلفة A Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica page 84

(٢ ، ٣) الآس عملة رومانية وتساوى ١٢ أوقية وتقسيم الآس إلى مائة قسم هو على سبيل المثال لا الحصر وعلى هذا لو طرحت $\frac{1}{12}$ من $\frac{5}{12}$ تساوى الثلث ولو أضفنا $\frac{1}{12}$ إلى $\frac{5}{12}$ يساوى النصف كما ذكر هوراتيوس .

(٤) شرح أ. دالتون طلاء القصائد بالزيت من الخلف فقال إن ظهر الكتاب كان عادة يطلى بزيت البندق ويقصد به على ما أعتقد الصحائف الجلدية التى كانت تجلب من برجاموس وتطلى بالزيت من الخلف .

بأمنة وإخلاص فكل مازاد عن الحد يسيل من الصدر الممتلىء . وليكن ما ابتكر لغرض الإمتاع قريباً من الحقيقة حتى لا تختار القصة أى شيء وتطلب الثقة به وحتى لاتستخرج طفلا حياً من بطن اللاميا (١) وقد التهمته من التهامه .

إن كثيرين من الكهول يقصون عن المسرح ما لامغزى له أو نفع وقبيلة الرامنيس المتغطرسة تحتقر القصائد الخشنة . لقد نال استحسان الجميع وموافقتهم من مزج النافع بالممتع بإدخال السرور على قارئه وبنصحه على السواء . هذا هو الكتاب الجديد يجلب نقود لبائعى الكتب أمثال آل سوصيوس ، هذا هو الكتاب الذى يعبر البحر ويقترح امتداد الخلود لكاتبه المعروف لأزمنة طويلة .

توجد أخطاء من النوع الذى نحب أن نعفو عنه . الوتر لا يؤدى النغم الذى تريده يد العازف أو عقله فكثيراً ما ينتج نغماً حاداً حين يطلب منه نغماً ثقيلا والقوس لا يصيب دائماً مايهدد بإصابته . فى القصيدة التى يشرق العدد الأكبر من أجزائها لا تؤذينى قطعاً بقع قليلة نتجت عن إهمال أو عجزت الطبيعة بعض الشيء عن تجنبها . فما الذى يؤذيك إذا ؟

كما أن ناسخ الكتب ينتقد العفو إذا ما ارتكب نفس الخطأ دائماً رغم التحذير منه وكما أن عازف القيثارة الذى يخطئ نفس الوتر يضحك منه الناس كذلك الشاعر الذى يهمل ويخطىء كثيراً ، يصبح فى نظرى كوتريلوس (٢) المعروف الذى نتعجب بضحكة لإجادته بيتا أو بيتين فى قصيدته ، وأتألم أيضاً حين يغفو

(١) اللاميا سيدة تأكل الأطفال وكلمة لاميا أصلا كانت تطلق على ملكة فى ليبيا كانت تتصف بالقسوة الشديدة راجع :

A. Dalton Harace Epodes & Ars Poetca page 85

(٢) هو شاعر ردىء تبع الاسكندر وكتب عن أعماله راجع :

The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 187. (Choerilus (3) ille, هنا للتحقير .

هوميروس الذى يجيد الكتابة(١) ومن حق الغفوة ، لاشك ، أن تتسلل فى عمل طويل .

القصيدة مثل الصورة ستجد تلك التى تأخذ بلبك كلما ازددت قرباً منها وأخرى كلما ابتعدت عنها ، هذه تحب الظلام وتلك التى لاتخشى عين الناقد النفاذة وفهمه الحاد تحب أن ترى فى الضوء ، هذه تسرك مرة واحدة وتلك تسرك مهما رجعت إليها عشرات المرات .

يا أكبر الشبان سناً ، خذ هذا القول واذكره رغم ذكائك الذى شحذته(٢) التجارب وطورته المعرفة ورغم صوت أبيك الذى أعدك للحق ، من المسلم به أن أشياء معينة لها توسطها وطاقة محدودة لا يمكن أن تتعداه . رجل القانون أو المحامى من الدرجة الثانية ليست له مقدرة ميسالا (٣) البليغ وقدرته وجدارته وتفوقه ولا يعرف القدر الذى يعرفه أولوس كسكيليوس(٤) ومع ذلك له قيمته ولكن لم تعترف الناس ولا الآلهة ولا بائعو الكتب بالشعر الوسط عند الشعراء ، فكما أن لحن النشاز والدهان السميك وبذور الخشخاش فى النوم التى تقدم مع عسل سردينيا (٥) تؤذينا فى مأدبة لطيفة لأن المأدبة تستطيع أن تتم بدونها ، كذلك القصيدة التى نظمت وابتكرت لارضاء النفوس إن هى نزلت قليلا عن قمة المجد سقطت فى الهاوية .

إن من لايعرف كيف يلعب يتجنب أدوات الرياضة فى ساحة الإله مارس ولجهله باستعمال الكرة أو الطوق أو الحلقة يقبع فى هدوء

---

(١) ترجمة لكلمة bonus التى يمكن تشكيلها حسب السياق

(٢) ترجمة لكلمة sapis ارجع لشرح كلمة Sapere ص ٤٧

(٣) هو معاصر وصديق لهوراتيوس وخطيب بليغ برز فى ميدان السياسة

(٤) رجل ضليع فى القانون وقد مات فى أوائل عصر أوغسطس ، راجع :

A. Dalton Horace, Epodes & Ars Poetica Page 86,87 (Messla; Cascellius.)

(٥) لأنه ردىء .

حتى لا تضحك منه الحلقة المكتظة دون أن يتعرض للوم أو تقريع. من لا يعرف كيف يقرض الشعر يجرؤ أن ينظمه لم لا ؟ فهو حر، وحر المولد وفوق كل هذا مقيد في السجلات ضمن من يمتلكون ثروة الفارس (١) وأبعد عن كل رذيلة.

لن تقول شيئاً ولن تفعل شيئاً ما لم توافق الطبيعة (٢) عليه وتقبله، هذا هو حكمك، هذا هو عقلك وتفكيرك. ومع ذلك إذا كتبت شيئاً يوماً ما فلينفذ أولاً إلى آذان ماكيوس الناقد وإلى آذان أبيك وآذاننا ولتخفه ولتضع صحائفه (٣) في الدرج حتى العام التاسع. وسوف يحل لك حينذاك أن تمحو ما لم تنشره بعد. فالصوت الذي أرسله صاحبه لا يعرف العودة.

خوّف أورفيوس المقدس، ترجمان الآلهة، الرجال حين كانوا يسكنون الغابات من سفك الدماء ومن معيشة متوحشة، وقيل إنه روض النمور والأسود الكاسرة، وقيل عن أمفيون مؤسس مدينة طيبة إنه حرك الأحجار بصوت قيثارته وقادها حيث شاء بتوسله العذب.

كانت هذه هي الحكمة يوماً ما: أن تميز بين العام والخاص من الأشياء وبين المقدس والعادي، وأن تنهى عن الاتصال الجنسي المتنقل، وتعطي الحقوق للمتزوجين، وتضع القوانين وتخطط المدن وتحفر القوانين على ألواح خشبية. هكذا جاء الشرف للشعراء شرف الألوهية وأناشيدها. بعد هؤلاء أثار هوميروس الذائع الشهرة بأشعاره، نفوساً مليئة بالرجولة إلى حروب مارس وكذلك فعل تيرتايوس. وبالأشعار قيلت النبوءات وبالأشعار وضح طريق الحياة.

---

(١) ٤٠٠٠٠٠ سسترسيس

(٢) invita Minerva مثل شائع فسره شيشرون بمعنى id est adversante et repugnante natura ولقد ترجمناه بهذا المعنى. ومنيرفا هي إلاهة الحكمة عند الرومان التي تحمي العلوم والفنون.

(٣) من الجلد للكتابة عليها

واستعطاف الملوك حاوله الشعراء بأنغام بيريه (١) واكتشف الإنسان اللعب ووضع حداً لعمل مضن طويل وقد ذكرت لك كل هذا حتى لا تكون ربة الشعر صاحبة القيثارة وحتى لا يكون أبولو إله الغناء مصدراً للخجل لك .

ولقد تساءل الناس هل القصيدة الجديرة بالمدح نتيجة الموهبة الفطرية أو الفن . (إذا سألتني عن رأيي) فإني أرى أن الدراسة لا تنفع بدون عرق غني من الموهبة (٢) الطبيعية ، والموهبة الفطرية غير المصقولة لا تجدى بدون دراسة . فكل منهما يتطلب عون الآخر ويتآلف معه في صداقة وود . من يحرص في سباق على أن يصل إلى هدف طالما تمناه ، عانى الكثير وقام بالكثير في صباه ، عرق وانتفض وامتنع عن الحب والخمر .

الزامر الذي ينشد القصائد في الألعاب البيثية تعلم من قبل وخاف من أستاذه . ليس يكفي أن يقال إني أنظم قصائد مدهشة . إن الجرب ليصيب (٣) المتخلف في السباق وإنه لمن العار أن أكون متخلفاً وأن أعترف بأني أجهل تماماً ما لم أتعلمه .

الشاعر غني بحقوله وثروته التي يستخدمها في الربا يأمر المتملقين بالذهاب إليه لمكسب ، هو كالمنادي الذي يدفع حشداً من الناس لشراء سلعاته . وإذا كان من النوع الذي يستطيع أن يقدم على مائدته عشاء دسماً أو أن يضمن فقيراً رقيق الحال أو ينتزع رجلا اشتبك في شجار أو وقع في قضية قائمة فسوف أعجب لو عرف هذا السعيد كيف يميز بين الصاحب الحقيقي والمتملق .

---

(١) الأنغام البيريه هي أنغام ربات الشعر والإشارة هنا إلى بندار وسيمونيدس .

(٢) يقصد بكلمة Natura هنا ingenium وهي الموهبة الطبيعية .

(٣) هذا المثل تردده الصبية في سباق حتى لا يتخلفوا من غيرهم في السبق . راجع :
A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica (notes) page 69.

وأنت إذا كنت قد أعطيت فعلا أو نويت أن تعطى لشخص ما هدية فلا تجره وراءك وهو فى غمرة فرحته ليستمع إلى ما نظمت من شعر فسوف ينادى بأعلى صوته «جميل» «حسن» «متقن» وسيشحب لونه شحوباً يفوق الوصف تأثراً بها وقد تصل به الدرجة إلى أن يستجدى قطرات الدمع من عينيه الودودتين ويرقص ويضرب الأرض بقدميه كالنادبات (١) المأجورات فى تشيع جنازة يقلن ويفعلن أكثر من يحزن من قلبه، وعلى هذا النحو يبدى المتملق الساخر تأثراً يفوق تأثر المعجب الحقيقى . يروى عن الملوك أنهم كانوا يلحون بكئوس عديدة على من يسعون إلى سبر أغوار نفسه ويدفعونه للشرب لاختباره بخمر خالصة من الماء لمعرفة ما إذا كان جديراً بصداقتهم . فإن نظمت قصائد فلا تخدعنك مطلقاً النفوس التى تخفى وراءها مكر الثعالب . لو أنك أنشدت شيئاً من شعرك على كونتليين لقال لك صحح هذا وهذا أرجوك ، فاذا أجبت بعدم إمكانك أن تنظم أفضل منه بعد أن حاولت مثنى وثلاث بدون جدوى أمرك أن تسقطه من القصيدة وأن تعيد إلى السنجال الأبيات التى أسأت صياغتها فإن فضلت الدفاع عن خطئك عن إصلاحها لا يضيف كلمة واحدة ولا يبذل مجهوداً غير مثمر بل يتركك لتعجب بنفسك وبشعرك وحيداً بدون منافس . فالشاعر (٢) الأمين الفطن ينقد الأبيات التى لا حياة فيها ويخطئ الغليظة منها ويضع علامة سوداء بحد قلمه الثقيل أمام غير المصقولة منها ويتخلص من المزينات التى ترمى للتأثير فقط ويرغم نفسه لإيضاح ما قل وضوحه ، يدين القول الذى يلتبس فهمه ويعلم على ما يجب

---

(١) وكن يسمين Praeficae .

(٢) السياق هنا يتجه إلى الكلام عن الشعراء وقد ترجمنا كلمة Vir بالشاعر .

تغيره فهو يجعل من نفسه أرستارخوس ولا يقول (لنفسه) كما يقول البعض حين يطلب منهم نقد شاعر «لم أجرح صديقاً في توافهه». هذه التوافه تقود الشاعر إلى ضرر جسيم إن سخر منه مرة ولقي استقبالا مشئوماً.

والشاعر المجنون كالجرب الذي ينغص على المرء حياته أو كمرض الملوك(1) أو كالكاهن الذي يحوم في المعبد وقد مسه جنون من وحي سبيل أو بللونا أو من غضب ديانا. يخاف العقلاء أن يلمسوه، ويهربون منه وتعاكسه الصبية وتتعقبه دون حذر. أما هو فبينما يلفظ أبياتاً من الشعر وهو رافع رأسه، فلو أنه سقط في بئر أو هوة عميقة كصقر يحدق في طيور سوداء – فإنه مهما يصيح «أغيثوني: أي إخواني المواطنين» فإنه لن يجد من يهتم برفعه من تحت البئر. وإذا اهتم أحد بمد المساعدة له أو بإدلاء حبل له (فسأقول). كيف تعرف إن كان قد ألقى بنفسه إلى هذا المكان وهو فطن لذلك أو إن كان لا يرغب عن الإنقاذ.

سوف أقص عليك نهاية الشاعر الصقلي امبدوكليس(2) فقد ألقى بنفسه إلى بركان أيتنا المحترق وهو هادئ الأعصاب حين أراد أن يعتبر مخلداً، فليكن للشعراء حق إفناء أنفسهم، فيجعلهم هذا الأمر فمن ينقذ شخصاً بغير رغبته فهو يفعل عين ما يفعله القاتل. ولا يفعل الشاعر هذا مرة واحدة، وإن كان هو قد جر من هذه الهوة فهل يصبح في التو إنساناً مثل غيره من الناس ويترك حبه لميتة مشهورة.

ولا يظهر لي بوضوح كاف السبب الذي يدأب من أجله على نظم

---

(1) مرض الملوك إما الصفراء أو النقرس فكلاهما يحتاج إلى العطلة والركون إلى الراحة والمال وقد سمي بهذا الاسم نظراً لتوفر كل هذه الأشياء للملوك.

(2) قصة موته التي وصفها هوراتيوس مشكوك فيها.

الشعر وعما إذا كان نجس رماد (١) أجداده بالبول أو حرك وهو نجس ، قرباناً حزيناً ضحى لتهدئة مكان ملعون نزلت عليه صاعقة من السماء . وعلى كل حال إن الرجل جن جنونه وهو كالدب إن استطاع كسر قضبان قفصه الحديدية المنيعة بدفع الجاهل والعالم
٤٧٥ على الهروب من تلاوة أشعاره فإن هو انتزع أحدهم يمسك به ويقتله بالقراءة فهو مصاص للدماء لا يكاد يترك جلد فريسته إلا مليئاً بالدم .

---

(١) كان الرومان يحرقون جثث الأموات .

(١) النصوص والقواميس

H. A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica, 1933.

H. R. Fairclough, Horace, Satires, Epistles & Ars Poetica (Loeb Edition) 1936

P. Harvey, The Oxford Companion To Classical Literature 1951.

The Oxford Classical Dictionary, (repinted) 1950.

(٢) المراجع

J. W. H. Atkins, Literary Criticism in Antiquity 1934.

B. Bosanquet, History of Aesthetic 1892.

S. H. Butcher, Aristotle's Theory of Poetry and Fine Art. 1895.

L. Cooper, Aristotle on the Art of Poetry 1913.

J. D. Denniston, Greek Literary Criticism, 1924.

E. Egger, Essai sur L'histoire de la Critique Chez les Grecs 1885.

G. C. Fiske, Lucilius & Horace, 1920

W. R. Roberts, Greek Rhetoric and Literary Criticism 1928.

J. H. Rose, A. Hand book of Greek literature (fourth edition) 1950

J. H. Rose, A. Hand book of Latin Literature (third Edition) 1954

G. Saintsbury, History of Criticism and Literary Taste 1900

E. Sandys, History of Classical Scholarship 1903

E. E. Sikes, The Greek View of Poetry 1931

W. K. Winsatt & J. R. Brooks. Literary Criticism 1957

ملاحظات على جيومورفولوجية المنطقة الشرقية
من إقليم مريوط

للدكتور علي عبد الوهاب شاهين

يعتبر اقليم مريوط من أكثر أجزاء الجمهورية العربية المتحدة حظاً في نصيب من الدراسات العلمية الجيولوجية والهيدرولوجية والنباتية والجيومورفولوجية والجغرافية . ويهمنا هنا الجانب الجيومورفولوجي الذى يتناول المظهر التضاريسي من حيث نسقه الراهن وخصائص عناصر وحداته الرئيسية بالدراسة التحليلية التي قد تؤدي مع ألوان المعرفة العلمية الأخرى في تلمس العوامل التي كان لها الفضل في وجوده والتي أدت به إلى أخذ صورته الراهنة .

ولما كانت منطقة البحث لا تشغل من اقليم مريوط الا رقعة صغيرة في أقصاه الشرقي إلى الغرب من مدينة الاسكندرية (أنظر الخريطة رقم ١) وحتى تتبين مكانة الشجرة في الغابة كما يقولون فلا ضير قبل تناول الظاهرات الجيومورفولوجية التي عرضت بالدراسة الحقلية في المنطقة المختارة أن نعرض سريعاً لأهم نتائج الدراسات التي عالجت نشأة المظهر التضاريسي وتاريخه في اقليم مريوط

تتفق معظم الدراسات على أن أظهر ما تتميز به تضاريس اقليم مريوط وجودها في صورة سلاسل تلالية متوازية تفصلها بعضها عن بعض منخفضات طولية ، وتسير هذه التلال والمنخفضات في نظام موازى لساحل البحر المتوسط . استرعى هذا التناسق التضاريسي اهتمام الدارسين السابقين ، فأعطوا وصفاً تضاريسياً للوحدات الطبوغرافية الرئيسية لهذا الاقليم كما قاموا بدراسات تحليلية لتكويناته الجيولوجية : حدت بهم هذه الدراسات إلى محاولات التفسير أصل نشأة وتاريخ هذا النمط التضاريسي وانقسمت هذه المحاولات إلى رأيين رئيسيين : يرى أصحاب أحدهما أن هذا النسق

الضواريس يرجع إلى عوامل التعرية البحرية ، فى حين أن أصحاب الرأى الآخر يرون أنه مدين بوجوده إلى التعرية الهوائية الساحلية .

ويرى أصحاب التعرية البحرية أن السلاسل التلالية - التى يختلف عددها من دارس إلى آخر نتيجة الاختلاف فى مساحة المنطقة المتناولة بالدراسة (١) . عبارة عن حواجز بحرية "Marine Bars" أو ألسنة بحرية "Spits" قوامها ذرات رملية جيرية بويضية متماسكة ، أصابتها عملية التحول الكيميائى خاصة فى السلاسل التى تقع إلى الجنوب من السلسلة الساحلية التى تغطيها لاتوافقياً كثبان رملية غير متسقة وغير ملتحمة الذرات . كما يرون أن المنخفضات البينية كانت بحيرات ساحلية "Lagoons" بها ارسابات بحرية من طبقات متبادلة من الجبس والمارل (٢) .

أما أصحاب الرأى الآخر ، فانهم يعزون هذه السلاسل التلالية وما بينها من منخفضات إلى التعرية الهوائية الساحلية نظراً لانعدام الطباقية المنتظمة فى تكوينات هذه التلال والصقل الحبيبات الرملية البويضية بصورة واضحة وكذلك لأن انحدار سطح هذه السلاسل التلالية ناحية الجنوب أشد منه صوب البحر . ولذلك فانهم يرونها كثباناً رملية شاطئية قديمة تكونت بفعل الرياح الشمالية الغربية على طول شطئان بحرية قديمة تحف شدىء (أى سيف بحر) متراجع أو منحسر . ثم تماسكت حبات هذه الكثبان بفعل الرطوبة والأمطار التى كان لها الفضل فى تكوين لحاء صخرى صلب وتفاعلات كيميائية أدت إلى عملية تماسك كيميائى ظهرت فى صورتها الصخرية المتماسكة "recrystallized" ويرى بعض المؤيدين لهذا الرأى أن المنخفضات المحصورة بين تلك السلاسل

(١) أنظر الجدول رقم ١

(٢) تناصر هذا الرأى م Shukri — George — Zeuner — Blanckenhorn — Fourtau ، Said, Philip . أنظر قائمة المراجع فى آخر المقال

ترجع فى وجودها إلى حركات أرضية كالانكسارات وعملية الارتكاز الأرضى Subsidence (١).

ومن حيث تاريخ هذا الخط الشاطئى ، فقد كانت هناك محاولات من قبل الدارسين قائمة على أساس ما تحويه هذه السلاسل من حفريات ، وكذلك مقارنة مناسيب السلاسل الثلاثية بمناسيب أرصفة بحرية (فى ولاية برقة الليبية وفى الجزائر) والمصاطب النهرية لوادى النيل المعروفة العمر . أسفرت هذه المحاولات على أن هذه السلاسل استغرقت فى تكوينها بين الفترة الصقلية ⁽¹⁾ وفترة ما قبل العصر الرومانى Pre-Roman . ويوضح الجدول رقم (١) نتائج هذه [illegible]ولات .

١ — ويلاحظ من هذا الجدول أن فورتو[illegible]ى أن السلاسل الأربعة التى لاحظها تكونت كلها فى [illegible] ، فى حين يرجع [illegible] السلسلة الأولى و[illegible] الثانية (عند [illegible]) إلى أواخر الحضارة [illegible] . و[illegible] يتفق [illegible] مع كل من [illegible] وسعيد [illegible] عدد الحواجز الثلاثية وحتى فى تاريخها (٢) أما [illegible] متصف [illegible] . وقد لاحظ كل من [illegible] عدم [illegible] فى تكوينات هذه السلاسل [illegible] تكون قد تكونت بعد العصر الحجرى [illegible] عدم وجود هذه الآلات لا [illegible] السلاسل قد تكونت بعد الحجرى القديم ([illegible] ٧٨ - ٨٣) . وقد حاول [illegible] الربط بين الأرصفة البحرية

---

(١) [illegible] كل من
Hume & Little (1928) — Hume (1925) — Hume & Hughes (1921) — Shata (1955) — Hilmy (1951) — Picard (1943) — Sandford & Arkell (1939) — Ball (1939).

(٢) أطلق زويز اسم جبل أبو صيره على السلسلة الساحلية ذات الكثبان الرملية خطأ واسم جبل مريوط على حاجز أبو صيره واسم هانا كرانسيو على جبل مريوط — وهذا خطأ ربما يكون مرده إلى الخريطة التى استخدمها .

جدول رقم (١) يوضح محاولة تأريخ السلاسل التلالية في إقليم مريوط، مع ربطها بالمصاطب النيلية والأرصفة البحرية في ولاية برقة الليبية (١)

فورتو ١٨٩٣	بلانكنهورن ١٩٠١، ١٩٢١	هيوم وهيوز ١٩٢١	ساندفورد وآركل ١٩٢٩	بول ١٩٣٩	زونر ١٩٥٢	شكري – فيليب وسعيد ١٩٥٦	ماكبرني وHey ١٩٥٥ أرصفة برقة البحرية	المصاطب النيلية
					حاجز رقم ١٠ الجزر الشاطئية منسوب سطح البحر الحالي الفترة الدفيئة الأولى من الدورة الجليدية الأخيرة	حاجز رقم صفر الجزر الشاطئية منسوب البحر الحالي قبل الفترة الرومانية		٣ متر الموستيرية الوسطى
		كثبان رملية بويضية	كثبان شاطئية حديثة	كثبان شاطئية	حاجز رقم ٩ جبل أبو صير منسوب البحر ٥ – ١٠ متر آخر الحضارة المستيرية	حاجز رقم ١ الحاجز الساحل المنسوب السائد ١٠ متر آخر الحضارة المستيرية	٦ متر	٩ متر الموستيرية المبكرة
كوم سيدي كرير بليوسين	جبل سيدي كرير	سلسلة أبو صير الضيقة	سلسلة أبو صير	السلسلة الأولى أواخر الحضارة النيلية	حاجز رقم ٨ جبل مريوط منسوب البحر ١٥ – ٢٠ متر الحضارة المستيرية	حاجز رقم ٢ حاجز أبو صير المنسوب السائد ٢٥ متر الحضارة المستيرية	١٠ – ٢٥ متر	١٩ متر أشيلي
كرم القطاف ١ أو جبل البطن بليوسين	جبل مريوط المنسوب ٤١–٤٥	جبل مريوط وجبل القرن سلسلة مزدوجة	سلسلة جبل مريوط	السلسلة الثانية أواخر الحضارة النيلية	حاجز رقم ٧ ساناكرا منسوب البحر ٣٥ متر تيراني	حاجز رقم ٣ جبل مريوط المنسوب السائد ٣٥ متر تيراني	٣٠–٤٠ متر	٣٠ متر شيلي
كرم القطاف ٢ بليوسين	جبل نابل المنسوب ٩٠ متر	الهضبة الساحلية لا توجد في صورة [illegible]			حاجز رقم ٦ حاجز الرويسات منسوب البحر ٥٨ متر ميلازي	حاجز رقم ٤ خشم الكيش المنسوب السائد ٦٠ متر ميلازي	٤٤–٥٥ متر	٤٥ متر

كرم القطف ٣ بليوسين				حاجز رقم ٥ جبل ابن جابر منسوب البحر ٨٠ متر صقل «هـ»			٦٦ متر
				حاجز رقم ٤ حاجز علم الخفا منسوب البحر ٨٠ – ١٠٠ متر صقل «د»	حاجز رقم ٥ حاجز علم الخادم المنسوب السائد ٨٠ متر صقل «د»		٩٦ متر
				حاجز رقم ٣ حاجز عجيرطة منسوب البحر ٨٥ متر صقل «ج»	حاجز رقم ٦ حاجز عجيرطة المنسوب السائد ٨٥ متر صقل «ج»	٧٠–٩٠ متر	
				حاجز رقم ٢ حاجز رقبة الخالف منسوب البحر ٩٠ متر صقل «ب»	حاجز رقم ٧ حاجز رقبة الخالف المنسوب السائد ٩٠ متر صقل «ب»		١١٥ متر
			السلسلة الثالثة الحضارة السلية المتأخرة	حاجز رقم ١ حاجز علم شلتوت منسوب البحر ١٠٣ متر صقل «أ»	حاجز رقم ٨ حاجز علم شلتوت المنسوب السائد ١١٠ متر صقل «أ»	١٤٠ متر	

1 — Shukri, N.M., Philip, O. & Said, R. 1956 : The Geology of The Mediterranean Coast between Rosietta and Dardia. Part II: Pleistocene Geomorphology and Microfacies. Bull. Inst. D' Egypte, Tom XXXVII pp. 400 - 401.

التى لاحظها Deperet فى الجزائر وبين مصاطب وادى النيل فسارت مقارنتهما على النحو الآتى :

جدول (٢) يوضح الربط بين المصاطب النيلية والأرصفة البحرية فى كل من ساحل الجزائر وساحل ولاية برقة الليبية (١)

مصاطب وادى النيل الارتفاع من منسوب السهل الفيضى	الأرصفة البحرية فى الجزائر	الأرصفة البحرية فى ولاية برقة الليبية
المصطبة الأشيلية ١٨ متر	الرصيف المنستيرى ٨–٢٠ متر	١٥ – ٢٥ متر
المصطبة الشيلية ٣٣ متر	الرصيف التيرانى ٢٨–٣٥ متر	٣٥ – ٤٠ متر
المصطبة التى على منسوب ٤٥ متر المصطبة التى على منسوب ٥٥–٦٠	الرصيف الميلازى ٥٥–٦٠ متر	٤٤ – ٥٥ متر
المصطبة التى على منسوب ٩٠ متر المصطبة التى على منسوب ١١٥م	الرصيف الصقلى ٩٠ – ١٠٠ متر (أوائل البليستوسين)	٧٠ – ٩٠ متر ١٤٠ – ٢٠٠ (شاطئان بحريان)

هذه صورة مختصرة وسريعة لنتائج المحاولات التى بذلت لتقصى حقيقة أمر هذه الحواجز الثلاثية من حيث عوامل نشأتها وتاريخها مع ربطها بالظاهرات الجيومورفولوجية الأخرى التى تربطها بها علاقة النشأة مثل الأرصفة البحرية والمصاطب أو المدرجات النهرية فى وادى النيل .

مناقشة لأهم الظاهرات الجيومورفولوجية فى منطقة البحث

تشغل منطقة البحث مساحة تقدر بحوالى ٣٠٠ كيلومتر مربع ممتدة من غرب الاسكندرية عند ضاحية المكس فى اتجاه جنوبى غربى حتى غرب « سيدى كرير » بحوالى ٤ كيلو متر ، ومن ساحل البحر المتوسط حتى الحافة التى تشرف على منخفض العامرية — كنج مريوط جنوباً . ولقد استخدمت الخرائط الطبوغرافية مقياس رسم ١ : ٢٥,٠٠٠ فى الدراسة الحقلية ،

(١) هذا الجدول جمع من R. W. Hey, C. B. M. Mc Burney (١٩٥٥ صفحة ٧١)، F. B Zeuner (١٩٦٢ صفحة ٢٣٥)، شكرى وفيليب وسعيد (١٩٥٥ صفحة ٣٩٧)، ساندفورد وآركل (١٩٣٩ – صفحة ٧٨ – ٨٢) .

وميزان آبنى "Abney - Level" لقياس درجة الانحدار . وباستخدام علامات اصطلاحية مناسبة أمكن عمل خريطة جيومورفولوجية للمنطقة (خريطة رقم ١) ، كما استخدمت الصورة أيضاً فى تسجيل بعض هذه الظاهرات الجيومورفولوجية (أنظر الصور المرفقة) .

وقبل مناقشة هذه الظاهرات هناك ملاحظة عامة على الدراسات التى تناولت اقليم مريوط وهى أنه على الرغم من أن المظهر التضاريسى لهذا الاقليم يعتبر فى جملته مظهراً [illegible] جغرافياً ، أى كانت عمليات الارساب بحرية كانت أم هوائية [illegible] فى [illegible] وتكوينه ، وأنه كان ضرورياً عند محاولة معرفة أصل نشأته وتقصى فترة تكوينه أن يبحث الدارسون فى خصائص المواد المكونة له و[illegible] هذه المواد فى [illegible] من حفريات وآثار [illegible] ، واستفاضوا فى دراستهم [illegible] دون اعطاء [illegible] الجيومورفولوجى فى [illegible] القدر من الاهتمام . [illegible] الجيومورفولوجية [illegible] فى [illegible] عوامل نشأته وتاريخ [illegible]

الوحدات [illegible]

لا [illegible] الوحدات [illegible] الآتية [illegible] صورة [illegible]

١ — [illegible]

The Coastal Sand Dunes Field.

٢ — منخفض الدخيلة — [illegible]

El-Dekheila — El Deraa El Bahri Depression.

٣ — سلسلة سيدى كرير [illegible] المكس — أبو صير

Sedi-Krier or El Max - Abu - Sir Ridge

٤ ــ منخفض ملاحة مريوط Mallahet Maryout Depression.

٥ ــ سلسلة جبل مريوط. Gabal Maryout Ridge.

٦ ــ منخفض العامرية ــ كنج مريوط
El - Amrya — Ikingi Maryout Depression.

٧ ــ حافة هضبة مريوط Maryout - Upland Cliff.

وسنحاول فى الصفحات التالية مناقشة أهم الظاهرات الجيومورفولوجية التى يتميز بها سطح كل وحده من هذه الوحدات التضاريسية .

١ ــ سلسلة الكثبان الرملية الساحلية

The Coastal Sand Dunes Field

تبدأ هذه السلسلة عند رأس العجمى ثم تسير فى اتجاه جنوبى غربى إلى الحد الغربى لمنطقة البحث وتمتد هذه السلسلة أبعد من ذلك ناحية الغرب إلى مشارف السلوم بحوالى ١٣ كيلو متر إلى الشرق منها ، أى أن امتدادها الكلى قد يصل إلى حوالى ٥٠٠ كيلو متر والسلسلة الساحلية فى امتدادها هذا متصلة الأجزاء إلا حيث يقوم البحر بمهاجمة أجزائها الضعيفة فيترك أثر نحته فى إيجاد ظاهرة السلات البحرية Sea Stacks كما هو واضح فى منطقة مرسى مطروح . ولقد أبانت الدراسة الحقلية أن البحر يعمل فى أجزاء هذه السلسلة الموجودة فى متناول فعل مياهه ، فتظهر بعض الحافات والجروف الساحلية مما قد يحمل الدارس على أن هذه السلسلة كانت أكثر امتداداً ناحية الشرق صوب مدينة الاسكندرية إذ أن خليج ميناء الاسكندرية يقطع امتداد هذه السلسلة والمنخفض الذى يقع إلى الجنوب منها فى هذا الاتجاه . وانه يمكن اعتبار رأس قصر التين وقلعة قايتبى وبعض الجزر الشاطئية أمام الاسكندرية بقايا لهذه السلسلة ناحية الشمال الشرقى ، وان كان بعض الدارسين ومنهم «زوبير» وشكرى وفيليب وسعيد ، يرون أن هذه الجزر تمثل سلسلة منفصلة عن السلسلة الساحلية .

ويبلغ أقصى منسوب لهذه السلسلة حوالى ٢٠ متر فوق منسوب البحر ، ولكن متوسط ارتفاعها هو أكثر بقليل من ١٠ متر فوق سطح البحر . ولا تمثل الأجزاء المحصورة بخط كنتور ٢٠ متر الا جزوراً متناثرة فوق سطح هذه السلسلة ، أما خط كنتور ١٥ متر فانه أكثر وضوحاً وتشغل المناطق المحصورة به مساحات كبيرة قد تمتد فى أطوالها إلى بضعة كيلو مترات . ومتوسط عرض هذه السلسلة هو حوالى ٤٠٠ متر ولكنه قد يصل فى بعض أجزائه إلى حوالى كيلو متر .

وتتكون هذه السلسلة من الطبقات الكاذبة ليست شديدة التماسك ذات ذرات رملية جيرية بويضية بيضاء تغطيها فى بعض أجزائها طبقة من التحاء الصخرى أكثر تماسكاً وصلاحية ذو لون بنى فاتح من نفس مادة الذرات الرملية البيضاء . وتظهر هذه السلسلة انحداراً بسيطاً نحو البحر (حوالى ١٠°) وانحدار شديداً ناحية الأرض اليابسة (ما بين ٢٠° ، ٢٥°) خاصة فى منطقة منها الواقعة إلى الغرب من سيدى كرير . وتغطى تكوينات هذه السلسلة — لاتوافقياً — كومات من الكثبان الرملية التى تنمو عليها أعشاب طويلة خشنة وأهم ما تتميز به هذه الكثبان الرملية أنها ناصعة فى بياضها ولا توجد فى نظام معين ، إذ أن اختراق هذه المنطقة على طول عدة خطوط مستعرضة للاتجاه العام لها قد أبان للدارس أن هذه الكثبان الرملية غير منتظمة وغير متماثلة فى حجمها وفى منسوبها ، وكذلك فى توجيهها .

وإذا ما اعتبرت هذه السلسلة — بصفتها أحدث السلاسل — وما عليها من ارسابات هوائية ساحلية ، حاضراً يمكن أن نستشف منه صيغة السلاسل الأخرى الأقدم . فانه يصعب علينا أن نقارن مظهر هذه السلسلة الطبوغرافى إذا ما قدر له أن تتماسك ذرات الكثبان الرملية بصورتها الراهنة ، مع المظهر الطبوغرافى لأية سلسلة من السلاسل الداخلية القريبة . وهذا بدوره يجعل من الصعب الموافقة على أن هذه السلاسل قد نشأت نتيجة الارساب الهوائى وأنها كانت كثباناً هوائية ساحلية أصابتها عملية التماسك بفعل مياه الأمطار

والرطوبة ، إذ أن فعل مياه الأمطار قد يكون مساعداً على انفككها وإزالتها أكثر من مساعدته على تماسكها وبقائها بشكل منتظم .

٣ – منخفض الدخيلة – الدراع البحرى :

El Dikhiela — El Draa El-Bahri Depression

يقع هذا المنخفض بين السلسلة الساحلية وسلسلة المكس – أبو صير (سيدى كرير) . ويمتد فى اتجاه عام من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى . وأهم ما يتميز به هذا المنخفض انه فى امتداده ناحية الشرق يقطع عرضياً بمياه البحر كما تقطع السلسلة الشمالية، وقد يكون له تمثيل فى مدينة الاسكندرية خاصة الأجزاء القريبة منه من البحر (طريق الكورنيش) ولو كان البحر فى بعض أجزائه على طول ساحل مدينة الاسكندرية قد تمكن من الاتيان على السلسلة الساحلية وهدد المنخفض وأصبحت أمواجه ترتطم بسلسلة أبو صير كما هو الحال عند الاجمى ومندرة وسيدى بشر والمنتزه ومن ثم فان ساحل العجمى غربى الدخيلة يعرف باسم الساحل المستعرض " Discordant "

ويبدأ هذا المنخفض فى عروضه التى تختلف من منطقة إلى الأخرى إلى حوالى كيلو متر [illegible] متوسط ارتفاع قاعه حوالى ٥ متر فوق سطح البحر ولكنه قد ينخفض فى بعض جهاته إلى مستوى البحر أو دونه بقليل وكذلك قد يرتفع فى بعضها إلى ١٠ متر فوق سطح البحر [illegible] كثبانه قد تصل فى [illegible] ٥ متر [illegible] التى أرجعها Paver (١٩٥٦) [illegible] المطر فى صورة [illegible] المواد [illegible] وتبخر مياه الأمطار [illegible]

ولقد أثبتت الدراسة الحقلية بالاضافة إلى [illegible] بعض الظاهرات الجيومورفولوجية فى هذا المنخفض فى حدود منطقة البحث

إلى الغرب من سيدى كرير حتى التقاء هذا المنخفض بمياه البحر المتوسط.
إلى الشرق من مطار الدخيلة ، يتضح أن المنخفض الذى يطلق عليه أحياناً
اسم «وادى مريوط» يفقد صفات الوادى فى كثير من أجزائه . فالمنطقة
منه التى تقع إلى شرق بلدة الدخيلة تبدو وكأنها كانت خليجاً بحرياً انحسرت
مياه البحر عنه وذلك لما يتميز به من أرض مستوية ذات تربة ملحية رمادية
اللون وما يحيط هذه الأرض المسطحة من سياج من أرض منحدرة قد تكون
دليلا على منسوب مياه البحر الذى كانت تغطى مياهه أرض هذه المنطقة
وإذا ما سرنا غرباً حتى نصل منطقة تفرع طريق الاسكندرية — القاهرة
من طريق الاسكندرية مرسى مطروح نجد أن هذا المنخفض قد أخذ صفة
الوادى ذى الجوانب المحددة المنحدرة . ولربما يرجع هذا إلى انصراف
المياه المتجمعة من الأمطار ومن عملية التسرب صوب البحر فى اتجاه شمالى
شرق . ولكن ما نلبث أن نتجه غرباً حتى نرى منطقة مسطحة تبدو وكأنها
كانت قاعاً لبحيرة ساحلية فى منطقة اللوزاغ البحرى . وفى بعض الأماكن
يرتفع منسوب قاع هذا المنخفض حتى أن صفة الانحدار من السلسلة الشمالية
إلى هذا المنخفض تكاد تكون معدومة ويبدو قاع هذا المنخفض وكأنه رقبة
تربط بين السلسلة الساحلية والسلسلة الموازية لها إلى الجنوب منها (أبو صير) .
وعموماً فهذا يدل على اختلاف عملية النحت والارساب على طول قاع
هذا المنخفض الذى لا يخلو فى كثير من أجزائه من الارسابات الهوائية
الرملية المحمولة من المنطقة الساحلية [illegible] المنخفض [illegible]
من سلسلة أبو صير والتى جعلت من [illegible] المنحدرات [illegible] الرطوبة
والأمطار تربة خصبة لزراعة أشجار [illegible] تجدها على جانبي [illegible] المنخفض
وفى قاعه . وارتفاع قاع المنخفض فى [illegible] – [illegible] البعض
الآخر يمكن ارجاعه إلى التراكمات [illegible] الهوائية [illegible] صلابتها
الحالية واستقرارها من رطوبة المنطقة (رشح) الذى ترسبت فيه .

بعد تناول هذين المظهرين التضاريسيين فى منطقة البحث كل على حدة ،
يرى الباحث ضرورة معالجة الوحدات التضاريسية الأخرى معاً ، وذلك

الإقليم من اتصال واستمرار الظاهرات الجيومورفولوجية بها . وهذه الوحدات التضاريسية هي : سلسلة المكس — أبو صير (سيدى كرير) وسلسلة جبل مريوط ثم حافة هضبة مريوط وأخيراً منخفض سبخة مريوط والعامرية .

وتتميز هذه الوحدة التضاريسية بوجود بعض الظاهرات جيومورفولوجية التى استرعت انتباه الدارسين السابقين والتى من أهمها تلال الانعزالية على محورى الحاجزين التلاليين الرئيسيين (المكس - أبو صير وحاجز جبل مريوط) ، وكذلك وجود بعض الجزر على قاع منخفض بحيرة مريوط ، وتحدب القطاع لمحورى السلسلتين السابقتين ، ثم ملاحظة بعضيه شدة فى درجة انحدار منحدرات هاتين السلسلتين نحو الأرض اليابسة عن نحو البحر . وكانت هناك محاولات نحو تعليل أصل نشأة تلك الظاهرات ثم تأريخها كما أشرنا سابقاً . ولقد أظهرت الدراسة الحقلية فى منطقة البحث ظاهرة جيومورفولوجية أخرى هامة ، تلك هى وجود تتابع سمى من أراضى شبه مستوية ذات مناسيب مختلفة على المنحدرات التى تصل محورى سلسلتى المكس - أبوصير وجبل مريوط بقاعى منخفض سبخة مريوط والعامرية .

ولكى نتمكن من مناقشة هذه الظاهرات مناقشة جيومورفولوجية سليمة ، لابد من التعرف على أهم الخصائص الجيولوجية لهذه المنطقة لندرك ما قد يكون لها من أهمية فى تفهم هذه الظاهرات خاصة المظهر السلمى الذى تتصف به منحدرات هاتين السلسلتين (الحاجزين)

أهم الخصائص الجيولوجية :

لقد أوضحت الدراسات الجيولوجية أن سلسلة «المكس — أبو صير» تتكون فى جملتها من الحجر الجيرى الحبيبى الناصع البياض . يعلوه غطاء صخرى رقيق من حجر جيرى بللورى ذى لون بنى فاتح أكثر صلابة من الحجر الجيرى الحبيبى ، وقد يصل أحياناً فى سمكه إلى عشرة سنتيمترات . ونسبة الحبيبات الكلسية فى قوام الصخر تصل إلى ٦١٪ ، فى حين أن المادة

اللاحمة التي توجد في صورة بللورات كلسية تملأ ثنايا الذرات الحبيبية الجيرية هي ٣٧٪ ، ويكاد ينعدم وجود الحبيبات الكوارتزية في هذا الحاجز . ويتراوح قطر الحبيبات الجيرية ما بين ١٫٠ مليمتر ، ٠٫٢٥ مليمتر ، ولكن أحياناً ما تكون هذه الحبيبات دقيقة فيصل قطر الحبة إلى ٠٤ و . مليمتر وأحياناً أخرى تكون غليظة فيصل قطر الحبة إلى ١٠٠٢ مليمتر .

وكذلك الحال بالنسبة لحاجز «جبل مريوط» الذي يتكون هو الآخر من حجر جيري حبيبي أبيض اللون ويختلط أيضاً بصخرى صلب ذو لون بني داكن يشبه في تكوينه المواد المتحسبة التي تغطي حاجز أبو صير ولكنه يحتوي هنا على بعض المعادن الثقيلة في صورة سليكات متماسكة Insoluble Silicates وكوارتز تغطيه أكسيد الحديد والحبيبات الجيرية في هذا الحاجز تمثل ٤٣٪ من قوام الصخر ، في حين تمثل ذرات الكوارتز والمعادن الثقيلة ٣٪ . أما المادة اللاحمة فتوجد بنسبة ٣٦٪ وتمثل النسبة الباقية (١٨٪) بقايا عضوية حيوانية . وتتباين الذرات والحبيبات الجيرية في أحجامها تبايناً واضحاً إذ يختلف قطر الحبة من ٠٫٠٥ إلى ١٫٤ سنتيمتر ولكنه يتراوح في المتوسط ما بين ٠٫٤ مليمتر و ٠٫٦ سنتيمتر .

هذا عن نوع الصخر Lithology أما عن نظامه Structure فان تكوينات هاتين السلسلتين تتميز بصفة الطباقية الكاذبة False Bedding ، فهي عموماً في سلسلة «أبو صير» يكون الميل صوب البحر في نصفها الشمالي وصوب اليابس في نصفها الجنوبي ، والميل صوب اليابس أشد منه صوب البحر . وفي سلسلة «جبل مريوط» توضح المحاجر الموجودة على طول هذه السلسلة صفة الطباقية الكاذبة بأجلى صورها حيث تصل درجة الميل ما بين ٣٠°ـ ٣٥° جنوباً و ٤٥° شرقاً .

هذا عن الخصائص الجيولوجية لأهم الظهيرين التضاريسيين في منطقة البحث أما الأحواض البينية (منخفض مريوط ومنخفض العميرية) وما بها من جزر خاصة في منخفض سبخة مريوط ، فانها تتكون في أسسها من مواد جيرية

حيية لا تختلف عن تكوينات السلاسل التلالية المحيطة بها . وتغطى قيعانها بتربة شبه ملحية لومية .

يتضح لنا من هذا العرض المختصر لاهم المميزات الجيولوجية ، أن الفروقات بسيطة بحيث تنعكس على المظهر التضاريسي وتؤثر على الانحدارات التي تربط بين حافات السلاسل التلالية وقيعان الأحواض البينية وإذا ما عددنا هذه الفروق بالنسبة لأهمية عوامل التعرية في شرح الظاهرات الجيومورفولوجية أكثر من أهمية الاختلافات في التكوين الجيولوجي .

محاولة لشرح الظاهرات الجيومورفولوجية :

تسير سلسلة مكس - أبو صير في توازي واضح مع السلسلة الساحلية ولكنها تمتد بعيداً في الاتجاه الشمالي الشرقي خارج الحدود الشرقية لمنطقة البحث حتى تنتهي إلى الشرق من مدينة الاسكندرية . ويصل أقصى ارتفاع لهذه السلسلة إلى حوالي ٥٢ متر فوق سطح البحر عند كوم النجوس Kom El Nagus (خارج منطقة البحث) وهذا الارتفاع قاصر على هذه المنطقة . وخط كنتور ٤٠ متر ، ٣٥ متر فوق سطح البحر فإنهما يكونان متقطعين حول القمم التلالية على طول محور هذه السلسلة في حين أن خط كنتور ٣٠ متر يعتبر أوضح الخطوط الكنتورية ويمكن اعتباره ممثلاً لمنسوبها .

أما سلسلة جبل مريوط الذي يقع الى الجنوب من ساحل البحر المتوسط على مسافة تتراوح بين ٥-٩ كيلومتر والذي يفصله عن حافة مكس - أبو صير منخفض سبخة مريوط فيبلغ متوسط ارتفاعه عن سطح البحر حوالي ٣٥ متر ولكن قد ترتفع بعض أجزائه خاصة في قسمه الشمالي الشرقي إلى حوالي ٤٥ متر فوق سطح البحر في صورة جزر تلالية انعزالية . وتسير هذه السلسلة في امتداد متصل ناحية الجنوب الغربي (خارج منطقة البحث) لمسافة قدرها ١١٠ كيلو متر من بحيرة مريوط حتى بضعة كيلو مترات

إلى الشرق من بلدة العلمين وقد ينخفض منسوبها في بعض الأجزاء إلى ٣٠ متر فوق سطح البحر .

ويلاحظ من هذا الوصف الطبوغرافي أن السلسلتين وان اختلفت في متوسط ارتفاعهما الا أن ارتفاعات القمم التلالية على طولهما تدل دلالة واضحة على أن منسوبهما الأصلي يكاد يكون متقارباً . ولقد لاحظ بعض الدارسين خاصة ساندفورد وآركل (١٩٣٩) أن انحدار هذه السلاسل يكون شديد ناحية اليابس وخفيف (أي أقل شدة) ناحية البحر . ولربما كانت هذه الملاحظة الطبوغرافية من الأدلة التي ساقها لشرح أصل نشأة هذه السلاسل في أنها كثبان رملية هوائية أرسبت بفعل الرياح الشمالية الغربية . ولكن لوحظ أن هذه الظاهرة وان كانت تبدو واضحة في بعض أقسام سلسلة المكس – أبوصير . الا أن العكس يبدو واضحاً في منحدرات سلسلة جبل مريوط . إذ أن المنحدرات التي تشرف على منخفض سبخة مريوط أشد من منحدرات التي تشرف على منخفض العامرية . وعلى العموم فان الدراسة الحقلية قد أثبتت أيضاً أن هذه المنحدرات على جوانب السلسلتين ليست متماثلة Constant . ولكنها تظهر اختلافاً في درجة الانحدار من جزء لآخر على نفس المنحدر الأمر الذي جعله يظهر بشكل متدرج أو مصطبي وسنناقش هذه الظاهرة عما قليل .

وفي شرح التلال المنعزلة فوق المتوسط العام لسطح هاتين السلسلتين يرى شطا (١٩٥٧) أن هذه الظاهرة ترجع في نشأتها إلى عملية تراكم هوائي حدثت في تاريخ متأخر عن تاريخ المواد التي تتكون منها السلاسل نفسها وأن هذه التراكمات قد أصابتها بعد ذلك عملية التماسك . ويرى شكري وزميلاه (١٩٥٥) أنها ترجع إلى ارسابات هوائية أثناء أو بعد ظهور هذه السلاسل فوق صفحة المياه التي تكونت تحتها هذه السلاسل . ولكن يرى الباحث أنها قد تكون بقايا من السطح الأصلي لهذه السلاسل بعد أن تأثر بعوامل التعرية الجوية والبحرية وسنأتي لمناقشة هذه الظاهرة فيما بعد أيضاً .

أما بخصوص تحدب المقطع العرضى لكل من السلسلتين ، فيرى كل من ساندفورد ووآركل أن تسرب مياه الأمطار فى تكوينات هذه السلاسل أوجد ما يمكن أن يسمى «محتوى» البلل الذى ساعد على تماسك حبات هذه التكوينات عند هذا المستوى فى حين أن الأجزاء التى تعلوه ظلت جافة تحركها قوة الرياح . ولكن جورج (١٩٥٥) وهو من أنصار الارسب البحرى فى نشأة هذه السلاسل لا يرى فى تحدب هذه السلاسل أية مشكلة إذا ما عرف أنها كانت حواجز بحرية وليست كثباناً هوائية متماسكة

وإذا ما تركنا هذين الظهرين التضاريسيين المرتفعين . وما يتميز به من خصائص جيومورفولوجية وانتقلنا إلى المنخفضات البينية وجدنا أن منخفض «سبخة مريوط» الذى يشغل الرقعة الواقعة بين سلسلتى «مكس أبو صير » و« جبل مريوط» الذى يتراوح عرضه ما بين ٢ ، ٥ كيلو متر ولكنه أكثر اتساعاً فى قسمة الشمالى الشرقى أى عند اتصاله ببحيرة مريوط نفسها يقع فى معظمه على منسوب أقل من منسوب سطح البحر ناحية الجنوب الغربى ويظل كذلك حتى بلدة الحمام ولا يأخذ فى الارتفاع عن سطح البحر إلا أبعد من ذلك فى الاتجاه الجنوبى الغربى حيث يصل إلى منسوب ٤ متر فوق سطح البحر . أما منخفض العامرية الذى يبدو على شكل ذراع لبحيرة مريوط ناحية الجنوبى الغربى ، فان منسوبه هو الآخر أقل من منسوب سطح البحر حتى حوالى ٢.٥ كيلو متر شرق بلدة العامرية . ولكن لا يلبث منسوب هذا القاع فى الارتفاع غرباً حتى يصل إلى حوالى ١٠ متر فوق سطح البحر فيما بين العامرية وكنج مريوط . وأهم ما يميز هذين المنخفضين وجود بعض الجزر التى يعلو منسوبها عن منسوب سطح البحر وتظهر على جوانبها آثار التعرية المائية خاصة فى منخفض «سبخة مريوط» ، ومن أوضح هذه الجزر جزيرة أم صغيو Umm Sigheiw وتتكون معظم هذه الجزر من الحجر الجيرى الحبيبى . ويرى شكرى وزميلاه (١٩٥٥) أن هذه الجزر تعتبر بقايا حواجز ثانوية Secondary Bars معتمداً فى ذلك على التحليلات

الجيولوجية التى أوضحت الصلة بين تكوينات هذه الجزر وتكوينات الحواجز الثلاثية الرئيسية .

ولكن الدراسة الحقلية فى منطقة البحث قد أبانت للدارس بعض الملاحظات الجيومورفولوجية التى جعلته مستعيناً ببعض الملاحظات الجيومورفولوجية فى أجزاء من إقليم مريوط خارج حدود منطقة عنه ، أن يحاول تفسير نشأة هذا المظهر الطبوغرافى دون التأثر بأى من التفسيرين السابقين . ويمكن تلخيص هذه الملاحظات على النحو الآتى :

(أولا) أنه بالاضافة إلى انتظام الوحدات التضاريسية فى اتجاهاتها وارتفاعاتها لوحظ أن سطح هاتين السلسلتين (باستثناء التلال المنعزلة) يتصف فى كثير من أجزائه بالاستواء وليس بالتحدب . وتظهر هذه الأجزاء المستوية بشكل واضح على طول محور سلسلة جبل مريوط ، وبخاصة غرب التقاء طريق الاسكندرية – القاهرة الصحراوى بطريق الحمام ، حيث يتراوح منسوبها ما بين ٣٠ و ٣٥ متر فوق سطح البحر . وإلى الغرب من تقاطع الطريقين بحوالى نصف كيلو متر يوجد تل انعزالى يعرف باسم علوة ميصبا Misabba يصل فى ارتفاعه إلى حوالى ٥٠ متر فوق سطح البحر . وإلى الشرق من تقاطع الطريقين ، تعمل الأودية الجافة على تقطيع هذا المستوى ولكنها لا تفقده معالمه . وعلى الرغم من أن عوامل التعرية قد أثرت على سلسلة المكس – أبو صير ، وكذلك كثرة انتشار المحاجر خاصة فى نصفها الشرقى فى منطقة البحث إلا أنه يبدو أن هناك بقايا ممثلة لهذا المستوى عند منطقة سيدى بركات التى يصل منسوبها إلى حوالى ٣٠ متر فوق سطح البحر .

(ثانياً) أن ما وجد فى منطقة البحث من تلال انعزالية (انفرادية) فى صورته المتصلبة الراهنة لم يأخذ الشكل الكثبانى ذا الانحدارات الشديدة ناحية اليابس والانحدارات البطيئة ناحية البحر إذا ما اعتبرناها نتيجة الارسابات الهوائية بفعل الرياح الشمالية الغربية . هذا بالاضافة إلى أن الدراسات الجيولوجية لم توضح تبايناً فى الخصائص الجيولوجية الميكروسكوبية

بين تكوينات هذه التلال وما تحتها من تكوينات جيولوجية. بل على العكس من ذلك فان انحداراتها متماثلة فى كل جوانبها .

(ثالثاً) وجود بعض المصاطب أو المدرجات على المنحدرات المنتمية إلى كل من منخفض «سبخة مريوط» والعامرية على المستويات الآتية :

١٥ — ٢٠ متر
٥ — ١٠ متر
٢ — ٥ متر

ثم منطقة انحسرت منها مياه البحيرات التى كانت تغطى قاعى هذين المنخفضين تنحدر فى منسوبها إلى ٣ متر تحت سطح البحر (١) وتظهر آثار فعل المياه التى تدل على أن منسوب بحيرة مريوط كان أكثر ارتفاعاً مما هو عليه الآن على جوانب الجزر البحيرية خاصة جزيرتى أم صغير وعلوة القراس وكذلك على الأجزاء الدنيا من سفوح السلاسل التلالية خاصة عند أطلال ماريا (أنظر الصور المرفقة) . أما على المناسيب الأكثر ارتفاعاً فطبيعة صخور هذه السلاسل التلالية وخصائصها الكيميائية جعلتها لا تحتفظ بهذه الآثار لما تعرضت له من عمليات تعرية لاحقة الظهرت فى صورة انحدارات محدبة وأخرى مقعرة (انحدارات محدبة تحدد مقدمة الأراضى المستوية أو القريبة من المستوية وانحدارات مقعرة تحدد مؤخرة هذه الأراضى) .

يمكن لنا بهذه الملاحظات، مع الأخذ فى الاعتبار الخصائص التضاريسية للسلسلة الساحلية ، أن نصل إلى رأى فى تفسير نشأة المظهر الطبوغرافى فى منطقة البحث . ويمكن تلخيص هذا الرأى على النحو الآتى :

أن هذا المظهر ليس نتاج الارساب البحرى وحده وليس نتاج الارساب الهوائى وحده ، بل مارت المنطقة فى تاريخ جيومورفولوجى جعلها عرضة

---

(١) أنظر الخريطة رقم — ١ —

(صورة رقم ١)

احدى قمم سلسلة مربوط (صخرية ميكانيكية حتية) توضح تباين الانحدار وظهور سطح الصخري في المناطق منحدرة واختفائه في المناطق مستوية (الصورة سحبة ثنائية من سلسلة).

(صورة رقم ٢)

توضح السلسلة صخرية من الكثبان الرملية الجيرية بريقية وانحدارها التدريجي ناحية الجنوب .

(صورة رقم ٥)

بالقرب من أطلال ماريا تطل هذه الحافة نحو الشمال على قاع بحيرة مريوط وعليها أثر التعرية البحرية فتظهر بعض الكهوف الصغيرة Alcoves .

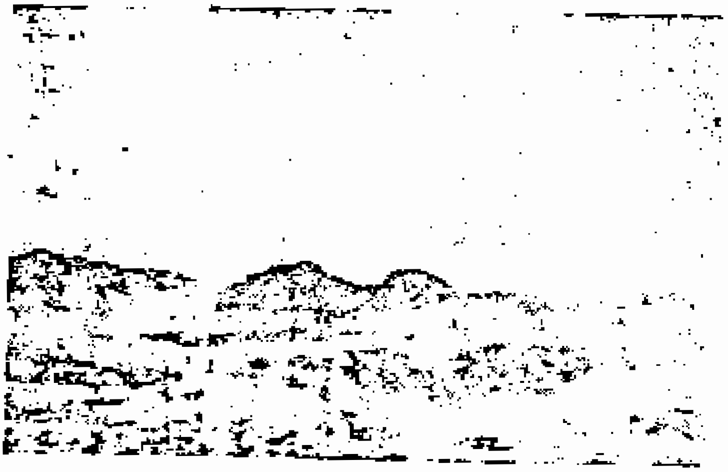

(صورة رقم ٦)

منطقة تلال على سلسلة المكس – أبو صير بالقرب من الحطبة والعجمي
Hummoky Area

(صورة رقم ٧)

الحافة الشمالية لأحضان مدريا مطلة على قاع بحيرة المنفى بالرقات الملحية .

للارساب البحرى تارة والارساب الهوائى تارة أخرى . فاذا ما أخذنا السلسلة الساحلية نتبين فيها عدم الانتظام التضاريسى الذى نلاحظه فى السلاسل الداخلية فالسلسلة الساحلية ليست فى الواقع بصورتها الراهنة سلسلة بقدر ما هى حقل عريض النطاق من الكثبان الرملية خاصة فى منطقة البحث . وكذلك فإن التناسق فى الارتفاع لا نجده واضحاً فى الارساب الهوائى ؛ وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى مناطق كثيرة غير منطقة مريوط أتيحت للدارس زيارتها فكثبان رشيد ودمياط التى يبدو أن الارساب الهوائى قد لعب دوراً كبيراً فى تكوينها لا نجد فيها نظاماً فى اتجاهات الكثبان ولا فى ارتفاعاتها . ولقد أتيحت للدارس أيضاً زيارة بعض الكثبان الساحلية فى قطاع غزة والتى يظهر فيها بوضوح أثر الارساب الهوائى فى كثبان الرملية الساحلية ، فيها أيضاً لا نجد نظاماً فى توزيع الكثبان ولا تنسقاً فى ارتفاعاتها . وهذا يمكن ملاحظته أيضاً على الارسابات الهوائية الساحلية التى تمتد على طول الساحل شرق مدينة بنغازى بليبيا والتى أتيحت للدارس زيارتها . ولا شك أن انتظام السلاسل الثلاثية الداخلية فى منطقة البحث سواء فى امتدادها المتوازى أو فى مناسيب تجاورها وما يفصلها من منخفضات متوازية يجعل من الصعب الموافقة على أنها قد نشأت كلية عن تعرية هوائية (الارساب الهوائى) .

أما أصحاب الرأى القائل بأن هذه السلاسل الداخلية قد نشأت فى صورة حواجز بحرية وما بينها من منخفضات هى بقايا بحيرات ساحلية « Lagoons » فإنهم ولا شك يلقون برأيهم هذا ضوءاً على تفسير انتظام هذه السلاسل سواء فى امتدادها أو فى مناسيبها . ولكن من الملاحظات التى لوحظت بوساطتهم خارج منطقة البحث الحالية وهى وجود سلاسل ثانوية مستعرضة على الاتجاه العام للسلاسل الرئيسية فى منخفضات البحيرات الساحلية خاصة منخفضى مريوط والعامرية والتى تظهر بقاياها حالياً فى صورة تلال انعزالية أو فى صورة جزر بحرية ، يرى شكرى وزميلاه (١٩٥٥) أن التغير فى اتجاه هذه السلاسل يحتمل أن يكون راجعاً إلى تغير فى اتجاه التيارات البحرية فى المياه

التى أرسبت فيها هذه الحواجز الثانوية . ولكن يبدو أن هذه السلاسل بعد أن تكونت بحرياً حاصرة فيما بينها البحيرات الساحلية قد انقشعت عنها مياه البحر ونمت فى ارتفاعها بعد ذلك بالارساب الهوائى الذى تركز على محاور هذه السلاسل البحرية شأنها فى ذلك شأن السلسلة الساحلية فى الوقت الحاضر وما فوقها من إرسابات هوائية كثبانية وكان للأحواض البحرية البينية نصيب من هذه الارسابات كما هو الحال فى وادى مريوط الذى يفصل السلسلة الساحلية عن سلسلة «المكس – أبو صير» والذى قد يصل ارتفاع قاعه فى بعض الأجزاء إلى ١٠ متر فوق سطح البحر . ثم حدث بعد ذلك أن طغى البحر على هذه المنطقة حتى غطاها كلية بمياهه حتى كان لها الفضل فى تسوية الكثبان الهوائية التى تكونت فوق السلاسل البحرية الأساسية والتى كان لها الفضل أيضاً فى تماسك ذراتها بصورة لا تجعلها مختلفة عما تحتها من تكوينات . ولربما كانت ملاحظة ساندفورد وآركل على وجود بعض الذرات الواضحة الانصقال بفعل التعرية الهوائية مؤيدة لهذا الرأى . ثم أخيراً أخذ البحر ينحسر تدريجياً على فترات متقطعة منعكسة فى صورة المصاطب التى وجدت بقاياها على جانبى سلسلتى «المكس – أبو صير» وجبل مريوط وظهرت الارسابات الهوائية على قيعان الأحواض البينية بعد تماسكها فى صورة تلال انعزالية وجزر بحيرية .

ويبدو من هذا أن السلسلة الساحلية فى وقت انحسار البحر بعد تكوين سلسلتى «أبو صير» ، «جبل مريوط» لم تظهر فوق سطح الماء كأرض يابسة بل ظلت تغمرها المياه ولم تظهر إلا فى فترات الانحسار الأخيرة . وأن الكثبان الرملية التى تعلوها لا تعدو أن تكون إلا ارسابات هوائية حديثة .

ويرى صاحب هذا المقال أنه إذا ما اعتبرت أعلى قمم تلالية فوق سلسلتى «المكس – أبو صير» و «جبل مريوط» بقايا سطح بحرى قديم ، والتى تصل فى منسوبها إلى متر أو مترين بعد الخمسين فوق منسوب سطح البحر وأنه إذا ما قورنت مناسيب هذا السطح والمسطحات الأخرى فى منطقة

البحث بما شاهده كل من Depéret فى الجزائر و Mc Berney and Hey(1955) فى ولاية برقة فى ليبيا من أرصفة بحرية يمكن أن نقول أن هذه السلاسل (خاصة السلسلتين الداخليتين) قد تكونتا على رصيف بحرى قبل الفترة الميلازية ثم أخذت تتكون الأرصفة البحرية البحرية فى منطقة البحث منذ هذه الفترة حتى الوقت الحاضر ويوضح ذلك الجدول الآتى :

الأرصفة البحرية فى برقة	الأرصفة البحرية فى الجزائر	الأرصفة البحرية البحرية فى منطقة البحث
٤٤–٥٤ متر فوق سطح البحر	٥٥–٦٠ متر فوق سطح البحر ميلازية	٤١–٤٣ متر فوق سطح البحر
٣٥–٤٠ متر فوق سطح البحر	٢٨–٣٠ م فوق سطح البحر (تيرانيه)	٣٠–٣٥ فوق سطح البحر
٢٠–٢٥ متر فوق سطح البحر	١٨–٢٠ فوق سطح البحر (مونستيرية)	١٥–٢٠م فوق سطح البحر
٣ متر فوق سطح البحر	٦–٨متر فوق سطح البحر	٤–١٠ م فوق سطح البحر ٣–٥ م فوق سطح البحر

ولا شك أن دراسة المظهر الطبوغرافى مرصيف البحرى على تغمره حديثاً مياه البحر وتكوينه الجيولوجى ستلقى ضوءاً على تفهم كثير من المشاكل الخاصة بأصل نشأة المظاهر الطبوغرافية المسحتية على تتبع تاريخ نشأتها .

شكر

لا يفوتنى هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الجمعية الجغرافية المصرية على مساعدتها المادية لى فى القيام بالدراسة الحقلية لهذا الجزء من إقليم مريوط كما لا يفوتنى أن أشكر الميدانى السيد / محمد فريد أحمد فتحى المعيد بقسم الجغرافية بجامعة الاسكندرية ، عرفاناً بجميله على مصاحبته لى فى الدراسة الحقلية وقيامه برسم وتحبير الخريطة المرفقة بالبحث وإعداده لصور البحث أيضاً

مراجع البحث

1. BALL, J. (1939) : "Contributions to the geography of Egypt." Surv. Dept. Publ., Cairo.

2. FOURTAU, R. (1893) : "La Region de Maryut, Etude Geologique" Bull. Inst. Egypte, ser III, No. 4.

3. HUME, W. F. & HUGES, F. (1921) : "The Soils and Water Supply of The Maryut District West of Alexandria" Surv. Dept. Publ. No. 37, Cairo.

4. HUME, W. F. & LITTLE, O. H. (1928) : "Raised Beaches and Terraces of Egypt". Union Geogr. Intern., Paris.

5. Mc. BURNEY, C. B. & HEY, R.W. (1955) : "Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaican Libya" Vol. IV. Cambridge univ. Press.

6. PAVER, G. L. (1954) : "Report on Reconnaissance Hydro-Geological Investigations in The Western Desert Coastal Zone". Publ. Desert Inst. No. 5. Cairo.

7. SANDFORD, K. S. & ARKELL, N.J. "Paleolithic Man and The Nile in Lower Egypt." Chicago Univ. Oriental Inst. Publ., vol. XLVI.

8. SHATA, A. (1955) : "An Introductory Note on The Geology of The Northern Portion Western Desert of Egypt. Bull. Desert Inst. T. V. No. 2. Cairo.

9. SHATA, A. (1957) : Remarks on The Physiography of El-Amiria — Maryut Area". Bull. Soc. Egypte. t XXX, pp. 53-73.

10. SHUKRI, N. M. & PHILIP, G. & SAID. R. (1955) : "The geology of The Mediterranean Coast between Rosetta and Bardia" Part II : Pleistocene Sediments : Geomorphology and Microfacies. Bull. Inst. Egypte, t. XXXVII, pp. 395-424.

11. ZEUNER, F. E. (1962) : "Dating The Past". An Introduction to Geochronology" London.

تم ، بعون الله وتوفيقه ، طبع هذه المجلة ، بمطبعة
جامعة الإسكندرية ، في يوم الأحد ٢٠ رمضان ١٣٨٦
موافق ١ يناير ١٩٦٧

محمد يوسف البساطي
مدير المطبعة

mentor, by specifically honouring her name. It is no accident that the line "Should'st with Scheherezade's fancy thine compare" appears exactly this way in his first sketch, just as the line originally flowed from his pen: "As mentor dost thou know Scheherezade".

But we have yet another beautiful testimony of the gratitude of the seventy-five-year-old poet to his work which embodies the art of Arabian storytelling, a work which had given wings to his imagination. As he succeeded in completing that scene from "Faust" to his own satisfaction, assisted in one way or another by "A thousand and one nights", he wrote a short poem on a page which contained sketches for the lines from "Faust". This is an obvious allusion to the integration of both western and eastern elements which even his work on "Faust" had unexpectedly assumed. And this poem of Goethe's forms a fitting conclusion to our discussion :

He who knows himself and others
Recognizes also here :
Orient and Occident
Are no longer different spheres.

By reflecting, not disputing,
I seek to sway between two worlds;
So to move twixt east and west,
That is truly for the best.

nce with "A thousand and one nights". Here, just as in the source material, an extremely jealous man is brought to regret his suspicion and his brutally egoistic behaviour. I should like to mention in addition, that especially in Goethe's own fairy tales is to be found a profusion of characteristics which can be shown to have been based upon "A thousand and one nights". This applies to the fairy tales called "The new Paris", and "The new Melusine", as well as to the fairy tale in the "Conversations of German Emigrants". In "The Journeyman Years of Wilhelm Meister" the poet alludes very clearly to "Aladdin and his magic lamp" and "The Barber of Baghdad". The tale of Abdulhassan and Schemselnihar from "A thousand and one nights" also served as the subject matter for the final portion of Goethe's novel "The Relatives by choice", while the poet made use of the fairy tale of Prince Ahmed and the Fairy Paribanou in his Novella.

The most astounding influences of "A thousand and one nights", nevertheless, can be discovered in the second part of "Faust". Here, whole acts are based upon motifs from stories out of "A thousand and one nights", for example, Faust's courtship of the beautiful Helen of Troy, and nuptials. The scenes at the Emperor's court in the first act are also strongly influenced by the fairy-tale world of the Orient. Here too, Goethe purposely paid homage to Scheherezade and "A thousand and one nights" in the words of the Emperor addressed to Mephistopheles, his master of pleasure. The lines are as follows :

What kind fortune hast thee here but sent.
Direct from 1001 nights to Occident
Shoudst with Scheherezade's fancy thine compare,
Thou'lt receive from me great honours, that I swear
Be always ready, when our world of day.
As often happens, sore displeases me.

At this point in "Faust", Goethe expressed clearly his own gratefulness to these Arabian fairy tales. At the time that he wrote this homage to Scheherezade, he owed her in one way or another — and more than at any time in his literary career — the most decisive debt of gratitude. Large sections of the second part of "Faust" were inspired by "A thousand and one nights", for just at the time that he was formulating them, a new study of the fairy-tale collection came into his hands. when one knows this, it is much easier to understand why Goethe felt at this time the necessity of expressly acknowledging Scheherezade as his

so many words and with preconceived intention, and I quote "He proceeds in the manner of "A thousand and one nights" where, as he says, "one event is encased, one interest displaced by another".

But Goethe also handled his own autobiographical writings, particularly "Poetry and Truth", in the same manner as an Arabian storyteller, at least as far as the structure is concerned. All the forms and artifices of which we spoke are also to be found here, and the volumes of "Poetry and Truth" appeared, exactly like the "Memoirs of his Italian Journey", at widely separated intervals. We find an explanation for this in the manner in which he referred to this work as "the thousand and one nights of his own wayward life". "The Journeyman Years of Wilhelm Meister" appeared by no means all at once, but also in serialized form, as did the second part of the "Faust" tragedy. And when, at the end of one of these partial publications, Goethe wrote the laconic comment, "to be continued", we [illegible] longer [illegible] over the reasons. For he always considered himself [illegible] case, and for this there is plenty of evidence available [illegible] Scheherazade. But even more interesting than the [illegible] "A thousand and one nights" on Goethe's formal organisation [illegible] countless [illegible] where the poet was actually stimulated [illegible] of the Arabian anthology. Poems from [illegible] period [illegible] his life [illegible] evidence of such stimulation, beginning with [illegible] "The [illegible] of a lover", to the last, the second part of the great tragedy of "Faust". It partly concerns characteristic details [illegible] Goethe borrowed, striking motifs or personalities, and partially character [illegible] which helped Goethe to spread an atmosphere of enchantment over particular sections of his work. But it is also [illegible] demonstrable [illegible] he adopted, in extremely interesting cases, whole [illegible] of [illegible] patterns of plot, and the story-telling scheme as such [illegible] "A thousand and one nights". In the limited time at our disposal [illegible] possible for me to give you a few examples. But you will perhaps allow me to mention at this point, that I published a book on the subject of "Goethe and a thousand and one nights" in 1960, which I am happy to say is [illegible] also being translated into Arabian.

Already, in an early work by the seventeen-year-old Goethe, "The whims of a lover", the Arabian name of the heroine, Amina, is borrowed from a story in "A thousand and one nights". And much more than the name is adopted at that. The shape of Amina's personality and the character traits of a person tormented by jealousy were also taken over. Not only this, but the moral of the piece is also in accorda-

depression occasioned by illness or long winter nights. And those who surrounded Goethe in his old age were amazed at the intensity and perseverance with which the aged poet read and re-read the many volumes of "A thousand and one nights". References to the work are to be found in dozens of Goethe's letters, diaries and transmitted conversations, and these remarks in their totality already provide extremely important information. One obtains here a completely new conception of Goethe's art of storytelling and of his inventive fables, particularly if one takes note of their long overlooked relationship to "A thousand and one nights". Goethe consciously and repeatedly compared himself with Scheherezade as storyteller and poet, and this comparison is reflected in particular aspects of his writings which have always seemed obscure and difficult to researchers and specialists. His liking for a kind of loose organization, evident in certain of his works, is here explained. Just for this reason, people have puzzled their heads about the organization of his novel "The Journeyman Years of Wilhelm Meister", the structure of which is handled in a particularly free manner. They ask themselves if a hidden unity and formal compactness could not be found in the novel if one were to search for it in an appropriate way. All these questions become superfluous when one remembers that Goethe, as he himself expressed it, handled his materials in the manner of Scheherezade. It is therefore by no means a sign of comfort in old age that the form in "Wilhelm Meister" appears to have been slighted. Rather, the whole way in which very different stories are linked to one another, the procedure of "interweaving", the form of a "wreath of flowers", of "garlands" — remember that I am quoting Goethe's own expressions -all this rests upon a consciously organized principle of style, and Goethe expressly confesses that it was "A thousand and one nights" which led him to this principle of organization. He wrote the "Journeyman Years", so he said, in the manner of the Sultana Scheherezade.

But this discovery also leads to an explanation for other things. Goethe had a pronounced, almost obstinate preference for presenting his large-scale works (mostly stories, but also some dramaticc works) — to the public, not in their entirety, but in serialized episodes. It was part of the nature and pleasure of storytelling that, and I quote his own words, through "curiosity", even when it appeared to be "aroused in a frivolous way", the storyteller could delight his hearers, and grasp their attention by "interruptions", thus extending their interest by "every possible artifice". In his "Conversations of German Emigrants", a work which he also allowed to be published in serialized form, he said in

These lines come from the poem "Hegire", and have the quality of exposition. They provide information for the meaning and intent of the entire work. As the poet himself says in his commentary to the "Divan" "The Poet", continues Goethe, "sees himself here as a traveller. He has already arrived in the Orient. He takes pleasure in the customs and usage, in the wares, religious convictions and opinions, and does not even reject the supposition that he himself may be a Moslem"! Goethe's astounding confession goes this far, and shows us with what pleasure he lived among the Arabs in his thoughts, discovering so much of the custom of patriarchal times in their way of life. There is proof of this love for the world of Araby which had fascinated him from his youth in even other works of his. "The Journeyman Years of Wilhelm Meister", for example, contains a passage in praise of the Bedouins. This is obviously no accident. In this great novel of his old age, Goethe wanted to show that all true men are wanderers, that wandering is a condition of human existence. All the same, the Bedouins are the wanderers par excellence, the prototype of wandering mankind, and as such do they appear in Leonardo's speech of praise within Goethe's great novel.

But enough of this topic, ladies and gentlemen, for I wish to speak to you about something else in the short time that remains, something very important for our subject, and that is of Goethe's connection to the "Thousand and one Nights", that is to say, to a work which already because of its language belongs completely to the Arabian world, and whose subject is at least in many sections of Arabian origin. During Goethe's time, one spoke of the work simply as "Arabian Tales". The connection between the poet and "A Thousand and one Nights" is particularly interesting because firstly, we are concerned here with one of the great standard works of world literature, and secondly, because the extent of its influence on Goethe in this case is positively enormous. Because I have already spoken about the relationship of Goethe to "A thousand and one nights" in another lecture, I should here like only to refer to some of the high points, without looking too closely at the details.

Goethe had loved the fairy-tale of Scheherezade from his childhood, and during all periods of his poetic creativity, he let Scheherezade inspire him to works of his own. Even in a few of his most famous poems Scheherezade had served as godmother for particular motifs, characters, or turns of plot. In his old age too, Goethe lost none of his love for "A thousand and one nights", for these tales drove away the

of primordial Araby, the poet felt himself to have been "newly born", and the expression is his own. From this comes the poem "Reckoning", which originally had the significant title of "Caravan". The poet says here, "Within the immeasurable distance/In an ocean of stars/I was not lost/But as if newly born/—White billows of sheep/Spread over the hills/Sheltered around by serious shepherds/Gladly sharing their scanty hospitality/So quietly—dear people../That each one gladdens me". Hard on the heels of this joyful and peaceful shepherds' idyll comes a depiction of the dangers among which the Bedouins live : "In the terrifying nights/Menaced by battle/The moaning of the camels/Pierces the ear, and the soul". Toward the end of the poem comes a penetrating picture of the life of the nomad, in which the poet symbolically expresses the precepts of his own life-rhythm : "And always it went further/Becoming ever wider/And our constant moving/seemed a little like fleeing./Blue, behind the desert and the multitude/A strip of false sea".

In this caravan poem, Goethe gives us a picture of the restless nomad existence which early Arabian poetry had enabled him to envision. The whole "West-East Divan" is shot through with something of this nomadic restlessness. Already in the first great poem entitled "Hegir" the poet alludes to Arabian life and traditions. His own "Hedschra" is an intellectual emigration to a simpler state of existence which seems to him to be purer and righter than his own immediate world. Thus he calls out to himself :

> You must flee to the pure east
> To savour the air of the patriarchs ....
> There, amongst the pure and the right,
> I want to fathom
> The origins of human kind,
> Where they still receive, from God,
> Heaven's teachings in the language of the land,
> And don't have to worry their own heads ....
> I want to move among shepherds,
> Refresh myself at oases
> When I, living the wandering life of caravans,
> Barter with shawls, coffee and musk;
> I want to tread every path
> From the desert to the city ...."

has been lost forever. It was the dialogue of a great poet with other great poets, bridging the gulf of a thousand years, and all the attendant differences of peoples and cultures.

The proportion of poems from Arabian models which proclaim love's bitterness are nevertheless fewer in number in Goethe's "Divan", than those with a predominantly happy note. Goethe is also indebted to the Arabian world for some ideas which stimulated him to write these more cheerful poems. Let me but name a few of these Arabian motifs. The alternating songs of Hatem and Suleika refer to a turban of white, silverstriped muslin, that the beloved winds about the head of the poet. To Hatem, such a turban seems to be the proudest and most beautiful head adornment for a man.

A poem in the first book of the "Divan", the "Book of the Singer" praises the turban as the finest possible head adornment. Entitled "Four Favours", this poem is derived from an Arabian proverb. It reads

To the Arabs, joyfully moving
In their portion (of the world),
Allah has given four favours
For the general well-being.

First the turban, which adorns better
Than all the crowns of emperors;
A tent, so that a man can move from one place
And live everywhere;

A sword, which protects more effectively
Than cliffs and high walls,
And a little song, that pleases, and is useful
Because the girls are waiting to hear it.

The turban, the tent, the sword, and the gift of song-these four favours given to the Arabs by Allah are praised many times by Goethe in the "Divan". The free life of the nomadic Bedouins, unstable and constantly threatened by danger, is just as much the subject of his poetic invention as their pride and aggressive clan.

This "dreaming of himself" into the restlessness of the nomad life, and indeed into what was a totally strange world for the poet, had an astounding effect on him; he felt himself refreshed and fired with enthusiasm. Through this contact with the shepherd and warrior life

Camels rest, their drovers do the same.
The Armenian watches, quietly reckoning,
But I, at his side, count the miles,
That separate me frome Suleika, repeat
The path-prolonging, irritating twistings.
Let me weep. Tears animate the dust.
Already it is stirring.

The German poet thinks of himself as being in a caravan in the desert. It is the same situation that forms the basis for all of the Kassids of the Muallaquat poets. The Muallaquat are, after all, Bedouin poems sung in the desert and at the oases amongst shepherds and camel drivers. Goethe's chief motive is that of weeping because of the absence of the beloved, a motive which returns in all seven Kassids of the Muallaquat, and at that, exactly as it stands at the beginning of Goethe's poem. The most thorough as well as the most beautiful fashioning of this motif is to be found in Imriolkais poem which, like Goethe's begins with the plaintive pattern, "Let me weep". Even the strange word that describes the path prolonging "twistings" is to be found in the Arabian prototypes. And there is yet another striking correspondence in the general content. Goethe's poem closes with an optimistic turn. The tears animate the dust, and out of it comes fresh green; new growth-out of sorrow and tears. This is a symbolical expression for the thought that the pain of parting from the beloved is a stimulating grief for the poet-out of sorrow, blossoms new poetic inspiration. This is completely in line with Goethe's own experience, for it was always the distant and somehow unattainable beloved who most inspired his works. "The sorrow of love" thus often functions for Goethe as the doorway to new creative activity. A very similar phenomenon is to be found in the poets of the Muallaquat, for with them it is a kind of rule to give the beginning of each Kasside the character of a love lament. Only by these means is the path to poetic expression and evolution made free. This is required by the traditional scheme of things. Goethe recognized something special in the early Arabian Muallaquat poems that corresponded in the most curious way with the organizational rules of his own works. It is an extremely interesting fact that Goethe, when suffering himself from a particularly tragic love, remembered that it was the Muallaquat more than any other poetical work in the literature of the world, which placed the sorrow of separation in the foreground,richly varying and meaningfully characterizing the motif of a great love which for some reason

or "Petrarch and Laura" in Europe, was celebrated by many oriental poets, and held a strong fascination for Goethe. The word Medschnun actually means a person who is possessed by another spirit, a raver, (made delirious by a sacred or profane love). The unhappy lover Keis was given this name because of his burning love for the pure, glowingly innocent but unattainable Leila, and it was this name which Goethe also claimed for himself. In the "Book of Ill-Humor" he claims that he should not be "condemned" for "praising himself (with the name) Medschnun". In the first poem of the "Book of Love" he glorifies Medschnun and Leila as an example for all true lovers, and in the last poem of the same book, his thoughts are with the dying Medschnun.

Just as Medschnun, who has lost his reason because he is separated from his beloved Leila, writes verses glorifying her in the desert sand, so also Goethe, as Hatem, writes his verses in the ever-changing, wind-blown dust. In one poem which was only published after his death and later included in the "West-East Divan", the poet compares himself once again with the famous lovers of Araby. The poem expresses his conviction that some future wanderer who may tread the place where the poet wrote his verses in the sand, must sense the power of his love. The wanderer will not know if it was Medschnun or another happy sufferer, but he will feel the magnetic force of a great love which remains, "to earth enchained".

The subject of love occupies the central place in the "West-East Divan", just as in Arabian poetry where it had always been a favourite theme. Goethe announces, quite programmatically that, "Love is, before all else Our theme, when we sing". Goethe was inspired to write one of his most beautiful love poems by the early Arabian poet Im rolkais, whose famous poem belongs to the seven Muallaquat. As Goethe sought poetic expression for the despair of his situation after he had taken final farewell of Suleika, the example of this Muallaquat Kasside from the pre-Islamic period called forth the verses in which he puts himself in the position of a sorrowing Bedouin, weeping in the endless waste of desert after the separation from his beloved. Using turns of phrase suggested by the Arabian original, Goethe wrote the following lines

> Let me weep! enfolded by night,
>
> In the unending desert.

the Suleika when he refers to the Suleika celebrated as his lady-love in the poem. But the name also carries with it quite a different meaning, for Goethe used it as a pseudonym for the wife of a friend of his to whom he wanted to pay verbal tribute. Their love for one another also stood in the shadow of the commandment of chastity, and found expression only in verse, in the alternating songs of the "Book of Suleika", some of which were even written by the poetically gifted lady herself.

Moreover, Hatem is not the only mask behind which Goethe, as poet of the "Divan" hides. He also plays with other possibilities of transformation, and Hatem is not the only Arabian name that he assigns to himself. For example, in one poem he slips into the role of a famous Arabian poet who had lived in Aleppo nine-hundred years before him — Motanabbi. In order to please Suleika he wants to transform himself into the shape of Motanabbi-a graceful compliment to the Arabian poet who, in this case, was also his colleague.

A poem of Motanabbi's in which he descibes himself as a "Martyr of Love" impressed Goethe particularly, above all because he had read in a commentary to that poem, that those who had lost their reason or forfeited their life for love were honoured with the name of martyr by the Moslems. They regarded tragic love in this sense, as a [illegible] by God, and looked upon those who suffered from tragic [illegible] God-chosen sufferers if they endured their hour of tribulation. This concept, which he derived from the commentary on Motanabbi, pleased Goethe so much that he used it in the last book of the "Divan", the "Book of Paradise". He depicts here how he, in some future time, is received by a Houri at the gates of paradise. The Houri [illegible] him in because the German arouses his suspicions, and he [illegible] as to whether he is also "quite actually related" to the Moslems [illegible] struggle and merit "have sent him to paradise". He is [illegible] to justify his claim by showing his wounds, in response to which [illegible] invokes not only his "life-wounds of malice", but also "love's wounds of pleasure", (the idea derived from the Motanabbi poem). This martyrdom brings with it the right to claim access to paradise.

Goethe ran across the motif of "martyrdom for love" once again [illegible] Arabian figure, the famous and unhappy son of the desert, Kais [illegible] nickname "Medschnun". The touching love story of Medschnun and Leila, which recalls the sad fate of "Romeo and Juliet",

its brevity and striking means of expression. That the pacific Goethe had truly made this vendetta poem of Taabatta Scharran his own, that even in his old age he was so thoroughly saturated in it, proves clearly how deeply the spirit of that poem had moved him, for we must not forget that it had been over 12 years since he had translated the 28 stanzas of the poem.

Another piece of warlike Arabian poetry which Goethe made his own in his "West-East Divan" is called, "The Winter and Timur". This is a word for word reproduction of a section out of Timur's biography written in rhymed prose by the Arabian annalist Ibn Arabschah, a bit of real Arabian poetry in which a personified winter prophesies terrible revenge on Timur and his lords. Here again, the subject is revenge, struggle, heroism, war, danger and terrror. Goethe's "Divan" at this point took over particularly characteristic Arabian elements which the poet could not have found in the realm of Persian poetry. His "Divan" thus received something masculine, austere, serious, and incidentally, melancholy, which contrasted with the high-spirited world of Hafiz. But I would like to draw attention to a few other very different connections between our poet and the world of Araby - Goethe, strikingly enough, chose an Arabian pseudonym for himself as poet of the "Divan". In one poem he says that he will name himself Hatem from that point on, so that he may thus be recognized by his readers. He was drawn to this name by the many impressive anecdotes which told of the proverbial generosity of the legendary Hatem Thai. It should not appear "pretentious" that he adopted this name. "Not Hatem Thai, not the all giving" could he be in his poverty, but "to keep one's sights on him", should "not be considered wrong". The Arabian name Hatem conceals the German poet in many verses of the "West-East Divan", particularly when he appears as lover. He gives the name Suleika to the lady-love celebrated in these poems. Goethe thought in terms of pharaoh's daughter and wife of Potiphar, who is celebrated as the ideal of feminine beauty in many oriental poems. Goethe knew from Djamis' "Jussuph and Suleika", as well as from other oriental poems, that a positive estimation of Suleika was current in the Orient, in contrast to Europe, where only the Biblical tradition was given credence. Goethe, however, made the attitude of the Moslems his own who, in connection with the twelfth Sura of the Koran entitled "Jussuf", saw Suleika's love for the latter as an example of burning but chaste passion, which sprang from the sight of Jussuph's extraordinary handsomeness and was supposed to have led to love for God. Goethe is thinking of

Under the cliffs on the road,
Stricken, he lies.
No dew trickles down
Into his own blood ......

At midday, we youths began
The hostile march,
Moved the whole night through
Like soaring clouds, restless.

Each was a sword,
Sword girded,'
Torn out of the scabbard,
A gleaming flash.

They quaffed the spirit of sleep:
But as their heads nodded,
We routed them,
And they were destroyed.

While Goethe recited these verses with full voice-(incidentally, what an amazing memory for an old man of 81)-it seemed to the young visitor who witnessed the scene as if Goethe, seized in an ecstasy of poetic rapture, was inventing the verse on the spot : his eyes were large and so wide open that lightning seemed to flash out of them. The impresssion was so overwhelming that the young man remembered it for the rest of his life, as various reports of his prove. These constantly express his astonishment that although Goethe was ill and shortly to be claimed by death he was able to recite this poem from memory when the conversation accidentally turned in this direction. He repeated his description of this scene on many different occasions : the handsome old man sits erect, and sparks seem to flash from his eyes as he recites that Arabian poem like a wide-eyed Bard of Old, seized in a rapture of poetic ecstasy. I have purposely spent a little more time on this scene because it conveys, even more directly than the prose portions of the "Divan", how vital Goethe's connection to that Arabian poem was, despite its theme which must have been remote from his thoughts and feelings. He had never written a warlike poem himself, not even during the period of the Wars of Emancipation when so many other German poets wrote fanfares of martial verse, and the same was expected of him. Nevertheless, the warlike spirit of this thousand-year-old Arabian poem fascinated him. He sensed here something genuine, primaevally original, imposing in

of the Arabs", and gives an equally charming as understanding characterization of these lyrics. His observation closes with the words, that in these poems is reflected the high culture of the Koraischit tribe, the tribe which brought forth the Prophet himself.

When Goethe wrote these comments [illegible] had already considerably enlarged his knowledge of Arabian poetry. H[illegible] even began, in his sixty-fifth year, to practise Arabian speech and writing. During his youth-that is to say, during the period of his ear[illegible] Koran studies - he had already made a start with Arabic, but desp[illegible] his efforts had not made much progress. We possess, however, a large number of pages with Arabic script in his handwriting, dating from the years 1814 to 1819, that is to say, the years between the poet's sixty-fifth and seventieth birthdays. Among these are also several particularly successful copies of the one-hundred-and-fourteenth Sur[illegible] These studies, conducted with the help of scholars who were special[illegible] the field, led Goethe to recognize that, "In no other language [illegible] word and script so primordially bound together [illegible] as in [illegible] language". The poet quite naturally delighted [illegible] again [illegible] translation. With the help of a latin version he trans[illegible] one of the most famous passages of old Arabian poetry from the Hu[illegible] the vendetta poem of Taabatta Scharran, which Goethe publish[illegible] "Notes and Essays" to the "Divan" in order to give his [illegible] conception of the art of Arabian poetry other than that of the [illegible] The extent to which this poem, with its verve, [illegible] clan, had impressed Goethe, is demonstrated by a [illegible] one of his visitors towards the [illegible] year [illegible] (1831) has described, a young orient[illegible] a year before his death. The discussion soon turned to [illegible] Divan". Goethe took the opportunity to mention the [illegible] and poetry [illegible] much occupied his attention during [illegible] whereupon the visitor, an expert in this [illegible] expressed [illegible] of Goethe's admirable, indeed exemplary transcription [illegible] Arabian epic poem. He meant the Dirge of Taabatta S[illegible] who had revenged himself on the Hudseilit tribe, [illegible] had murdered his mother Amina's brother. As the discussion [illegible] turned to this poem, Goethe raised his head high and, although confined to his easy chair because of a foot ailment, seemed to [illegible] young [illegible] before his very eyes, while with majestic grandeur, like olympian Z[illegible] he began to speak

to the very first rank of world literature. We find an echo of this mutual enthusiasm for early Arabian poetry in Herder's "Ideas for a History of Mankind". In his chapter on the language and literature of the Arabs, he writes: "To the Arabs, their language was their most precious inheritance...Science, Philosophy and Poetry were cultivated in this rich and beautiful language... The art of poetry was its ancient heritage, a daughter of freedom which flowered long before Mohammed; for the spirit of the nation was poetic, and a thousand things awoke this spirit. Their country, their way of life, their pilgrimages to Mecca, the poetry competitions at Okhaz, the honour in which a rising poet was held by his tribe, the pride of the nation in its language and its traditions, its inclination to adventure, to love, to glory; even its solitude, its vengefulness, its nomadic way of life; all of these things aroused it to poetic expression, and its poetic muse distinguished itself with the power of its visions, grand and proud perceptions, by shrewd proverbs, and something unmeasurable in the perfection or faultiness of the things it chose to glorify".

Herder continues: "Their convictions stand there like jagged cliffs reaching toward heaven... the silent Arab speaks with the flame of the word as with the lightning of the sword, with arrows of perceptiveness like those of his quivers and his bows." and Herder closes with the astounding words: "No people can pride itself on having had so many patrons of poetry as the Arabs during the height of their culture". Goethe himself, in later years, expressed his enthusiasm for Arabian poetry in similar tones. It is all the more remarkable as both friends were specialists in and passionate admirers of Greek and Roman antiquity, remarkable too, because these emphatic words about Arabian poetry were written during a period when "Classicism" was at its height, in other words, when the tendency was not to recognize anything as being exemplary, except the works of ancient Greece and Rome.

Here then, Herder and Goethe broke through the canon of the classicist point of view with their spontaneous enthusiasm for Arabian poetry. It really took courage, during the age of classicism, to claim that no people-not even the Greeks and Romans-could pride itself on having so many patrons of poetry as the Arabs during the height of their cultural development.

Three decades after his first meeting with early Arabian poetry, Goethe once again praised the "Muallaqat" in his "Notes and Essays" to the "West-East Divan". He refers to it there as "the glorious treasure

of the Koran led the young Goethe to material describing the life of the Prophet, and this again led him to plan a full-scaled tragedy about the life of Mahomet (Mohammed). Only a few of his sketches have survived, but these fragments already demonstrate quite clearly the admiration with which Goethe regarded the Arabian Prophet, a respect which remained with him his whole life through. When his patron, the Duke Carl August, later pleaded with Goethe to make a translation of Voltaire's tragedy, "Mohammed, or, The Fanatic" for his theatre, only with the greatest inner conflict could the poet resign himself to the wishes of his princely friend. Voltaire's negative attitude toward Mohammed in this drama was so irritating to Goethe that it was extremely difficult for him to concern himself with a translation of this play in particular.

Moreover, Goethe's special reverence for the Arabian Prophet is to a certain extent linked with the intellectual movements which, especially during the period of his youth, were supported by the thinking elite of the time. This was the period of the struggle for religious tolerance, the period when Lessing composed his "Nathan the Wise", when Goethe's friend Herder declared his [illegible] the ancient Persian "Zend-Avesta". European eyes were [illegible] first time to the fact [illegible] also in other religions were [illegible] and historical personalities which need not be classed as [illegible] those of Christianity. Thus, Goethe spoke of great figures [illegible] Christ and Mohammed in the same breath in order to [illegible] his belief that a divine power resided in all three.

No less important w[illegible] encounter with the Arabian world in the year 1783. [illegible] Goethe became acquainted with the "Mua[illegible]aqat" [illegible] Bedouin poet[illegible] and this [illegible] English [illegible] had only [illegible] been published. Once again [illegible] translations in order to become [illegible] had so deeply impressed him. A [illegible] Kasside by Imruolkais [illegible] survived from this period, [illegible] and Herder had translated together. Herder, the poet's friend, was [illegible] years older, and had an immense knowledge of world literature. During this period he was a sort of intellectual mentor for Goethe, but quite apart from that, he became the teacher of generations of Germans through his pathbreaking ideas and achievements. Both friends, Herder and Goethe, were completely in sympathy with their estimation of the value of early Arabian poetry. They knew that they had here stumbled upon treasures which belonged

GOETHE AND THE ARABIC WORLD

By

CATHARINA MOMMSEN

To speak of Goethe's relationship to the Arabian world is to enter a new intellectual realm; for this relationship-despite its intensity and productivity-was for a long time concealed by the poet's more obvious relationship to other oriental cultures. Normally, when one refers to Goethe's relationship to the orient, it is the 65-year-old poet's encounter with the collection of poems known as the "Divan" by the Persian poet Hafis, which occupies the center of attention. It was this epoch making confrontation which resulted in Goethe's own "West-East Divan", his most important work in the oriental style: a collection of two-hundred- and-fifty poems, followed by an extensive prose commentary, the so-called "Notes and Essays".

Very different domains of the orient are extolled in Goethe's "Divan". The Persian middle ages occupy the center of attention, embodied in the works of Hafiz, Saadi, Ferdusi, and other poets whose greatness Goethe enshrined in his own works. Anyone who more closely examines Goethe's works, however, cannot overlook the fact that the poet repeatedly and enthusiastically paid homage to the Arabian world, precisely the subject which concerns us here, and a subject which has so far only received much too little attention up to the present day. This is truly strange: for while many essays have been written about Goethe's interest in far more distant oriental lands, (particularly about his discussions of Indian and Chinese literature), his enthusiasm for the world of Araby took on the aspect of a secret love. No one has apparently tried to assess clearly the dimensions of this devotion. Literary research provides no systematic elaboration of this sizeable complex, although astounding isolated facts about his relationship to the Arabian world are by no means concealed or unknown. One knows, for instance, that early in his life the twenty-three-year-old Goethe spontaneously conceived a liking for the Koran. During this period he wrote out many Suras from various translations of the Koran, and worked out a transcription of the sixth sura using a Latin version as his model. These early studies

N'est-il aucune exception à la loi que nous venons de voir. Pour qu'il y en eût, il faudrait qu'une classe sociale fût, dans la France du XIXè Siècle, l'incarnation vivante d'un mythe, d'un être de raison et qu'ainsi un théâtre pût, en le peignant en naturel, peindre en même temps un de ces mondes "magiques" au sens phénoménologique du mot (1), c'est-à-dire étranger aux lois normales de la causalité sociale. Le petit bourgeois fonctionnaire n'incarne-t-il pas cette classe.? Le monde du fonctionnaire, du militaire, est purement mythique : comme le dit Emmanuel Berl (2). Supposez une âme de poète à M. Soupe (3) et vous avez Mallarmé : une littérature écrite très lentement (les heures de bureau sont longues), et, reflet d'un univers de dossiers, un univers de symboles. Le monde d'un Monnier, d'un Labiche, dans la meilleure partie de son oeuvre celui d'un Courteline, n'est-il pas celui-là même de cette classe. La tradition Monnier — Labiche — Courteline — fournit peut-être, dans le XIXè Siècle français, le seul ensemble de pièces dramatiques réalistes, où le réalisme soit réel, sans que le théâtre en soit moins théâtral. 1900 . année de l'affaire Dreyfus : c'est à ce moment que le fonctionnaire, l'universitaire français, entrent vraiment dans la vie politique; que la démocratie radicale socialiste naît. C'est à ce moment que les conditions sont les plus favorables socialement pour la plénitude d'un réalisme théâtral, puisqu'arrive alors à la maturité politique une classe à la fois réelle et mythique, puisqu'elle est l'incarnation de la loi, du règlement, et de la circulaire, ces mythes.

---

1. voir J. P. Sartre. Esquisse d'une théorie des émotions Paris 1938.

2. Berl "Mort de la morale Bourgeoise". Paris 1929. N.R.F. p.157.

3. Personnage du roman de Georges Courteline : Messieurs les ronds-de-cuir (1893).

CONCLUSION : THEATRE ET SOCIETE BOURGEOISE AU XIXè SIECLE, EN FRANCE

Durant tout le XIXè siècle, le théâtre français est resté coupé du peuple. La culture, sans être le strict reflet des rapports économiques, n'en est pas moins conditionnée par eux ne doit pas perdre de vue : "qu'exiger qu'on renonce aux illusions qui nous cachent notre situation, c'est exiger qu'on renonce à une situation qui a besoin d'illusions". L'oeuvre de Napoléon Ier fut, de ce point de vue, d'imposer à une bourgeoisie réaliste et matérialiste, l'idéologie Gréco-Latine qui, revue et affadie par l'humanisme chrétien n'était plus bonne qu'à servir les craintes et les haines d'une aristocratie descendante. Ainsi, par un paradoxe historique, la bourgeoise française n'a pas eu, au XIXè siècle, de vraie littérature réaliste. C'est devenu un lieu commun de sociologie esthétique, que de chercher le réalisme (1) chez les représentants d'une classe montante, l'idéalisme chez ceux d'une classe attaquée. La peur de la réalité engendre la peur du réalisme. La France du XIXè Siècle n'a pas observé cette loi historique : bourgeoisie et noblesse, quels que soient leurs dissentiments, politiques, font depuis les Journees de juin, front commun contre "l'homme au bonnet rouge". Aussi le théâtre français fut-il nécessairement mythique et littéraire, puisqu'il était coupé du peuple. Il n'y avait pas là une cause nécessaire de décadence : le théâtre n'est-il pas par nature un genre mythique et magique Mallarmé voyait, dans la messe catholique, la plus haute réalisation de l'idée du théâtre. Mais il y a mythe et mythe : quand ceux-ci sont portés par un mouvement social unanime; quand ils illustrent l'espoir profond d'un peuple; quand ils mettent le rite au service du rêve, quand le chant d'espérance devient danse, rythme, action, drame, etc... ranimant ainsi les frissons dont il était né, le mythe alors, devient réalité — mieux : vérité. Il n'y eut, hélas, rien de tel dans la France du XIXè Siècle : l'alliance idéologique bourgeoisie-noblesse, interdisait, par sa nature hybride, la naissance de mythes cohérents et fondés. Le théâtre français fut un incessant compromis entre le livre et la vie, parce qu'il n'avait ni public vrai, ni idéologie vivante. En littérature comme en politique, les compromis sont rarement viables. Ce sont des "Fils naturels" sans place légitime dans la cité des Lettres.

---

1. Les termes de réalisme et d'idéalisme sont pris ici dans leur sens esthétique.

2 *Les sens et la passion : Bataille et Bernstein.*

Les lauriers de Porto-Riche suscitèrent la rivalité de ses confrères et c'est Henri Bataille qui devait être son émule et son successeur dans ce qu'on a appelé "Le théâtre de la femme". Genre faux par excellence, sous la plume d'un auteur que ses origines ne désignaient pas, comme Porto-Riche, à cette fonction. Aussi, s'est-il attiré de la critique l'épithète de "Théâtre faisandé". Et il est de fait que ses créations de figures de femmes originales dans "Maman Colibri" (1904) ou "La Marche Nuptiale" (1905) ne compensent ni ses faiblesses, ni ses bassesses. La gêne apparaît jusque dans la technique où éclatent le manque de sens du dialogue et de l'art de la progression. Bataille personnifie ce théâtre du "Tout Paris" au début du XXè siècle : l'un et l'autre, comme eût dit Barrès, sont des "déracinés".

Et il est intéressant de souligner que de Bataille et de Bernstein, c'est ce dernier qui est le plus solide et le plus à l'aise. Bernstein est un dramaturge robuste et sain, habile et d'une technique de la scène consommée. Sans doute les personnages de ses premières pièces (La Rafale 1905) (Le Voleur 1906), ont-ils valu à son théâtre l'épithète de théâtre "faisanté", mais qu'il aborde les grands sujets, Bernstein s'impose par la passion haletante et l'intérêt tendre de ses drames. Il s'élève à la hauteur des thèmes, qu il traite le monde de la finance dans "Sanson" (1907), le problème du la race dans "Israël" (1905) ou celui de la légende biblique dans "Judith".

Peut-être convient-il de s'arrêter un instant sur ses pièces. On y voit Bernstein revenu du théâtre d'amour au théâtre soit d'idée dans "Sanson" soit proprement livresque dans "Judith". Cette évolution est significative. Il existe une sorte de fatalité qui pousse les dramaturges, dans la poursuite d'une longue carrière, à toujours revenir à la littérature après avoir voulu commencer par la réalité. Et ce n'est pas par hasard, puisque c'est une évolution qu'on retrouve chez les plus grands. Le théâtre en liberté de Hugo en témoigne.

Comme en témoigne aussi l'histoire du théâtre de la fin du siècle sa caractéristique, en effet, est l'abondance des revues où les auteurs publient leurs pièces, jouées ou non, exactemet comme Musset donnait, et ce fut alors un événement, ses pièces à la "Revue des deux Mondes", à la "Revue Blanche" et à "La Vie Parisienne". Si bien, qu'une fois de plus, le théâtre retourne au livre, comme c'était son destin.

trouver plus douce la lutte pour la vie, en sortant après la représentation, de ce monde implacable et glacé, sans morale et sans pitié : évasion à rebours, mais évasion encore.

LE THEATRE DU "TOUT PARIS"

Comme nul ne l'ignore, l'expression "Tout Paris" désigne, justement, le monde le plus fermé, la partie la plus restreinte de la population de la capitale. Le choix seul de ce qualificatif, appliqué à un certain nombre de pièces, en donne déjà le ton, suffisamment éloigné, de par leur sujet même, de l'ordinaire et du réel. Le mythe naturaliste est d'ailleurs bien mort, en cette fin de de siècle, surtout dans la société mondaine parisienne à laquelle s'adresse ce théâtre. Les sentiments lui suffisent, aussi anti-naturels et alambiqués que possible.

On a parfois appelé ce genre théâtral de décadence ou de décomposition sociale : ces épithètes rendent bien compte de son air vicié et parfois vicieux, de son climat lourd et malsain, mais d'une lourdeur à la Becque, venant du fait de la réalité; une lourdeur de parfums artificiels et violents, de lassitude et d'alcôve.

1. *Porto-Riche et le Théâtre "d'Amour"*.

En même temps que son manque d'extension, il est curieux de noter à quel point le "Tout Paris" est composé de femmes plus que d'hommes. Aussi bien le thème premier et constant de son théâtre reste-t-il l'Amour. Porto-Riche est le maître du genre. Sous de différents titres et dans des sujets divers, il étudie l'amour lassé, comme Marivaux étudiait l'amour naissant. C'est son originalité et c'est sa limite, car cette analyse de l'amour, si fouillée soit-elle ne sort pas du cercle des mondaines qui s'y reconnaissent et s'y mirent complaisamment. Une oeuvre, cependant, fait époque : "Amoureuse" (1891); avec "Amoureuse", Porto-Riche a fondé une nouvelle comédie, la comédie du couple légitime, des époux, dans l'intimité de leur vie privée, où il ose faire aux mystères de la chair leur place à côté de ceux du coeur, des conflits douloureux où le bonheur se révèle instable et furtif. Caractères complexes et tout en demi-teintes, situations lourdes de sens, mots justes, style littéraire plus souvent que naturel : tout Porto-Riche est là, avec sa nature à la sensibilité frémissante

la vie, dans Course au Flambeau" (1901). La tendance au théâtre à thèse est visible de pièce en pièce : les dernières ne sont rien qu'une démonstration. Le réel est loin et Hervieu compte pour peu.

2. *Le théâtre de Combat : Brieux et Mirbeau.*

Il faut croire, cependant, que c'était encore là pécher par trop de réalisme car la question posée et débattue, le dialogue sinueux et haletant, la discussion, c'est encore la vie; Brieux et Mirbeau parlèrent seuls au public du de leurs scènes comme du haut d'une tribune ou d'une chaire.

Brieux, en particulier, ne cesse de prêcher sur tous les problèmes du jour. Son théâtre est un manuel d'instruction morale, civique et laïque, comme il s'en publia un si grand nombre de son temps. C'est le cours du soir transposé sur scène, cours du soir à l'usage des femmes comme il se doit au théâtre. Qu'on en juge par ses pièces et par les thèmes qui y sont traités. Dans "*Blanchette*" c'est l'Instruction primaire (1892), dans "*Les Remplaçantes* c'est la Maternité (1901), le sujet et le mot lui même sont d'ailleurs repris l'année suivante comme s'il s'agissait de reviser une partie importante du programme dans les "Bienfaiteurs" c'est l'Inhumanité de la charité publique; c'est la Magistrature dans *La Robe rouge*" (1900), le rôle Patriotique de la la femme dans "*La Française*" (1907) et même le Religion dans "*La Foi*" (1912). Le cycle est complet de ce théâtre qui, comme dit Thibaudet, "a fait trop de bien pour qu'on en pense du mal et dont il ne reste rien dont on puisse penser quoi que ce soit".

Ce théâtre de combat garde pourtant un intérêt historique incontestable. Ne serait-ce que parcequ'il fait entendre les deux grandes voix, échos de l'époque : celle du Maître d'école et celle de l'Orateur. Car, ainsi que le théâtre de Brieux représente la chaire du Maître, de même celui de Mirbeau est-il la tribune de l'Orateur.

Mirbeau a le génie de la violence polémique. C'est pour lui qu'eût dû être inventée l'expression de "brûler les planches", ses sujets même, en témoignent; la grève dans "Les Mauvais Bergers" (1897), la jungle du monde de l'argent dans "les Affaires sont les Affaires" (1903). Et derrière ses personnages on ne voit que lui, on n'entend que lui qui apostrophe et qui stigmatise. "Les affaires sont les affaires" est restée au répertoire et a encore un public. Comme si celui-ci désirait

Ses origines mêmes orientaient vers l'abstraction ce gentilhomme lorrain fils d'industriels en mal de chiffres et de statistiques et lui-même, élève de l'Ecole Centrale. Sa vie retirée, en partie du monde, ne dément pas sa personnalité et ses oeuvres la confirment éloquemment. Tout est abstraction.

Abstraction, les situations exceptionnelles dans lesquelles il place ses héros et qui consitituent une expérience à la fois scientifique et humaine, une chimie des sentiments. Une divorcée revient en inconnue auprès de ses enfants et c'est l'Invitée" (1893); un vieux rebelle est repris par le culte du drapeau et c'est "Le Coup d'aile" (1906).

Abstraction, la manière dont il pose les grands problèmes, la morale et la science, dans "la Nouvelle Idole" (1895), la noblesse déchue, dans "Les Fossiles" (1892); le capital et le travail dans "Le Repas du Lion" (1897).

Abstraction enfin, l'art seul de François de Curel et c'est, tout compte fait, une dure critique et un haut éloge. Une dure critique car c'est condamner la création de ses héros, personnification d'idées et par conséquent âmes mortes,comme ce docteur Albert représentant la science inhumaine, face à la conscience publique, personnifiée par Antoinette. Un haut éloge, car c'est dans ces abstractions, risques loyalement acceptés, que Curel montre son dédain des petites habiletes techniques,son idéalisme élevé et par là sa grandeur

Curel ne prend position dans aucune lignée théâtrale. Il reste seul avec sa pensée, comme il l'était dans ses forêts lorraines. Une place de dramaturge moralisant restait pourtant à prendre après la mort de Dumas fils, c'est à Hervieu qu'elle échut. Hervieu crut avoir trouvé une nouvelle forme de tragédie, la tragédie en prose. Cette seule prétention donne la mesure de l'écrivain : s'il perpétue Dumas fils dans les sujets, il ressuscite Ponsard par ses ambitions devant l'histoire littéraire, sans plus de conséquences d'ailleurs. Le succès ne lui fit pourtant pas défaut, car il eut l'adresse de mettre en scène tous les problèmes, d'exprimer toutes les idées de la bourgeoisie qui formait son public. Gustave Lanson voit dans son théâtre la révolte de la justice contre la loi, l'Expression de l'égoïsme de l'homme dans la loi", loi sociale qui écrase la femme dans "Les Tenailles" (1895), loi de la nature qui crée les reniements dans "Connais-toi" (1909) où l'ingratitude des enfants entraînés par

THEATRE D'IDEES ET DE COMBAT

L'autre face du retour à la Littérature fut le théâtre d'idées. Sa conquête de la scène fut facile. "L'image" de Beaubourg, l'un des premiers succès de "l'Oeuvre", fut publiée avec une préface éloquente— il est curieux d'ailleurs de noter combien dans l'histoire du théâtre français les préfaces ont souvent eu plus d'importance que les pièces elles-mêmes : signe encore du primat du livre - "Par moi ou par d'autres, concluait Beaubourg, le théâtre idéaliste sera fondé ".

En réalité, le grand précurseur fut Ibsen— Antoine n'avait donné de lui que "*Les Revenants*", pièce à demi naturaliste. C'est Lugné Poe qui donna ses oeuvres les plus fermées et les plus chargées de sens. Le public bouda. Mais les auteurs furent conquis et chacun d'eux manifesta l'ambition de devenir l'Ibsen Français.

Folie, semble-t-il, si l'on considère que la faible audience d'Ibsen ne devant pas être objet d'envie. Mais une longue tradition théâtrale, en France en particulier, faisait attacher une considération toute spéciale aux idées portées et incarnées sur scène des Cléante et des Ariste de Molière, aux pièces thèse de Dumas fils, en passant par "Chatterton". C'est pourquoi, le théâtre d'idées devait rencontrer et des auteurs pour l'adopter et un public pour l'accueillir, sinon avec chaleur, du moins avec cette estime qu'on doit aux valeurs sociales solidement établies.

Mais là encore, la scène et le livre allaient retrouver et séparer leurs adeptes respectifs, considérant le théâtre comme l'objet, les uns d'un dialogue, les autres d'un monologue, c'est-à dire d'un discours, d'une leçon ou d'un prêche. Si bien qu'ils en firent le lieu, les uns "*d'un Débat*" les autres "*d'un Combat*".

1 *Le théâtre de Débat — Curel et Hervieu.*

Comme toute discussion se caractérise par le fait qu'elle est sans issue, ainsi chaque pièce de François de Curel met-elle un grand problème en scène, le retourne, l'illustre, l'examine et laisse le rideau retomber sans conclure — Réalisme. Aucunement. On ne s'y trompe point — C'est pourtant une coquetterie que Curel se fût volontiers permise — éternelle tentation du dramaturge français Et aussi bien se défend-il d'avoir mis "des idées" dans ses pièces, et veut-il les faire passer pour du théâtre de la vie. Mais nul ne le croit, pas même lui dont on dit qu'il composait dans un pavillon dont la bibliothèque renfermait, symbole ! la collection de "la Revue philosophique".

LE THEATRE IDEALISTE SOUS LA TROISIEME REPUBLIQUE

La génération 1890, fille de la défaite, se croyait et fut même un temps, la plus "apolitique" (1) qui fut. Le jeune Barrès, le jeune Blum, y prodiguaient les grâces anarchistes, sans songer qu'un jour ils redescendraient enfin sur terre, et que, comme disait le jeune gide, dans la postface du "Voyage d'Urien", leurs voyages n'étaient que rêves. A cette génération de "jeunes bourgeois affamés de tous les bonheurs" (Barrés), il fallait un théâtre qui fût lui-même évasion, compensation, refuge. Le symbolisme s'offrait. On lui demanda un théâtre.

Paul Valéry, dans une conférence magistrale (2), rappelait l'extraordinaire influence de l'enchantement Wagnérien, en ces années 90. De fait, quand Mallarmé rêve l'idée d'un théâtre absolu, ne songe-t-il pas à Wagner.

Lugné Poe, par réaction contre le théâtre libre, fonde dès 1890 le *Théâtre de l'Oeuvre* où Claudel, Maeterlinck, d'Annunzio et Ibsen aideront à combattre les poncifs du théâtre bourgeois.

Dans le cadre de ce théâtre littéraire, s'y rencontrent toutes sortes de mythologies :

Mythologie catholique "Tête d'Or" et "La Ville". Mythologie protestante et nordique, individualisme glacé (si différent de celui de Dumas) avec "Brand" ou "Maison de Poupée". Mythologie païenne et méridionale avec la "Phèdre" de d'Annunzio. Mythologie idéaliste celtique avec "Pelléas" et La Princesse Maleine" ; nous sommes ici au coeur du théâtre littéraire. Du moins, y a-t-il [illegible] de la poésie authentique et des mythes, complètement séparés de la [illegible] A la différence du théâtre à thèse d'un Dumas, un monde [illegible] par la cohérence de leur atmosphère. On n'en saurait dire autant du théâtre post romantique d'un Richepin et d'un Rostand, ou post classique d'un Bornier. La poésie est ici plaquée sur des squelettes dramatiques empruntés aux plus vulgaires mélos, ou aux plus poussiéreux exercices scolaires : il n'y en a pas moins là une volonté mythique et idéaliste indéniable : bonne ou mauvaise, c'est toujours de la Littérature

---

1. Voir notamment l'article de Léon Blum sur "Les progrès de l'Apolitique en France". Revue Blanche 1892

2. Recueillie dans "Pièces sur l'Art". Pa[illegible]

sans volonté ni intelligence, créanciers sans scruplues ni pitié, maris aveugles et niais, tels sont les personnages auxquels, des "Corbeaux" à la "Parisienne, nous intéresse l'observation amère de l'auteur. Tentative sérieuse aussi, car, plus encore que dans les caractères, le naturalisme paraît au grand jour dans la structure même des pièces, plus de technique, plus de procédées, une intrigue réduite au minimum, ruée des "Corbeaux" sur l'héritage, louvoiements de la "Parisienne" entre son mari et son amant, c'est la réalité morne et désolante, plate et grise, sans éclat et sans écho, trop dure, trop lourde, pour qu'on puisse même songer à la modifier, immuable.

Mais, *vaine* tentative, car en dépit de l'estime des critiques et de la considération des directeurs de théâtre, jamais Becque ne remporta de grands succès. Carrière remarquable, en ce sens qu'elle fut celle du seul auteurs vraiment réaliste qu'ait jamais compté la scène française et qu'elle fut sans gloire. Il y aurai là, matière à longue méditation sur les goûts du public français, les nécesités scéniques et l'essence même du théâtre.

3. *Le double jeu du théâtre libre, et l'évolution de son répertoire*

Le naturalisme jeta encore quelques lueurs et sembla un instant s'incarner dans le fondateur et dans les acteurs du théâtre libre. Il paraissait devoir s'exprimer dans leurs innovations techniques, négation de la "mécanique dramatique à la Scribe et à la Sardou qui subordonne tout au "fini" de la pièce, précision de la mise en scène où les objets vrais remplaçaient le carton peint, soin des acteurs de rapprocher leur jeu de la vie réelle en dédaignant les effets. Il parut devoir triompher dans les sujets mêmes des pièces, "tranches de vie" violentes et comédies brutales, "rosses" se passant dans des maisons closes. Pourtant, et presque à l'origine on vit à son répertoire des œuvres d'un tout autre genre, et à côté de ces crudités, brillèrent "Le Baiser" de Banville et "Les Fossiles" de Curel en attendant Tolstoï avec "Puissance des Ténèbres" et Ibsen avec "Les Revenants". Ce dernier genre, pièces étangères hermétiques ou symboliques, finit par l'emporter, évolution curieuse d'ailleurs, sans heurts, qui marque bien l'échec absolu de la tentative naturaliste, puisque celle-ci sombra sans bruit dans le néant. Ce qui n'ôte rien au mérite d'Antoine et de sa troupe, dont la gloire sera justement d'avoir pu en être devant l'histoire littéraire, en ces funérailles grandioses dans leur discrétion, à la fois les proches parents et les fossoyeurs.

les auteurs eux-mêmes, puisque le théâtre est livré soit à la poésie, soit aux idées, soit aux mondanités, conquêtes que l'avènement du symbolisme ne suffit pas à expliquer.

I. L'EFFORT NATURALISTE

Il y a quelque chose d'héroïque dans cet effort désespéré pour maintenir ouverte la porte de la scène entrebaillée par Dumas fils et Augier sur la vie. Et il y a quelque chose de tragique dans le relâchement progressif de cet effort. Le répertoire du théâtre libre est éloquent à ce sujet; on y voit de mois en mois succéder la pièce idéaliste ou symbolique aux "tranches de vie" pour lesquelles il avait été créé. Comme un Sisyphe qui peu à peu renoncerait à son effort inhumain, détendrait ses muscles, relâcherait son étreinte, et verrait son rocher retomber sur lui pour l'écraser.

1. *Echec des adaptations réalistes au théâtre*

Les romanciers réalistes avaient essayé quelquefois de retrouver sur la scène leurs succès, tantôt par des oeuvres personnelles, tantôt par des adaptations de seconde main. Ils n'y réussirent pas. Double échec d'ailleurs, à la fois commercial et littéraire, car ces oeuvres se heurtaient à une contradiction interne et par leur origine même : on n'embrasse pas la vie avec une pièce tirée d'un roman, fût-il réaliste. Dès sa naissance, elle sonne faux. Et le public ne s'y trompe pas, qui devait siffler le "Mercadet" de Balzac et applaudir "L'Arlésienne" de Daudet. Si bien que le réalisme transposé au théâtre, ne réussit-ô ironie ! que dans le genre le plus tissé de fiction : l'opéra.

2. *L'échec de la comédie naturaliste : Henri Becque*

La tentative la plus marquante fut celle d'Henri Becque. La plus marquante parce qu'elle fut à la fois la plus loyale, la plus sérieuse et la plus vaine. *Loyale*, car Becque ne cacha jamais, ni ses intentions, ni son jeu, se refusant à toute concession aux préjugés du public.

Il n'y a pas chez lui, de héros sympathiques, pas de pécheresses réhabilitées à la Dumas fils, pas de polytechniciens vertueux à la Augier, pas de sublimes colonels à la Scribe, pas de beaux ténébreux à la Victor Hugo. Becque met une sorte de coquetterie à rester implacable : femmes

tempérés pas le recul d'un cadre antique, des éléments authentiquement rousseauistes. Il n'en est moins vrai que le "Mariage d'Olympe" (1855) est une riposte directe et même avouée à la Dame aux Camélias. Au mythe de la courtisane s'oppose ici le mythe de la "goule" ennemie des familles.

On n'a fait que changer de mythe. Il serait facile, poursuivant cette analyse, de montrer, dans "Les Fourchambault" une contrepartie du "Fils Naturel", et dans les "Lionnes Pauvres" la réplique anticipée du "Gendre de M. Poirier".

J.-J Weiss (1), dans une page clairvoyante de son étude sur "le Théâtre et les moeurs", a montré dans le détail l'irréalisme foncier des caractères et de l'intrigue du "Mariage d'Olympe". A quoi bon prolonger une justification fastidieuse. La production théatrale du Second Empire, toute entière inspirée par les besoins d'une classe mêlée, hybride, où se coudoient aristocrates et bourgeois, vit de mythes et propage des mythes. L'atmosphère scientiste et positiviste du temps peut voiler, sans réussir à la masquer complètement, la nature irréaliste et mythique de ce théâtre.

LE THEATRE FRANCAIS - 3eme REPUBLIQUE JUSQU'A 1900

L'ECHEC NATURALISTE ET LE RETOUR A LA LITTERATURE

Les années 1890 sont les années cruciales dans l'histoire théâtrale du XIXè siècle. Non parce qu'elles portent à la scène une nouvelle génération dramatique (car les années 1850 seraient à cet égard, d'une égale importance). Mais parce qu'elles sont témoins du dernier grand effort tenté par le théâtre français pour se libérer de la littérature et revenir enfin à la vie, de ce grand effort et de son échec. Et dire échec, serait encore trop dire, car [illegible] au moins l'éclair passager d'une réussite, l'espoir momentané du succès. Il n'en est rien, et pas une fois "le Naturalisme", puisqu'il faut l'appeler par son nom, ne peut prendre pied sur les planches. Le Romantisme, en effet avait eu, du moins, son théâtre, de 1830 à 1840, et aussi le "Réalisme Bourgeois", de 1850 à 1860. Le "Naturalisme", non. Et cette impuissance est significative de l'incompatibilité sur la scène française du littéraire et du "vécu". Incompatibilité sentie d'ailleurs dans les dernières années du siècle, par

1. Le Théâtre et les Moeurs. Paris. Calman-Lévy Editeur. 1889, chap. II pp. 244-255

à travers la vie. Elle n'est qu'une surprise ou une fantaisie de sens, une contradiction avec tout le système social que d'ailleurs il faudra subir. De même la solution pseudo-révolutionnaire du divorce n'est qu'un expédient. Elle libère l'un de l'autre l'homme et la femme; mais le lendemain, si celle-ci n'a point un travail assuré et une propriété suffisante, quel abîme. Quant aux enfants, perdant l'appui de la famille sans être assurés de celui de la société, ils sont vraiment des orphelins. De même, enfin, l'union libre, ou ce qu'on appelle par dérision de ce mot, n'est qu'une basse caricature du mariage. Là, la femme, livrée sans garantie au caprice de l'homme, n'est qu'une pauvre esclave qui peut être jetée à la rue. Là, la femme est enchaînée par la misère, et l'homme quand il est bon, est enchaîné par la pitié.

Au service de cet idéal incomplet et contradictoire, la technique dramatique de Dumas est-elle plus réaliste-mythique? Il n'en est rien, et le sens de la ficelle théâtrale manque déplorablement à l'auteur du "Fils Naturel" ou de "l'Etrangère".

L'origine douteuse de la richesse du personnage sympathique (Boisceny, dans "le Fils Naturel"). Le retour inespéré d'un "justicier d'Amérique" (le mari de Mistresse Clarkson, dans "l'Etrangère"); l'imbroglio indigne du plus bas mélodrame qui permet au prince d'Aubrac de "tuer sans tuer tout en tuant" (qu'on nous passe l'expression): quoi de plus enfantin, de plus puéril ? Tout ici est mythique, tout ici est littéraire, et l'on se prend à regretter, devant ce noeud gordien de "ficelles" dramatiques maladroitement enlacées, le "fil d'or" avec lequel le "Politique" de Platon faisait harmonieusement sur la scène du monde, évoluer les destins.

AUGIER, OU LES MYTHES D'UN BOURGEOIS PURITAIN

Quoi qu'il en dise, Dumas ne s'est pas un réformateur, produit social avant d'être une cause, il répond aux besoins d'un milieu donné. Il en est de même d'Augier, l'Anti-Dumas, qu'exigeaient, dans la bourgeoisie de 1860, les "fonctions puritaines" pour équilibrer les aspirations romantiques.

Anti-Dumas : tout Augier tient dans cette formule. Chacune de ses pièces *répond*, et rétablit à propos de chaque thème, l'orthodoxie puritaine ébranlée par Dumas. Mettons à part quelques péchés de jeunesse comme le "Joueur de Flûte" où Seillère discerne, heureusement

monstrueuse que Claude doit abattre. Tantôt, en réponse aux reproches d'immoralité que les bourgeois effarés lui adressent, on affiche le pur et noble souci de servir avant tout ce qu'on appelle, dans un ridicule contre-sens, la "plus-value humaine", car Dumas fils, persuadé de la mission morale et humaine du théâtre, de son théâtre, proclame que "si l'homme moral est fait, l'homme social reste à faire". Le théâtre ainsi entendu n'est plus un miroir, mais un levier, un instrument d'action. La scène n'est plus qu'une chaire, d'où tonne, intarissable, l'évangile rousseauiste. La question du réalisme mise à part, que penser de ces revendications, et du système où elles s'enchâssent ? Jaurès a, dans une page pénétrante(1), analysé les contradictions de ce réformisme impuissant à déceler les causes profondes des injustices qu'il condamne, incapable de chercher dans la structure économique les raisons d'une règle juridique ou morale.

Les inquiétudes de Dumas fils écrit-il, étaient insolubles, Il voulait avant tout sauver l'institution du mariage, pour qu'elle pût survivre, il lui demandait de s'assouplir un peu et de s'accommoder aux droits, aux exigences de l'individu humain. C'est ainsi qu'il a longtemps demandé le divorce, pour que la personne humaine ne fût pas blessée en sa liberté, en sa dignité, en son droit au bonheur, par la fatalité d'un mariage irréparable. C'est ainsi qu'il voudrait faire rentrer le fils naturel dans les cadres de la vie Sociale. C'est ainsi, même qu'il demande le pardon, le respect, pour la jeune fille qui sans s'avilir a failli et hors du mariage s'est donnée. Dumas fils heurte toujours dans ses oeuvres l'institution du mariage qu'il veut maintenir ou même renforcer, et le droit individuel de l'être humain qui prétend, même en dehors de ce cadre légal, à la vie et à la joie. *Mais parce qu'il est resté dans la sphère de la pensée bourgeoise, parce qu'il n'a ni abordé, ni même entrevu le problème de la propriété; il se débat en d'irréductibles contradictions.*

La jeune fille qui se donne sans l'aveu de ses parents et hors du mariage se risque à une aventure intenable où sa dignité ne peut que sombrer. Elle ne vit que du patrimoine familial. Demain, si l'amant l'abandonne, elle devra, pour nourrir son enfant, redemander asile à la famille dont elle a méconnu la loi. Sa "faute" est bien en effet une faute. Elle n'est pas l'acte d'une volonté libre qui vraiment va se posséder

1. Socialisme et liberté. Revue de Paris 1898. Reproduit in oeuvres complètes.

biographiques de son "Affaire Clémenceau" les impressions ineffaçables que les brimades sociales ressenties à ce propos ont laissées dans son âme. Le Jeune Pierre Clémenceau placé à dix dans un internat où il est bientôt mis en quarantaine par des camarades de tempérament moins complexe et moins distingué, cherche et trouve des consolations près de l'aumônier du collège. L'exemple du Christ souffrant lui est alors proposé par le prêtre, dépositaire de ses tristes confidences, son mystique appétit de pouvoir et de revanche s'exalte aussitôt. "C'est cela, se dit-il en effet, lorsqu'il réfléchit aux suggestions de l'ecclésiastique ! C'est cela, je suis comme Jésus. *Je n'ai pas de père. Je suis le fils de Dieu* ! Je comprends maintenant ! Et les hommes qui ne sont pas initiés à ce mystère, me persécutent à présent comme ils l'ont persécuté jadis! Plus tard ils me mettront à mort à mon tour; mais le *royaume* des cieux m'appartiendra et je *délivrerai* ceux qui m'ont méconnu. Ma pauvre chère mère sera en *vénération* par le monde." Que l'émotion ici rapportée ait été réelle et profonde, il n'est pas question d'en douter. Qu'il y ait là une assez singulière préparation à une peinture réaliste de la femme déchue, on peut en douter également. Voici revenues sur la scène Marion Delorme et Fantine; la première est devenue "La Dame aux Camélias", la seconde absoute par les soins de l'évangélique Madame Aubray, donne le Jour à des "fils naturels" en qui revivent Ruy Blas, Hernani, Gennaro et Gilbert, sans parler bien entendu de leur parrain à tous : Antony.

"*La femme maudite*". Autre mythe cher à Dumas fils, n'est pas sans antécédents romantiques : la Femme de Claude n'aurait-elle pas pu, en premières noces épouser Richard Darlington? Quant à la femme mal mariée, *Princesse Georges* ou *Duchesse de Septmonts*, ce n'est pas une figure nouvelle pour nous : Dona Sol et Kitty Bell n'ont pas cessé de poursuivre à travers les générations changeantes leurs vies et leurs morts alternées. Ô réalisme!

Le *style* de Dumas fils est celui *d'un* prédicateur : non d'un observateur de la réalité sociale. Style de préfacier non de dramaturge. Car, dans ces pièces, comme dans toute bonne pièce romantique, depuis Cromwell, ce qu'il y a de plus important, c'est la préface. Et quelles préfaces. Tantôt on nous y dépeint, dans un mélange de métaphores incohérentes et plates venues d'Ezéchiel à travers Pixérécourt, la "bête"

---

1. La Morale de Dumas fils par Ernest Seillière. Librairie Félix Alcan 1921. pp IX (Avant-Propos).

UN BOURGEOIS ROMANTIQUE ET SES MYTHES : DUMAS FILS.

Jean-Jacques Weiss (1) accusait Dumas fils de n'être qu'un faux réaliste. M. Ernest Seillère voit en lui l'incarnation abhorrée de la quatrième génération rousseauiste.

"Quoi qu'il en soit", écrit-il (2) "des rapprochements purement biographiques que l'on pourrait proposer entre Sand et Dumas, nous estimons... que le second fut l'héritier, le continuateur de la première dans son effort contre l'antique constitution de la famille"...... "Il a de la sorte, largement ouvert les voies devant ceux qui devaient venir après lui pour faire du théâtre français l'objet du scandale d'abord, de la curiosité ensuite, enfin de l'imitation du globe."

Au vrai, l'auteur de la Dame aux Camélias, ne mérite ni cet excès d'honneur ni cette indignité. C'est un bourgeois romantique, comme son père était un romantique bourgeois; il incarne donc en lui, deux mythes, deux idéologies : pour un dramaturge réaliste, avouons que c'est beaucoup et que "trop mythique", il l'est dans ses héros, dans son style et dans sa technique théâtrale.

Ses héros ? Ce sont ceux-là mêmes de son père, mais dépouillés de leurs oripeaux romantiques, privés de leur dague (remplacée dans "la Princesse Georges" et "la Femme de Claude" par un plus pratique révolver), de leur pourpoint et de leur fraise,-non, hélas, de leur langue ! Les pantins du père tiraient l'épée, ceux du fils se bornent à faire des tirades en style de notaire enivré ! Tout le théâtre romantique se retrouve ici; tout le théâtre préromantique de même. Dumas fils n'est-il pas le continuateur authentique des drames larmoyants d'un Diderot, d'un Sedaine et d'un Lachaussée ? du "Fils Naturel" de Diderot au "Fils Naturel" de Dumas fils, en passant par "l'Antony" de Dumas père, la filiation est directe et, si l'on peut dire, légitime.

Recensons brièvement quelques uns de ces mythes.

Le premier de tous, par ordre chronologique est celui de "*La Courtisane*". Enfant naturel, Dumas fils, a retracé dans les pages auto-

---

1. Le théâtre et les moeurs. Paris. Calmann Lévy, 1889 p. 135.

2. La Morale de Dumas fils. Paris 1921. Librairie Félix Alcan, P X. "Avant-Propos".

ne le sépare [illegible] public de l'opérette et du vaudeville. En face d'eux, le *Bourgeois enrichi*, mais non encore privé de son armature morale, encore tout guindé dans les préjugés de sa classe, respectueux de tous les "tabous" que lui ont transmis ses pères, et prenant au sérieux les idoles que déjà, l'aristocrate inconséquent et léger, laisse souffleter, en riant sur la scène, c'est le spectateur [illegible] des drames de Dumas fils. Puritain plus souvent, et resté en quelque façon à un stade antérieur de l'idéologie bourgeoise, s'il est vrai, comme l'a ingénieusement montré Emmanuel Berl (1), que le bourgeois au cours du développement de sa classe, passe nécessairement par ces deux attitudes. L'étude du théâtre qui satisfait aux besoins d'une telle société se réduit ainsi, du point de vue qui nous occupe, à la classification des mythes dont elle vit.

L'OPERETTE ET LE VAUDEVILLE : LE MYTHE DE L'ETRANGER ET DU PROVINCIAL

Une longue analyse [illegible] superflue à qui voudrait montrer la part du mythe dans l'opérette d'un Meilhac et d'un Halévy : cette parodie des valeurs cultu[illegible] Belle Hélène, Orphée aux Enfers dont fut nourrie une aristo[illegible] sceptique et blasée, vrai produit d'une civilisation décadente, et [illegible] parodies plus riches de contenu humain, non différentes [illegible] profond, d'un Giraudoux [illegible] cette "blague" infatigable [illegible] en riant, toutes les idoles : c'est l'essence même du théâtre [illegible] d'une société factice. Ce qu'il serait plus nécessaire de mettre en lumière, c'est le caractère également "mythique" du vaudeville [illegible] d'ailleurs le même public. Le théâtre d'un Labiche [illegible] expression d'une esthétique toute contraire [illegible] celle de M[illegible] sur certains des mêmes thèmes. Sur celui [illegible] l'Etranger, du Provincial. Le "péquenaud" ahuri [illegible] la merci des mystifications les plus baroques, des [illegible] plus invraisemblables, est [illegible] frère des touristes de la [illegible]. La "Haute Société", dans la tradition de toutes les [illegible] avec les mythes dont elle vit et ridiculise cet étranger et ce provincial.

---

1. Le Bourgeois et l'Am[illegible] Paris [illegible] Librairie Gallimard pp. 15-[illegible].

2. La Guerre de Troie [illegible], Amphitryon, Electre.

3. Qu'on nous passe [illegible] Jules Romains a fait admettre dans les Lettres.

LE THEATRE DU SECOND EMPIRE, EXPRESSION DES MYTHES D'UNE SOCIETE BOURGEOISE.

Par

MOHAMED GAMIL ARIF

On a souvent, croyant ainsi se dispenser d'explications plus amples, défini le Second Empire comme une période de réalisme : réalisme politique, réalisme littéraire. Le discrédit de la phraséologie des oripeaux romantiques; le culte d'une scène d'autant plus ambitieuse qu'elle méprenait sa vraie fonction et ses vraies limites; Millet, Flaubert et Taine et Leconte de Lisle "relevant" la génération des Delacroix, des Sainte-Beuve et des Lamartine, civilisation de la richesse et du plaisir s'étalant, orgueilleuse, sur le parvis des Bourses et des Théâtres; le destin ironique réalisant, avec vingt ans de retard "l'âge de l'or" qui avait anticipé la vue prestigieuse de Balzac; autant de confirmations apparentes pour le cliché du "réalisme de 1850"

Nous n'étudions ici que l'évolution du théâtre, et n'avons pas à rechercher si, dans tous les domaines, le réalisme du Second Empire n'est pas un idéalisme refoulé; si un Leconte de Lisle ne s'est pas réfugié dans la vision glacée des mondes morts, par désespoir de voir mourir sur les barricades des Journées de juin, le monde plus juste qu'il avait rêvé; si Flaubert n'a pas pratiqué le réalisme de la pitié et du dégoût si la génération de 1848, blessée dans ses plus nobles espérances, n'a pas "couvert" sans les "ôter", les expressions d'une âme restée rêveuse et chimérique. Mais si nous n'avons pas à "psychanalyser" en quelque sorte, la façade scientifique d'une civilisation, nous devons du moins établir la nature proprement "mythique" et "littéraire", du théâtre où celle-ci s'est reconnue.

"Mythique", avons-nous dit. Quel est en effet, le public de ce théâtre ? Un public essentiellement parisien et bourgeois. Deux classes sociales: *l'Aristocratie renflouée* par de riches mariages ou par l'entrée aux conseils d'administration : jouisseurs sceptiques, aimant à bafouer les valeurs mêmes dont ils vivent: monde désaxé, bien près de se dissoudre dans le "Demi-Monde" qu'il méprise, et dont aucune idéologie

ténèbres qui l'aveuglent, ni dans la mortalité et dans les misères qui l'affligent. Mais il n'a pu soutenir tant de gloire sans tomber dans la présomption. Il a voulu se rendre centre de lui-même, et indépendant de mon secours. Il s'est soustrait de ma domination; et, s'égalant à moi par le désir de trouver sa félicité en lui-même, je l'ai abandonné à lui" (430).

Mais le christianisme sauve l'homme de cet abandon qui le conduit soit au désespoir parce qu'il est persuadé de sa misère, soit à l'orgueil parce qu'il se souvient seulement qu'il est créature de Dieu. "La misère persuade le désespoir, l'orgueil persuade la présomption".

Mais "l'incarnation montre à l'homme la grandeur de sa misère par la grandeur du remède qu'il a fallu", et va l'éloigner à la fois du désespoir et de l'orgueil" La connaissance de Jésus Christ fait le milieu parce que nous y trouvons et Dieu et notre misère".

Pascal exprime l'état contradictoire et paradoxal de notre être, en disant que nous sommes incapables et d'ignorer absolument et de savoir certainement. C'est là justement que consiste l'énigme de l'homme, qui est un nœud de contradictions, telles que la grandeur et la misère, la connaissance et l'ignorance, le bonheur et le malheur. Comme Pascal le dit lui-même :

"S'il se vante, je l'abaisse; s'il s'abaisse, je le vante; et le contredis toujours, jusqu'à ce qu'il comprenne qu'il est un monstre incompréhensible." (420).

L'homme finalement est un ange déchu, qui se souvient des cieux, comme l'a formulé poétiquement Lamartine; ou encore, pour parler le langage pascalien "Nous avons été dans un degré de perfection dont nous sommes malheureusement déchus." (434).

Pascal nous dit d'ailleurs qu'il est salutaire que l'homme cherche la vérité en gémissant" Il est bon d'être lassé et fatigué par l'inutile recherche du vrai, afin de tendre les bras au Libérateur." (422).

Autrement dit, lorsqu'on sera désespéré de trouver la vérité par la raison (en effet, comment expliquer rationnellement ce qui est foncièrement irrationel, à savoir le noeud de contradictions qui constitue l'énigme de notre être. A ce moment là, ayant senti toute l'inutilité et l'inefficacité de la raison, on s'adressera au coeur; non pas à la partie affective et petitement sentimentale de celui-ci, mais à cette affectivité supérieure que Pascal appelle le coeur, auquel la divinité est uniquement sensible.

C'est ainsi que nous arrivons à la conclusion de tout cet édifice merveilleux que constituent les fragments de Pascal, à cette sagesse divine qui nous explique enfin notre nature :

"N'attendez pas, dit-elle ni vérité, ni consolation des hommes. Je suis celle qui vous ai formé et qui puis seule vous apprendre qui vous êtes mais vous n'êtes plus maintenant en l'état où je vous ai formés. J'ai créé l'homme saint, innocent, parfait. Je l'ai rempli de lumière et d'intelligence, je lui ai communiqué ma gloire et mes merveilles. L'œil de l'homme voyait alors la majesté de Dieu. Il n'était pas alors dans les

"Car enfin, si l'homme n'avait jamais été corrompu, il jouirait dans son innocence et de la vérité, et de la félicité avec assurance : et si l'homme n'avait jamais été que corrompu, il n'aurait aucune idée ni de la vérité, ni de la béatitude. mais malheureux que nous sommes, et plus que s'il n'y avait point de grandeur dans notre condition, nous avons une idée du bonheur, et ne pouvons y arriver; nous sentons une image de la vérité, et ne possédons que le mensonge; incapable d'ignorer absolument et de savoir certainement, tant il est manifeste que nous avons été dans un degré de perfection dont nous sommes malheureusement déchus." (434).

Dans cette dernière pensée, Pascal nous dit explicitement que tout notre drame a son origine dans le *péché originel*. Dieu aurait créé l'homme parfaitement capable de vérité et de félicité absolues; le premier homme aurait vécu dans le paradis; s'il en fut chassé, autrement dit s'il a subi cette déchéance, cette corruption morale, ce fut uniquement de par sa faute, ce qu'on appelle le péché originel, fut transmis par voie héréditaire à tous les hommes. C'est ainsi que l'auteur pense que si l'homme n'avait jamais été corrompu par le péché originel, il continuerait de vivre dans un état de vérité et de félicité parfaites. Mais ayant été atteint, corrompu par le péché originel, il reste incapable et de connaissance et de béatitude, tout en conservant en lui comme le souvenir de cet état de perfection qui était le sien primitivement. Ce qui fait que l'homme, fort de cette double souvenance, porte en lui un double instinct qui le pousse invinciblement et vers le savoir, et vers le bonheur absolu. En effet, nous, tant que nous sommes [illegible] désirons et de connaître la vérité et d'être heureux. D'ailleurs, les deux ne font qu'un [illegible] que la parfaite félicité [illegible] de vérité. Celle-ci [illegible] ne concerne pas tel ou tel domaine particulier de la réalité (par exemple le domaine physique, chimique ou astronomique), mais la réalité dans sa totalité, ou encore, ce qui plus est, l'auteur, le créateur même de toute existence. Ce n'est que lorsque nous arrivons à connaître l'être parfait, à savoir la divinité, que nous devenons parfaitement heureux. Par contre, tant que nous restons à mi-chemin entre la parfaite ignorance (celle qui s'ignore elle-même), et la connaissance absolue, nous sommes des êtres excessivement malheureux, parce que nous avons une idée, une souvenance et du bonheur et de la vérité, sans pouvoir atteindre ni l'un ni l'autre.

Dans ce fragment d'un profond mysticisme, Pascal nous dit, avec des accents vibrants d'émotion et d'inspiration, combien notre raison, caractérisée avant tout par orgueil, est au fond impuissante, dans sa nature paradoxalement contradictoire. En effet, cette raison qui est sans cesse poussée par un indestructible instinct à rechercher la vérité s'avère sans cesse incapable de la trouver. Donc il y a tout lieu pour notre nature misérable et imbécile (tant qu'elle reste séparée de la divinité), de se taire et de s'humilier. L'orgueil est d'autant plus impardonnable, que cette raison humaine, sans Dieu, ne fait que tâtonner dans les ténèbres. Pascal ajoute plus loin que l'homme, qui a vraiment la foi, est infiniment supérieur, au point de vue de la connaissance, de la vérité et de la sagesse, à l'homme qui se fie exclusivement à sa raison, et qui tourne le dos à la religion.

Il y a lieu de replacer ici la célèbre citation : "Le cœur a ses raisons, que la raison ne connaît point". On n'aime pas avec la raison, mais avec le coeur et c'est pour cela que "c'est le coeur qui sent Dieu, et non la raison. Voilà ce que c'est que la foi. Dieu sensible au coeur, non à la raison ".

Bref, il s'agit d'humilier autant que possible cette raison humaine trop orgueilleuse, afin de pouvoir prêter l'oreille à ce que dit le maître, le monarque invisible, Dieu dans son omniscience. Humilions donc la raison, et par contre, ouvrons tout grand notre coeur, ce coeur pour lequel Dieu est sensible : écoutons Dieu.

Pascal parle de "croyance en Dieu", mais il parle aussi de religion. Quelle sera la religion à laquelle il conviendra de se conformer. —La vraie, la seule religion est celle qui explique la grandeur et la misère de l'homme :

"Les grandeurs et les misères de l'homme sont tellement visibles, qu'il faut nécessairement que la véritable religion nous enseigne et qu'il y a quelque grand principe de grandeur en l'homme et qu'il y a un grand principe de misère. Il faut donc qu'elle nous rende raison de ces étonnantes contrariétés". Or seule la religion chrétienne, peut expliquer cette dualité par la notion du péché originel.

"Car, sans cela, que dira-t-on qu'est l'homme. Tout son état dépend de ce point imperceptible." Et Pascal ajoute

Les Pyrrhoniens sont des sceptiques par excellence, doutant de toutes choses, affirmant qu'il n'y a aucune possibilité de certitude, ni de vérité. Par contre, les Dogmatiques prétendent qu'il est possible à l'homme de trouver la vérité. Or, ces deux sectes, d'après Pascal, ont tort toutes les deux. En effet, la nature profonde de l'homme nous montre que celui-ci possède un instinct indestructible qui le pousse à la vérité, mais d'un autre côté, la raison s'avère impuissante d'atteindre cette vérité :

Nous souhaitons la vérité, et ne trouvons en nous qu'incertitude. Nous cherchons le bonheur, et ne trouvons que misère et mort. Nous sommes incapables de ne pas souhaiter la vérité ni le bonheur et sommes incapables ni de certitude, ni de bonheur."

C'est pour cette rasion que ni l'une ni l'autre de ces philosophies n'est satisfaisante: la raison confond les Dogmatiques, et la nature les Pyrrhoniens.

D'une façon plus générale, Pascal veut démontrer qu'aucune philosophie ni affirmative comme celle des dogmatiques, ni négative comme celle des sceptiques et des pyrrhoniens, n'est capable d'offrir à l'homme la vérité cette vérité dont il a pourtant un immense besoin.

Ainsi l'auteur se propose de nous montrer notre misère (même au point de vue intellectuel) tant que nous restons séparés de la divinité.

" C'est en vain, ô hommes, que vous cherchez dans vous-mêmes le remède à vos misères. Toutes vos lumières ne peuvent arriver qu'à connaître que ce n'est point dans vous-mêmes que vous trouverez ni la vérité ni le bien. Les Philosophes vous l'ont promis et ils n'ont pu le faire. Ils ne savent ni quel est votre véritable bien, ni quel est votre véritable état."

VI — *Dieu, seule solution de l'énigme qu'est l'homme*

Le seul moyen par lequel l'homme puisse atteindre à la vérité suprême, à la révélation, c'est la foi qui le relie à Dieu."

" Connaissez donc, superbe, quel paradoxe vous êtes à vous-mêmes. Humiliez-vous, raison impuissante; taisez-vous, nature imbécile: apprenez que l'homme dépasse infiniment l'homme, et entendez de votre maître votre condition véritable que vous ignorez. Ecoutez Dieu " (434).

V. *L'énigme de la nature humaine.*

L'homme n'en reste pas moins une redoutable énigme et c'est pour cela que Pascal en vient à s'écrier :

"Quelle chimère est-ce donc que l'homme, quelle nouveauté, quel monstre, quel chaos, quel sujet de contradiction, quel prodige! Juge de toutes choses, imbécile ver de terre; dépositaire du vrai, cloaque d'incertitude et d'erreurs, gloire et rébut de l'univers" (434).

Dans ce passage, l'auteur exprime d'une manière admirable, la double nature contradictoire de l'homme : l'être humain est appelé tout d'abord une chimère, c'est-à-dire un monstre, puis il est qualifié de prodige, c'est-à-dire merveille, en fait il se présente comme un chaos, il renferme un grand nombre de contradictions. Dans l'âme humaine se trouve le couple éternel de l'amour et de la haine, du bien et du mal, l'essence et du ciel et de l'enfer à la fois. De par son corps, l'homme est un "imbécile ver de terre", qu'une goutte est capable parfois d'écraser, de [illegible] l'esprit, l'homme est le juge de toutes choses.

André Gide, dans son Œdipe, nous dit que le mot homme est un mot-clé, qui résout tous les problèmes, toutes les énigmes de l'existence. Mais l'homme est le dépositaire de la vérité et, en même temps, [illegible] un amas d'erreurs et d'incertitudes; en effet, son corps est pour lui un potentiel d'ignorance et d'obscurité : les sens trompent l'homme, le plongent dans l'erreur. Seul son esprit peut le sauver des ténèbres. L'homme est un rébut, à savoir la chose la plus méprisable [illegible] malgré tout, l'être le plus génial de la création.

Pascal se demande alors [illegible] quelle philosophie serait capable de mettre quelque clarté dans cet enchevêtrement inextricable, d'introduire quelque logique au milieu de toutes ses contradictions, [illegible] une explication valable pour cet être complexe fait de bestialité [illegible] spiritualité qu'est l'homme.

Mais Pascal rejettera les deux doctrines philosphiques qu'il examine : le dogmatisme et le phyrrhonisme.

"Qui démêlera cet embrouillement. La nature confond les Pyrrhoniens, et la raison confond les Dogmatiques. Que deviendrez-vous donc, ô hommes qui cherchez quelle est votre véritable condition par votre raison naturelle. Vous ne pouvez fuir une de ces sectes ni subsister dans aucune" (434).

me aura perdu toute sa dignité existentielle. C'est la raison pour laquelle il est très avantageux de représenter à l'homme qu'il est bête et ange à la fois. Il doit le savoir sans cesse, afin de s'efforcer sans cesse de lutter victorieusement, grâce à l'ange, contre la bête, montant ainsi de en plus le long de l'échelle ontologique.

"L'homme n'est ni ange, ni bête, et le malheur veut que qui veut faire l'ange, fait la bête" (358).

Cette affirmation de Pascal semble au prime abord apporter un démenti formel au fragment précédent, pourtant il n'en est rien, et cette nouvelle affirmation ne fait que reprendre l'idée que l'homme n'est ni uniquement un ange, ni uniquement une bête, mais les deux en même temps. Ce petit fragment d'ailleurs complète le précédent, en apportant la précision que celui qui veut faire l'ange [illegible] la bête.

En effet, d'après ce [illegible] nous venons de voir, il est dangereux pour l'homme d'ignorer [illegible] de son être, de ne pas avoir constamment à l'esprit le fait qu'il est un nœud de contradictions : bête et ange simultanément. Prenons par exemple le cas d'un homme qui se croit un être uniquement pur et parfait : ce sera l'être le plus présomptueux, le plus sûr de [illegible] et évidemment cela l'empêchera de vivre dans l'effort [illegible] seul moyen de devenir vraiment supérieur. Sans un effort constant de sa volonté, sans cette mobilisation, sans cette tension totale de son [illegible] l'homme ne peut arriver à vaincre en lui la bête : s'il se croit [illegible] ange" il sera sans cesse tout le contraire.

C'est cette du[illegible] constitue le fond [illegible] base de toute la na[illegible] ne pas perdre de vue qu'il y a un lien [illegible] de l'homme : on peut, avec Pascal, le [illegible] balance. Pour qu'un plateau s'élève, il faut que [illegible] nous avions trouvé un lien semblable entre la grandeur et [illegible]

En tout cas, l'essen[illegible] connaissant cette double nature, c'est de s'estimer à son prix "Qu'il s'aime, car il y a en lui une nature capable de bien, mais qu'il n'aime pas pour cela les bassesses qui y sont. Qu'il se méprise par ce que cette capacité est vide : mais qu'il ne méprise pas pour cela cette capacité naturelle"

Ce texte nous recommande encore de ne pas nous faire de l'homme un tableau trop pessimiste en lui montrant exclusivement sa petitesse, sa misère), ni trop optimiste non plus, en le représentant uniquement comme un être de pureté, de hauteur spirituelle.

Tout d'abord, il est dangereux de lui faire voir combien il ressemble aux bêtes (par le fait de posséder lui aussi un corps), sans lui montrer en même temps sa grandeur qui découle de sa spiritualité. Non seulement il est affreusement dégradant de réduire l'essence humaine à l'existence d'un corps, plein de laideurs, qui est esclave de certains besoins et qui est destiné finalement à une horrible putréfaction; mais encore, dans ce cas, on fait abstraction de la partie essentielle de l'homme, et de plus on décourage celui-ci, en lui fermant tous les horizons et toutes les perspectives si vastes et si nobles, que seule lui ouvre la partie "ange" de son être.

On a un exemple frappant de tous les désavantages que comporte une peinture trop pessimiste de l'homme, avec le cas du matérialisme : celui-ci, loin de constituer une source d'inspiration pour l'être humain, le dégrade, le rabaisse au contraire, le ravalant au niveau des bêtes. Il faut donc faire un tableau complet de l'homme, en lui montrant à la fois les deux pôles de son être, sa bassesse certes, mais en même temps sa grandeur.

Si on ne lui montre que sa grandeur, la chose aura des inconvénients aussi graves que si l'on ne lui montrait que sa bassesse. En effet, dans pareil cas, l'homme se croira un être parfaitement supérieur, un [illegible] esprit pur, un être presque égal à Dieu: dès lors il y gagnera une trop grande présomption de lui-même, ce qui serait [illegible] dangereux. l'homme, se croyant parfait, ne fera aucun effort pour se perfectionner, ou, comme le dit si justement Nietzsche, pour de[illegible] qu'il est au fond. Or sans effort, sans lutte incessante, on ne peut remporter la moindre victoire dans l'ordre de la spiritualité : au contraire, c'est en subjuguant, en maîtrisant sans cesse tout ce qui est inférieur dans son être que l'homme devient de plus en plus un être supérieur.

Pascal dit par la suite qu'il est encore plus dangereux de laisser ignorer à l'homme à la fois sa misère et sa grandeur; en effet l'homme, ne se sachant ni misérable ni grand, cessera d'être aussi bien misérable que grand, pour [illegible] l'arbre ou la pierre, qui ne sont eux, ni l'un ni l'autre. Sans la connaissance de sa double nature contradictoire, l'hom-

Pascal, d'ailleurs, précise que ce qui fait au fond notre vrai bonheur, c'est d'être estimé par une âme, c'est de jouir du respect d'une conscience. L'idée d'être méprisé par une conscience humaine constitue le plus souvent la souffrance la plus aigue. La plupart de nous avons peut-être éprouvé ce sentiment de douleur poignante, lorsque, ayant commis un acte répréhensible, nous avons tout d'un coup été surpris par quelqu'un, dans le regard duquel nous avons lu aussitôt le mépris; et ceci est d'autant plus pénible si c'est quelqu'un qui nous estimait, nous admirait, nous aimait jusqu'alors. Jean-Paul Sartre a dit que l'amoureux n'ose pas commettre, même lorsqu'il est seul, des actes laids au point de vue moral; la raison en est qu'il tient tellement à l'estime de celle qu'il aime, que l'idée de cesser tout d'un coup d'être digne de son estime, lui est insupportable. C'est justement l'effet embellissant de l'amour: celui-ci fait de nous des êtres de plus en plus beaux moralement, l'amour n'étant au fond qu'un commerce spirituel, un dialogue efficace et fertile entre deux consciences.

IV. *Dualité de la nature humaine.*

L'homme est donc doté d'une double nature—c'est ce que Pascal nous a démontré en nous faisant voir sa misère et sa grandeur. Mais cette nature, il est nécessaire que l'homme la connaisse et sous ses deux aspects — Pascal le demande avec insistance dans le passage suivant :

> Il est dangereux de trop faire voir à l'homme combien il est égal aux bêtes, sans lui montrer sa grandeur. Il est encore dangereux de lui trop faire voir sa grandeur sans sa bassesse. Il est encore plus dangereux de lui laisser ignorer l'un et l'autre. Mais il est avantageux de lui représenter l'un et l'autre. Il ne faut pas que l'homme croie qu'il est égal aux bêtes, ni aux anges, ni qu'il ignore l'un et l'autre, mais qu'il sache l'un et l'autre" (418)

L'homme est un être contradictoire, en même temps petit et grand, il est petit et faible, non seulement par son corps (qu'un rien est capable d'écraser), mais aussi de par toutes les pensées qui lui viennent de ce corps, et qui sont inspirées par les désirs et les passions, éléments plus corporels que spirituels; l'homme est aussi grand et fort de par la Pensée pure, celle qui le sépare de plus en plus du corps et de toutes ses convoitises. Donc, l'homme est en même temps une bête par la partie corporelle de son être, et un ange à cause de la Pensée, de la profonde spiritualité à laquelle il peut aboutir

petites pensées affreusement mesquines. La bête, privée de conscience et de pensée, paraît alors de loin préférable à un tel être humain qui met sa pensée au service d'une ambition insignifiante.

Et c'est pour cette raison que Pascal, après nous avoir démontré que l'homme tire sa grandeur de la pensée, tient à nous mettre en garde contre la qualité en quelque sorte de cette pensée. "La pensée est donc une chose admirable et incomparable par sa nature. Il fallait qu'elle eût d'étranges défauts pour être méprisable; mais elle en a de tels que rien n'est plus ridicule. Qu'elle est grande par sa nature! Qu'elle est basse par ses défauts! Mais qu'est-ce que cette pensée ? Qu'elle est sotte!" (365).

On retrouve ici les deux aspects caractéristiques de la condition humaine : "nature admirable" et "d'étranges défauts". C'est donc, pour Pascal, de la sottise de ne pas faire usage de la pensée dans son sens le meilleur; car il y a des pensées foncièrement immorales : celle, par exemple, de l'assassin qui a l'intention de commettre un crime parfait. Il peut déployer toute une série de pensées ingénieuses, voire même géniales, afin de réussir son forfait; et pourtant toutes ces pensées n'auront rien à voir avec la Pensée, source de grandeur et de dignité pour l'homme.

Pascal a donc proclamé le besoin impérieux qu'il y a de tout mettre en œuvre afin de donner à notre pensée l'orientation la meilleure, la seule valable : "Travaillez donc à bien penser : voilà le principe de la morale" (347).

Nous avons d'ailleurs tout intérêt à agir ainsi, car de par notre nature même ou du moins par le côté qui fait notre grandeur, nous tenons énormément à l'estime de nos semblab

Grandeur de l'homme :

Nous avons une si grande idée de l'âme de l'homme que nous ne pouvons souffrir d'en être méprisés, et de n'être pas dans l'estime d'une âme : et toute la félicité des hommes consiste dans cette estime" (400).

En quoi consiste cette estime ? - dans l'admiration de la grandeur. Mais ce n'est pas par sa taille matérielle que la vraie grandeur de l'homme est mesurée : il y a des hommes particulièrement grands et robustes, qui sont parfaitement méprisables, parce que vides intérieurement; par contre, il est des êtres humains qui apparaissent très grands dans une enveloppe minuscule. Songeons, par exemple, à Mozart à l'âge de 6 ans, tout petit, mais immense par son génie .

Léon Tolstoï a illustré cette idée en écrivant une nouvelle dans laquelle il s'agit d'un paysan extrêmement riche et de plus en plus avide de posséder de nouvelles terres; il en a acquis déjà des quantités, lorsque tout d'un coup il meurt : il constate alors que tout ce dont il avait vraiment besoin, en matière de terre, ce n'était qu'1m 70 ...

Ne faisons pas surtout comme la grenouille de la fable de La Fontaine. Ce n'est pas en nous efforçant de croître au point de vue matériel, que nous réalisons la vraie grandeur. Tôt ou tard nous "nous dégonflerons" et même de la manière la plus pitoyable, telle la grenouille de La Fontaine. Ce n'est pas par l'espace, à savoir par la matière, que je pourrai m'agrandir; car aussi vaste que je devienne, matériellement parlant, l'espace continuera toujours à me comprendre, à m'envelopper, à m'engloutir comme un point. Même les corps sidéraux les plus grands, même les planètes innombrables incommensurables, ne sont au fond que des points minuscules, en comparaison avec l'infini de l'espace. En d'autres termes, il y a ici la même antithèse dialectique que dans le cas du premier fragment relatif au roseau pensant, que l'on retrouve d'ailleurs également dans le mythe de Sisyphe : au point de vue matériel, je suis l'esclave, l'espace étant mon maître absolu, un maître si puissant qu'il s'engloutit sans cesse, tel un point infinitésimal. Mais au point de vue spirituel, il en va tout autrement : c'est l'espace qui devient alors mon esclave et moi son maître qui le comprend, qui l'enveloppe grâce à la Pensée. Il y a donc un vrai renversement des rapports, un revirement dialectique du tout au tout entre maître et esclave.

Donc, toute la dignité de l'homme réside essentiellement en Pensée, ainsi que Pascal se plaît à le répéter à plusieurs reprises et notamment dans le fragment suivant : "Toute la dignité de l'homme consiste en la pensée" (365). Et ailleurs, Pascal insiste sur cette noblesse de l'homme qui le rend supérieur à la matière, aux animaux. "Je ne puis concevoir l'homme sans pensée : ce serait une pierre ou une brute"(339

Cependant, l'homme en vient souvent à déformer, à avilir cette chose merveilleuse qu'est la pensée en l'utilisant à des fins basses et dégradantes. Par exemple, un riche qui fait l'aumône à un pauvre avec l'arrière-pensée de se tailler une réputation de bienfaiteur, transforme en lui cette chose sublime qu'est la pensée, en une suite de calculs, c.

l'avait déjà dit Descartes dans son "*Traité des Passions de l'âme*", l'amour et la haine, le désir et les passions, même les plus basses, sont des mouvements de l'âme, et par conséquent des pensées. Mais de la pensée, elles n'ont que le nom. En réalité, un fossé infranchissable sépare de la vraie spiritualité, de la Pensée proprement dite, qui, elle, n'a rien à voir avec tout ce qui est contaminé par le voisinage du corps, comme tous ces sentiments mesquins qu'engendrent la jalousie, la haine ou la passion.

On voit donc que, selon Pascal, notre devoir le plus grand consiste à ne pas faire entrer en ligne de compte, à faire "table rase" non seulement de notre corps, mais même de tout ce qui est inférieur dans notre âme, afin de pouvoir développer, dans toute sa pureté, notre spiritualité. En ce sens, les *Pensées* de Pascal pourraient être considérées comme un autre "*Discours de la méthode*". Descartes, dans son *Discours*, a énoncé les règles de la méthode qui nous peremettent de bien conduire notre pensée au point de vue scientifique; de même Pascal insiste sur la nécessité impérieuse qu'il y a de "régler notre pensée", de ne point la laisser s'éparpiller ou s'égarer dans les chemins de la futilité, pour tendre vers un seul but : l'acquisition de notre spiritualité.

En somme, les *Pensées* établissent une distinction, une démarcation radicale entre la Pensée et les pensées : qui se laisse entraîner par les désirs et les autres sentiments qui lui viennent de son corps, l'homme qui, comme le dit Platon, applique sa pensée à des objets de moins en moins spirituels et de moins en moins hauts, se mortalise de plus en plus, sa pensée devenant de plus en plus mortelle, à la façon de son corps. L'homme dont le souci fondamental est le "réglement de sa pensée", à savoir son assainissement, son redressement, s'immortalise dans la mesure du possible : plus sa pensée s'applique à des objets sublimes, plus elle devient authentique et profonde. Comme l'a si bien dit Nietzesche, plus le contenu d'une pensée est profond, plus sa forme s'avère resplendissante et vraiment spirituelle. Or Pascal estime que le vrai agrandissement est d'ordre purement spirituel. Il nous dit par ces termes : "Je n'aurais pas davantage en possédant des terres" (348), que la possession de biens matériels ne peut nous procurer qu'un enrichissement illusoire

Pascal ira même jusqu'à s'appuyer sur la misère de l'homme pour en prouver la grandeur. "La grandeur de l'homme est grande en ce qu'il se connaît misérable. Un arbre ne se connaît pas misérable. C'est donc être misérable que de se connaître misérable; mais c'est être grand que de connaître qu'on est misérable" (397).

Voici donc nettement dégagée l'importance de la connaissance, la pensée ou la spiritualité, qui transforme notre fragilité en solidité, et notre petitesse et misère en grandeur. Et ceci est l'apanage, le privilège exclusif de l'homme, être double, être antinomique, qui est en même temps misérable de par le corps, et plein de grandeur de par l'esprit. Tous les autres êtres, à part l'homme, à commencer par les plantes et les animaux, étant privés de conscience, ne sont rien. C'est ainsi qu'un arbre, par exemple, ne se connaissant pas misérable, ne l'est pas : il n'est ni misérable, ni grand; il n'est rien, il n'a aucune teneur existentielle, aucune dignité vraiment ontologique.

Pour atteindre à la grandeur, il ne suffit pas toutefois, de se contenter de penser, ou du moins la faculté de penser doit s'exercer dans un certain sens pour faire vraiment la grandeur de l'homme.

"Ce n'est pas de l'espace que je dois chercher ma dignité, mais c'est du réglement de ma pensée. Je n'aurai pas davantage en possédant des terres : par l'espace, l'univers me comprend et m'engloutit comme un point; par la pensée, je le comprends" (348).

Dans ce court fragment, Pascal revient avec insistance sur ce point fondamental, à savoir que la dignité, la vraie essence de l'homme, ne relève point de la spatialité, mais de la pensée. Cependant, il y a ici une restriction importante, une précision à ne pas négliger, qui est contenue en substance, dans le groupe de mots "du réglement de ma pensée". Il ne s'agit pas de n'importe quelle pensée, mais d'une pensée dirigée, "réglée", purifiée.

En effet, il ne faut pas surtout croire que l'être humain possède la dignité et la liberté par le simple fait de penser. Tout le monde pense et pourtant l'écrasante majorité des humains sont bien loin d'être vraiment dignes et libres. C'est qu'il y a entre certaines pensées un véritable abime : la plupart de nous ont des pensées tellement insignifiantes et terrestres, qu'elles ont presque quelque chose de corporel d'aussi dégradant et mortel que leur enveloppe matérielle. Comme

Mais, l'attitude de l'homme est encore plus complexe, car on trouve dans chaque homme, même le plus agité, le désir d'un repos qu'il ne réalise jamais. Pascal explique cette contradiction par la coexistence en l'homme de deux instincts :

"Ils [les hommes] ont un instinct qui les porte à chercher le divertissement et l'occupation au dehors, qui vient du ressentiment de leurs misères continuelles; et ils ont un autre instinct secret, qui reste de la grandeur de notre première nature, qui fait connaître que le bonheur n'est en effet que dans le repos, et non pas dans le tumulte; et de ces deux instincts contraires, il se forme en eux un projet confus (...) qui les porte à tendre au repos par l'agitation, et à se figurer toujours que la satisfaction qu'ils n'ont point leur arrivera, si, en surmontant quelques difficultés qu'ils envisagent, ils peuvent s'ouvrir par là la porte au repos".

L'homme souhaite donc le repos, mais il ne désire pas que son souhait se réalise, car alors il se trouverait seul avec sa misère, seul avec son néant.

III. *La Pensée et la Grandeur de l'homme.*

Le tableau de la condition humaine brossé par Pascal jusque-là a revêtu des couleurs très pessimistes : il nous a démontré la misère de l'homme sous son double aspect: misère réelle due à des contingences physiologiques et misère volontaire due à son désir de fuir sa propre angoisse.

Cependant, la grandeur de l'homme par rapport au reste de l'univers est indéniable. En quoi consiste-t-elle ? — Nous avons déjà vu que Pascal condamne le divertissement parce que celui-ci empêche l'homme de penser. C'est donc la faculté de penser qui fait la grandeur de l'homme. Cette idée, Pascal l'a exprimée avec force tout au long de son œuvre, et en particulier, dans le célèbre passage du roseau pensant.

"L'homme n'est qu'un roseau, le plus faible de la nature; mais, c'est un roseau pensant. Il ne faut pas que l'univers entier s'arme pour l'écraser : une vapeur, une goutte d'eau, suffit pour le tuer. Mais, quand l'univers l'écraserait, l'homme serait encore plus noble que ce qui le tue, parce qu'il sait qu'il meurt, et l'avantage que l'univers a sur lui, l'univers n'en sait rien " (347).

Et pourtant, l'écrasante majorité des Humains ne peuvent se passer du divertissement. Il leur faut se divertir, s'éparpiller, cesser de faire attention à ce qui est le plus essentiel en eux-mêmes, et que leur révèlent justement la méditation et la contemplation, au sein de la solitude qui favorise l'épanouissement spirituel. Pascal a dit lui-même "le plaisir de la solitude est une chose incompréhensible pour les hommes". La plupart de nous ne faisons que fuir la solitude, nous fuir nous-mêmes, pour aller nous oublier au contact des autres (que ces autres soient des êtres humains, des choses, des plantes ou des animaux). Mais les autres nous éloignent de nous-mêmes, nous écartent de notre propre vérité essentielle, nous aliènent irrémédiablement.

Cette action néfaste des autres nous fait penser à la formule trouvée par Sartre dans *Huis-Clos* : "l'enfer, c'est les autres". Il est évident qu'il n'y a aucune identité de pensée entre ces deux écrivains, aucune intention commune. Cependant, ils ont mis l'accent tous les deux sur les méfaits de la présence des autres. Pour Sartre, "les autres" empêchent l'homme non-libre de se réaliser pleinement, parce qu'ils créent par leur jugement impitoyable l'enfer sur terre. Pour Pascal "les autres" empêchent aussi l'homme de se réaliser, de retrouver la vérité et la présence de Dieu. Mais, ils sont surtout le symbole de l'agitation futile à laquelle se livre l'homme pour échapper à son angoisse. Pour exprimer la pensée de Pascal, la formule de Sartre devrait être quelque peu modifiée : "les autres nous conduisent en enfer".

Par ailleurs, cet être essentiellement malheureux qui fuit la solitude et qui recherche le divertissement, a de très grandes dispositions pour oublier. Son esprit est si vain et si léger qu'il en vient effectivement à ne plus penser à ce qui quelques instants auparavant, était pour lui une angoisse intolérable, [illegible] de la moindre des choses, comme une partie de billard. Ainsi "l'homme est si malheureux qu'il s'ennuierait même sans aucune cause d'ennui par l'état propre de sa complexion, et il est si vain qu'étant plein de mille causes essentielles d'ennui, la moindre chose comme un billard et une balle qu'il pousse, suffisent pour le divertir" (139).

Enfin, l'homme est malheureux parce qu'il a oublié la grande vérité, la vérité divine, créatrice de toutes les autres vérités. Etant malheureux, il veut donc se divertir; mais en se divertissant, il plonge encore davantage dans l'oubli et devient ainsi, en fin de compte, encore plus malheureux. Il lui faudra sans cesse de nouvelles doses de divertissements chaque fois plus massives et plus désastreuses ...

l'ennui c'est-à-dire la prise de conscience de notre condition est à éviter à tout prix. Quel est l'homme capable de rester seul pendant de longues heures, plongé dans ses méditations ? Nous évitons, tel un cauchemar, un pareil état. "J'ai découvert que tout le malheur des hommes vient d'une seule chose, qui est de ne savoir demeurer en repos dans une chambre..." nous dit Pascal.

Pourquoi cette fuite du repos, cette agitation continuelle. Pourquoi les hommes aiment-ils tant le bruit et le remuement ? Sinon pour oublier l'abîme de leur misère. L'homme qui demeure longtemps seul ne peut s'empêcher de méditer, d'être assailli par mille questions cruelles portant sur l'énigme angoissante de notre existence. Le spectre du néant ne tarde pas à le visiter accompagné par celui de la mort.

Martin Heidegger, dans "*L'être et le temps*", pense que c'est à ce moment-là que nous sommes pris de ce sentiment de peur sans objet, cent fois plus atroce que la peur elle-même qui a toujours pour cause un objet précis. Le spectre de la mort et du néant commence à nous hanter. Par conséquent, le divertissement nous est absolument indispensable, afin d'oublier toutes ces réalités angoissantes qui se rendent maîtresses de nous alors.

Voilà en quoi consiste la lâcheté de la plupart des être humains. Seules les âmes héroïques,celles qui sont suffisamment armées de courage osent aller au devant de tous ces problèmes. Oser regarder le néant qu'on recèle en soi-même, l'abîme effroyable de l'infinie grandeur qu'est l'univers; oser écouter le silence éternel des espaces infinies, aussi effrayant que ce silence puisse être, voilà à quelle attitude de souverain mépris à l'égard du divertissement, doit nous amener l'amour de la connaissance et de la vérité.

En définitive, selon et Pascal et Platon, la voie qui mène à la connaissance de la grande réalité universelle, n'est autre que celle qui nous fait échapper à *l oubli*, dans lequel se trouvent plongées les âmes humaines. Pour atteindre la vérité, il nous faudra donc sortir de l'oubli, par conséquent oublier l'oubli,ce qui revient à dire que la vérité est l'oubli de l'oubli.

Or, le divertissement, étant le moyen même dont dispose l'homme pour s'oublier encore davantage, ne fait que plonger l'âme, déjà oublieuse, dans un, oubli encore plus épais et plus pernicieux en ce qui concerne la vérité et la connaissance.

Notre principal devoir consiste à "redresser" notre âme, afin qu'elle retourne à son état initial, c'est-à-dire à la vérité et à la connaissance. Autrement dit, toute la philosophie ne consiste, selon Platon, qu'à donner la possiblité à l'âme de se rappeler de nouveau, se ressouvenir de tout ce qu'elle connaissait dans une vie antérieure parfaitement immatérielle, de tout ce qu'à la naissance elle a oublié. C'est la raison pour laquelle la philosophie entière ne fait qu'ouvrir les voies à la réminiscence, grâce à laquelle l'âme sortira de son état d'oubli pour se replonger dans la vérité.

On voit donc que là où il y a oubli fondamental, concernant les questions primordiales de notre condition, il y a tout le contraire de la vérité; or, le divertissement est source d'oubli; il engendre donc le contraire de la vérité. C'est la raison pour laquelle Pascal critique avec force le divertissement qui nous écarte de la vérité,en nous faisant oublier notre vraie condition.

Mais il est temps de passer aux textes pascaliens qui éclairent toutes ces notions métaphysiques :

"La seule chose qui nous console de nos misères est le divertissement et cependant c'est la plus grande de nos misères. Car c'est cela qui nous empêche principalement de penser à nous,et qui nous fait perdre insensiblement. Sans cela nous serions dans l'ennui et cet ennui nous pousserait à chercher un moyen plus solide d'en sortir. Mais le divertissement nous amuse et nous fait arriver insensiblement à la mort" (171).

Il est aisé de comprendre la signification profonde de ce fragment. L'être humain, tant qu'il reste séparé de la divinité, en d'autres termes, tant qu'il n'a pas [illegible] infiniment misérable : c'est un néant, un rien à l'égard [illegible]. Or, la seule chose qu'il recherche dans cet état de misère qui est le sien, c'est justement d'oublier sa profonde et incurable misère en se divertissant. Mais en agissant ainsi, l'homme devient encore plus misérable, parce qu'il plonge davantage et volontairement dans l'ignorance et l'erreur. C'est pour cette raison que Pascal considère le divertissement comme la plus grande de nos misères. C'est l'opium quotidien qui nous abrutit et ainsi, nous empêche de penser aux choses essentielles. Par ailleurs, le divertissement constitue une attitude de pusillanimité, de lâcheté, tout à fait contraire à l'attitude éclairée du vrai philosophe. On veut se divertir parce qu'on a peur de s'ennuyer.

Donc, selon Voltaire, qui se trouve tout à fait à l'antipode de Pascal, le travail est notre bien le plus précieux, et justement parce que source de divertissement, c'est-à-dire de ce qui nous permet d'oublier notre condition inquiétante dans un univers mystérieux. Ne déclare-t-il pas : "l'homme est né pour l'action, comme le feu tend en haut et la pierre en bas. N'être point occupé et n'exister pas est la même chose pour l'homme." (*Lettres Philosophiques*, XXIII).

Quelle différence constatons-nous entre cette attitude et celle de Pascal ? Selon l'auteur des "*Pensées*", le travail est loin d'être un bien pour l'homme. En tant que source de "divertissement", il s'avère source d'oubli, il s'oppose donc à la prise de conscience de notre condition dans le cosmos.

Mais avant d'explorer les textes pascaliens relatifs à sa théorie du divertissement, il est curieux de constater que l'idée de se divertir est rendue également par des verbes signifiant s'éparpiller, se décentraliser, s'émietter, se fragmenter ou se morceler. L'homme qui se divertit est celui qui ne présente point la concentration d'esprit qui caractérise l'homme plongé dans une méditation profondément métaphysique. Par exemple, dans le "*Phédon*" de Platon, dialogue qui nous décrit les dernières heures de Socrate dans sa prison, nous voyons que le vrai philosophe est celui qui, fuyant le divertissement, à savoir l'éparpillement, *concentre* son âme. C'est justement cette concentration extrême, cette mobilisation totale, cette centralisation intégrale de tous les éléments de sa conscience qui permet à tout penseur digne de ce nom d'atteindre la grande vérité. Le mot "vérité" d'ailleurs, en grec signifie la sortie de l'état d'oubli, car il est formé sur un mot qui signifie oubli, précédé d'un suffixe négatif.

Selon Platon, avant notre naissance, nos âmes existaient déjà planant dans l'univers supra-sensibles et connaissant ses secrets. Mais au moment où notre âme a eu la disgrâce de tomber dans un corps mortel, elle a aussitôt oublié les connaissances sublimes qu'elle possédait jadis pour n'en garder qu'une très vague réminiscence. C'est la raison pour laquelle le nouveau-né est l'être le plus ignorant du monde : son âme immortelle a tout oublié, en entrant dans son corps; elle est tout d'un coup passée de la vérité à l'erreur, à l'ignorance absolue, tout en gardant la nostalgie, le désir de retrouver cette vérité

qui provient du fait même que l'homme est incapable de rester seul avec lui-même sans se poser des problèmes relatifs à sa condition dans le Cosmos, sans prendre conscience de son néant, sans être torturé par l'idée de mort. C'est la raison pour laquelle la plupart des hommes évitent l'ennui en s'adonnant à toutes sortes de divertissements : soit en travaillant, soit en s'amusant. L'essentiel est de se divertir pour oublier leur condition tragique, leur destinée, l'idée odieuse qu'un jour ils ne seront plus que poussière

Au cours du XVIII[e] siècle, un penseur aussi pratique et aussi peu métaphysicien que Voltaire, a mis l'accent sur la nécessité du *travail*, sur le besoin impérieux qu'il y a de "cultiver notre jardin". Dans la plupart de ses contes et particulièrement dans "*Candide*", Voltaire a voulu démontrer qu'il est parfaitement vain de se poser des problèmes d'ordre métaphysique, tels que l'existence du bien et du mal, l'immortalité de l'âme, la nature de Dieu, etc.; car ce sont des problèmes qui sont parfaitement insolubles en tant que dépassant l'intelligence humaine. La seule attitude vraiment sage pour échapper à l'angoisse comme au fanatisme, consiste à se taire et à "cultiver son jardin" (au point de vue matériel et intellectuel), car le travail éloigne de nous, non seulement le besoin et le vice, mais aussi et surtout "l'ennui". Voltaire se situe donc entre deux extrêmes : d'un côté l'optimisme exagéré de Leibniz et Wolff, et de l'autre le pessimisme foncier de Pascal (lequel pessimisme représenterait d'ailleurs une attitude stérile, puisqu'il empêche l'homme d'agir en le condamnant à une inactivité ennemie du progrès).

D'ailleurs, toute sa vie durant, Voltaire, qu'on a surnommé à juste raison, l'anti-Pascal, a attaqué l'auteur des *Pensées*. La XXV[e] de ses "*Lettres Philosophiques*" intitulée "Remarques sur les *Pensées* de Pascal", n'est qu'une suite de critiques le plus souvent indirectes, mais non moins virulentes, contre cette œuvre. De plus, en ce qui concerne "le divertissement", et plus particulièrement le travail, qui n'est qu'une forme de divertissement, nous trouvons dans la lettre XXIV une attaque qui ne laisse aucun doute sur la personne qui en est l'objet :

"... il est plutôt l'instrument de notre bonheur que le ressentiment de notre misère. N'est-il pas plaisant que des têtes pensantes aient pu imaginer que la paresse est un titre de grandeur, et l'action un rabaissement de notre nature ?"

II. *Le divertissement et ses méfaits.*

Cependant, le facteur le plus puissant de fausseté et d'erreur pour l'homme s'avère *le divertissement*. Selon Pascal, l'homme a infiniment besoin de se divertir, afin d'oublier sa condition tragique :

"Les hommes n'ayant pu guérir la mort, la misère, l'ignorance, ils se sont avisés, pour se rendre heureux, de n'y point penser". (168)

Comment arrivent-ils à ne point penser sinon en se divertissant?

Selon l'auteur, le plus grand devoir de l'homme, c'est de prendre conscience de sa condition dans l'univers. Nous avons déjà vu que l'homme en comparaison avec la grandeur infinie du Cosmos, est un infiniment petit, un néant. C'est justement cette constatation, ou cette prise de conscience, qui devient source d'angoisse et même d'effroi. N'osant pas affronter les terrifiants problèmes de l'existence, la plupart des mortels essayent de *se divertir*.

Dans son sens moderne, le divertissement est distraction, il fait oublier à l'homme ses soucis. C'est ainsi que la danse, les jeux, la chasse etc... sont autant des moyens d'oublier nos misères, notre condition tragique d'êtres placés dans un univers mystérieux et inconnaissable. Prenons, comme exemple, ce divertissement qu'est la danse : comme nous le dit Pascal, la danse est source d'oubli, étant donné que dans ce cas "il faut bien penser où l'on mettra ses pieds". (139).

C'est la grande théorie pascalienne du divertissement, considéré comme l'allié le plus précieux de l'oubli, de l'erreur et de l'ignorance en ce qui concerne la vérité de notre condition humaine.

Mais le sens moderne du mot divertissement ne traduit pas toute la pensée de Pascal. Il faut remonter à l'étymologie du mot "divertir" formé sur le verbe latin "diverter" qui signifie détourner", et c'est d'ailleurs le sens qu'il a conservé jusqu'à la fin du XVI^e^ siècle. Au XVII^e^ siècle, son sens s'est précisé en "se détourner de ses occupations". Cependant, le sens que donne Pascal à ce mot, est encore plus précis. Le divertissement c'est tout ce qui empêche l'homme de prendre conscience de son néant dans l'univers. L'homme qui ne se divertit pas est condamné à "l'ennui" — ce dernier mot ayant le sens fort du XVII^e^ siècle de "tourment". Et ici encore, il nous faut apporter une précision sémantique : pour Pascal, l'ennui est un tourment particulier, c'est celui

Pascal s'écrie, plein d'amertume et d'angoisse. "l'homme n'est qu'un sujet plein d'erreur, naturelle et ineffaçable ..." (83). Autrement dit, l'état naturel de l'homme est l'ignorance. Celle-ci est ineffaçable dans la grâce divine, sans la Révélation.

"Rien ne montre à l'homme la vérité. Tout l'abuse; ces deux principes de vérité, la raison et les sens, outre qu'ils manquent chacun de sincérité, s'abusent réciproquement l'un l'autre. Les sens abusent la raison par des apparences; et cette même tromperie qu'ils apportent à la raison, ils la reçoivent d'elle à leur tour : elle s'en revanche. Les passions de l'âme troublent les sens et leur font des impressions fausses. Ils mentent et se trompent à l'envie" (83).

Mais quelles sont les puissances trompeuses de l'homme, les facultés ou les fonctions mentales qui ne lui permettent pas d'atteindre la vérité ?

Pascal commence par nous dire que tout trompe l'homme à commencer par les sens et la raison. En ce qui concerne la raison, nous avons déjà vu qu'elle est incapable d'atteindre la vérité parce que foncièrement incapable de saisir l'infini.

Quant aux sens, ils nous trompent, étant donné que la réalité qu'ils nous montrent est loin de correspondre à la vraie réalité des choses. On n'a qu'à songer, par exemple, au phénomène de la réfraction pour s'en convaincre.

De plus, les sensations extrêmes nous échappent complètement. "Nos sens n'aperçoivent rien d'extrême trop de bruit nous assourdit, trop de lumière nous éblouit, trop de distance et trop de proximité empêche la vue... nous ne sentons ni l'extrême chaud ni l'extrême froid" [illegible]

Mais ce n'est pas tout : il y a en plus les passions de l'âme qui s'avèrent une source encore plus grande de fausseté. Un homme passionné est encore plus loin de la vérité qu'un homme à l'état normal (la passion joue dans la vie affective le même rôle que celui de la folie, de l'idée fixe dans la vie intellectuelle).

Bref, tout abuse l'homme : Pascal cite parmi ces puissances trompeuses, l'imagination "maîtresse d'erreur et de fausseté", la coutume "seconde nature qui détruit la première", les désirs et l'amour-propre. Ce dernier ne nous permet point d'être objectifs, abolissant en nous la lucidité, la possibilité de voir clair

C'est l'état qui nous est naturel et toutefois le plus contraire à notre *inclination*; nous brûlons du désir de trouver une assiette ferme et une dernière base constante pour y édifier une tour qui s'élève à l'infini, mais tout notre fondement craque et la terre s'ouvre jusqu'aux abîmes" (72).

Pascal insiste ici sur le fait que malgré notre tendance spirituelle fondamentale, celle qui nous pousse à connaître la vérité, nous sommes néanmoins condamnés à l'erreur, à l'impossibilité d'aller jusqu'au fond des choses. La vérité absolue, synonyme de certitude et d'évidence, s'avère inaccessible à notre raison. Voilà pourquoi l'ignorance est l'état qui nous est naturel, et cela malgré notre instinct de vérité. Bien que nous n'ayons point de cesse de désirer la vérité et de tout faire en vue de la saisir, il s'avère malheuresement qu'aucun point ferme ne s'offre à nous, aucune assise n'est capable de servir de fondement à l'immense édifice du savoir.

Notre condition tragique consiste à bâtir celui-ci sur un terrain aussi peu ferme que celui qui craque et qui s'ouvre jusqu'aux abîmes. C'est qu'il est impossible de construire sur le gouffre de l'infini, de l'inconnaissable.

Même les choses les plus connaissables, les plus claires et les plus distinctes (de prime abord du moins), une fois que nous en avons approfondi la structure, se révèlent tout d'un coup comme cachant dans leur sein l'abîme de l'infini; en d'autres termes, elles manifestent tôt ou tard une grande brèche, une fissure ou même une faille. Et ces choses que nous croyions tout à l'heure connaître parfaitement, s'avèrent à présent des mystères, des énigmes dont la solution fuit infiniment devant nous.

"Ne cherchons donc point d'assurance et de fermeté, notre raison est toujours déçue par *l'inconstance des apparences*, rien ne peut fixer le fini entre les deux infinis, qui l'enferment et le fuient." (72)

L'expression : "inconstance des apparences" est bien significative en ce qui concerne la conception pascalienne. En effet, bien des choses ont l'air de comporter certitude et fermeté, limité et cognoscibilité. Cependant, il n'en est rien, et leur fini apparent, leur caractère de finitude se révèle tout autre à un examen plus approfondi. Rien ne peut fixer l'infini, le limiter, le définir, en permettre la connaissance; à son tour le fini, étant pris entre deux infinis, se révèle infini lui-même, et par conséquent, parfaitement inconnaissable.

Mais laissons parler Pascal lui-même :

"Voilà notre état véritable, c'est ce qui nous rend incapables de savoir certainement et d'ignorer absolument. Nous voguons sur un milieu vaste, toujours incertains et flottants, poussés d'un bout vers l'autre. Quelque terme où nous pensions nous attacher et nous affermir, il branle et nous quitte; et si nous le suivons, il échappe à nos prises, nous glisse et fuit d'une fuite éternelle. Rien ne s'arrête pour nous." (72)[1]

Pascal veut dire par là que l'être humain, que caractérise avant tout la passion de la curiosité et du savoir, tend irrésistiblement à comprendre les choses; mais pour ce faire, il lui faut certaines constantes, c'est-à-dire certains points fixes, certains points de repère.

L'homme croit d'abord à ces points fixes, à ces points d'appui, et essaye désespérément de s'y raccrocher. Hélas, en vain : aussitôt ils glissent entre ses mains et disparaissent, ou fuient emportés dans une course folle : c'est que toute réalité est en même temps grande et petite, vu la loi universelle de la relativité. Bien plus, toute chose doit être considérée en rapport avec l'extrême grandeur et l'extrême petitesse, à savoir avec les deux pôles de la substance cosmique, puisque toute chose est en même temps infiniment grande et infiniment petite, comparée à d'autres choses.

Toute réalité est donc inconnaissable pour l'homme, puisque, en lui, vibre tout l'infini du grand et du petit, qui reste imperméable à la raison humaine; car, comme le dit Pascal, "les choses extrêmes sont pour nous comme si elles n'étaient point" (72).

Voilà donc en quoi la condition de l'homme est tragique : poussé sans cesse vers la connaissance des choses, il se heurte à chaque instant à l'inconnaissable. Comme le dit Pascal lui-même : "les choses fuient devant nous", devant la recherche qu'entreprend notre raison : "Rien ne s'arrête pour nous" (72). L'essence de l'univers et des choses étant l'infinitude, l'homme se trouve à chaque moment au bord d'un abîme; sa raison s'avère impuissante à percer quoi que ce soit d'essentiel.

---

1. La numérotation des pensées adoptée ici est celle de l'édition classique de Léon Brunschvicg, Hachette, 1897.

REGARDS SUR "*LES PENSEES*" DE PASCAL

Par

L O T F Y   F A M

L'union du corps et de l'esprit, qu'on appelle en langage philosophique : "l'union substantielle", est l'apanage de l'homme. C'est seulement dans le cas de l'être humain que la matière se trouve unie avec l'esprit: l'homme est un composé de corps et d'esprit, ou encore de corps et de conscience.

Au contraire, tous les autres "êtres" (à savoir les choses, les plantes, même les animaux, considérés par Descartes comme des automates, c'est-à-dire comme des organismes privés d'âme) ne sont que purement matériels. Quant à Dieu, c'est une Entité uniquement spirituelle.

Donc, seul l'être humain est un mélange de corps et d'esprit. Or, nous savons que l'homme n'est capable de comprendre ni le corps ni l'esprit. Il s'ensuit que l'homme est foncièrement incapable de se comprendre lui-même, puisqu'il se trouve être corps et esprit tout à la fois.

Ce problème primordial, puisque sa solution donnerait la clef de notre condition d'homme, a depuis la création du monde préoccupé divers penseurs, suscité différentes philosophies ou religions. Pascal, par sa condition de mystique, devait être amené à s'intéresser à la question et même à y consacrer toute sa vie.

1. *L'homme et la connaissance.*

Pour Pascal, le drame de l'homme, sa condition tragique est de ne pouvoir connaître quoi que ce soit, alors qu'il a en lui un instinct indestructible de curiosité, une perpétuelle soif de comprendre.

Tiddeman, R. H., "The valleys of Lancashire'. Geol. Mag. vol. 5 (1868), 39—40.

West, R. G., "The glacial and Interglacial deposits of Norfolk". A chapter in the "Geology of Norfolk", (1961), 365—375. edit. by Larwood G. P. and Funnell G. M.

Westby, J. E., "The eleventh report of committee on erratic blocks". Adv. Sci. (1883), 136—146.

Wills, L. J., "The palaeogeography of the Midlands". Univ. Press. of liverpool, (1950), p. 108.

Wright, G. F., "The Ice Age in North America". Ohio (1911), 5th edit. p. 24.

Wright, W. B., "The Quaternary Ice Age". London (1937), 2rd edit, p.74.

Zeuner, F. E., "The Pleistocene Period". London (1959), p. 139.

Edwards, W. and Trotter, F. M., "The Pennines and adjacent areas". Brit. Reg. Geol. (1954). 3rd edit., p. 68.

Geikie, J., "The Great Ice Age". London (1894). 3rd edit. p. 17.

Gibson, W., and Wedd, C. B., "The geology of the northern part of the Derbyshire Coalfield..." Mem. Geol. Surv. (1913), p. 102.

Goodchild, J. G., "Glacial erosion". Geol. Mag. vol. 12 (1875), 323—32[illegible].

Green, A. H., and others, "The geology of the Yorkshire Coalfield". Mem. Geol. Surv. (1878), p. 776.

Harmer, F. W., "The distribution of erratics and drift". Proc. York. Geol. Soc. vol. 21 (1928), 79—150.

Howarth, J. H., "The Ice-borne boulders of Yorkshire". The Naturalist, (1908), 97—99.

Jowett, A, and Charlesworth, J. K., "Glacial geology of the Derbyshire dome". Quart. Jour. Geol. Soc., vol. (1929), p. 307.

Jukes — Browne, A. J., "The geology of part of East Lincolnshire". Mem. Geol. Surv. (18[illegible]), p. 7[illegible].

Kendall, P. F., "Geology of Yorkshire in the Victoria History ...". London (1907, 1—47.

Kendall, P. F. and Wroot, H. E., "The geology of Yorkshire". 2 vols. Vienna (1924), p. 450.

Lamplugh, G. W., "On the drifts ..." The Naturalist, [illegible].

Lewis, G. M., "Evolution of the drainage of the Don Basin". Unpublished M. Sc. Thesis, Univ. of Sheffield. (1954). p. 58.

Penck, A. and Brukner, E., "Die Alpen im Eiszeitalter". 3 vols., Leipzig (1909).

Raistrick, A., "Late-glacial and Postglacial time in Yorkshire". The Naturalist, (1931).

Shaw, A.A.W., "Geomorphological studies of the area drained by the ..." Unpublished Ph. D. Thesis. Univ. of Sheffield (1957), p. 131.

Straw, A., "The glacial sequence in Lincolnshire". East. Mid. Geog. No. 9 (1958), 29—40.

Straw, A., "The Quaternary evolution of the lower and Middle Trent". East Mid. Geog. No. 20 (1963), 171—189.

Straw, A., and Lewis, G. M., "Glacial drift in the area around Bakewell, Derbyshire". East. Mid. Geog. No. 18 (1962), 72—80.

Swinnerton, H. H. and Kent, P. E., "The geology of Lincolnshire". Lincoln. Nat. Union. (1949).

BIBLIOGRAPHY

Abou el-Enin, H. S., "The Geomorphology of the Moss Valley ...." Unpublished M. A. Thesis, Univ. of Sheffield, (1962). p. 113.

Abou el-Enin, H. S., "Some aspects of the drainage evolution of the Moss Valley, Northeast Derbyshire". The Northern Univ. Geog. Journal., No. 5 (1964, 43—54 (A).

Abou el-Enin, H. S., "An examination of the evolution of surface forms in the area drained by the Sheaf......". Unpublished Ph. D. Thesis, Univ. of Sheffield, 1964 (B), 104—130.

Antevs, E., "The Last Glaciation". Amer. Geog. Soc. Res. Ser. No. 17 (1928) p. 54.

Carruthers, R. G., "The secret of the glacial drifts" Part I. Proc. York. Geol. Soc. Vol. xxvi (1947), 224—251.

Carruthers, R. G., "The secret of the glacial drifts" Part II. Proc. York. Geol. Soc xxvii (1948), 129—172.

Carter, W. L., "The glaciation of the Don and Dearne Valleys". Proc. York. Geol. Soc., Vol. 15 (1905), 411—445.

Corbett, H. H., and Kendall, "Report of Committee on erratic blocks". Adv. of sci. (1896), 372.

Cosmo Johns, "A York shire glacial problem". The Naturalist, (1905), 243—245

Culpin, H. and Grace, G., "Recent exposures of glacial drift ....." The Naturalist, (1904), 325—327.

Dakyns, J. R., "On the glacial phenomena of the Yorkshire Upland". Quar. Jour. Geo. Soc., vol. 28 (1872), 382—398.

Dalton, A. C., "Glacial evidence of the Sheffield Area". N. W. Naturalist, (195[illegible]), 38—54.

Easter-field, T. H., "A glacial deposit near Doncaster". Proc. York. Geol. Soc., vol. 8 (1883), p. 212.

Eden, R. A., and others, "The geology of the country around Sheffield". Mem. Geol. Surv. (1957), p. 152.

Edwards, W., "Geology of the district north-east of Leeds". Mem. Geol. Surv. (1950), 5[illegible]—69.

FIG. 5

DISTRIBUTION OF ROUNDED ROCK-FRAGMENTS
AT WORTLEY

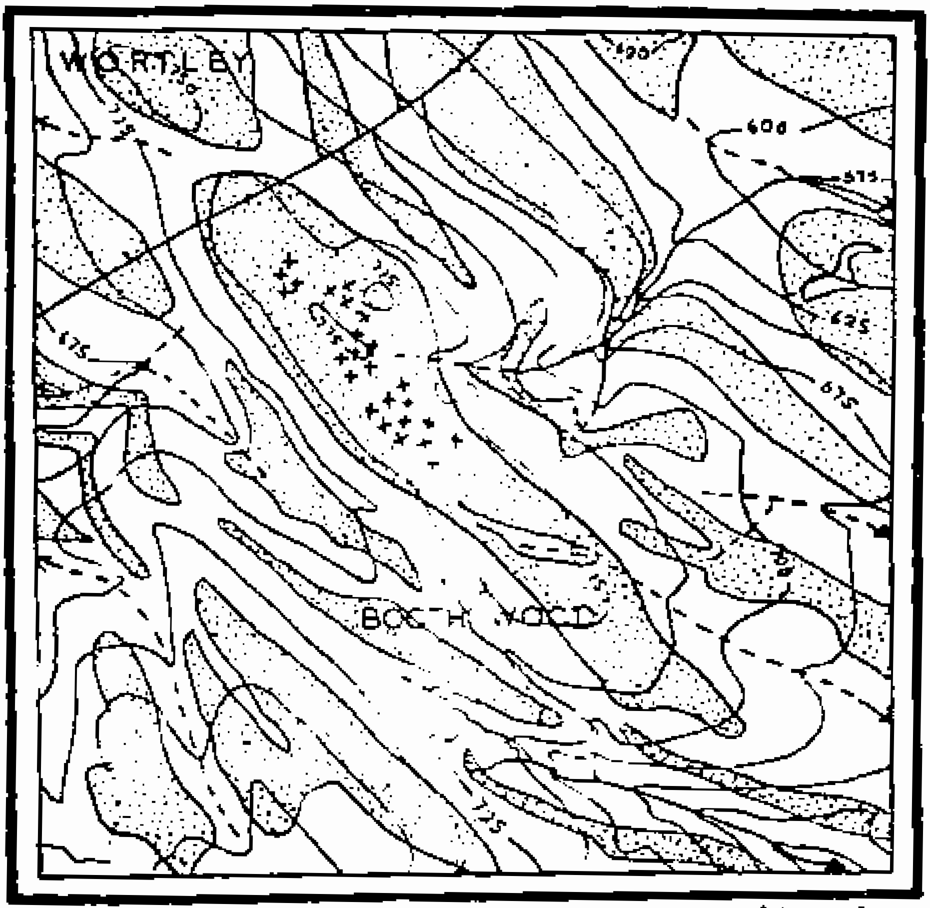

KEY AS IN FIG. 3

FIG. 4

DISTRIBUTION OF ROUNDED ROCK-FRAGMENTS
AT WELL HOUSE LANE

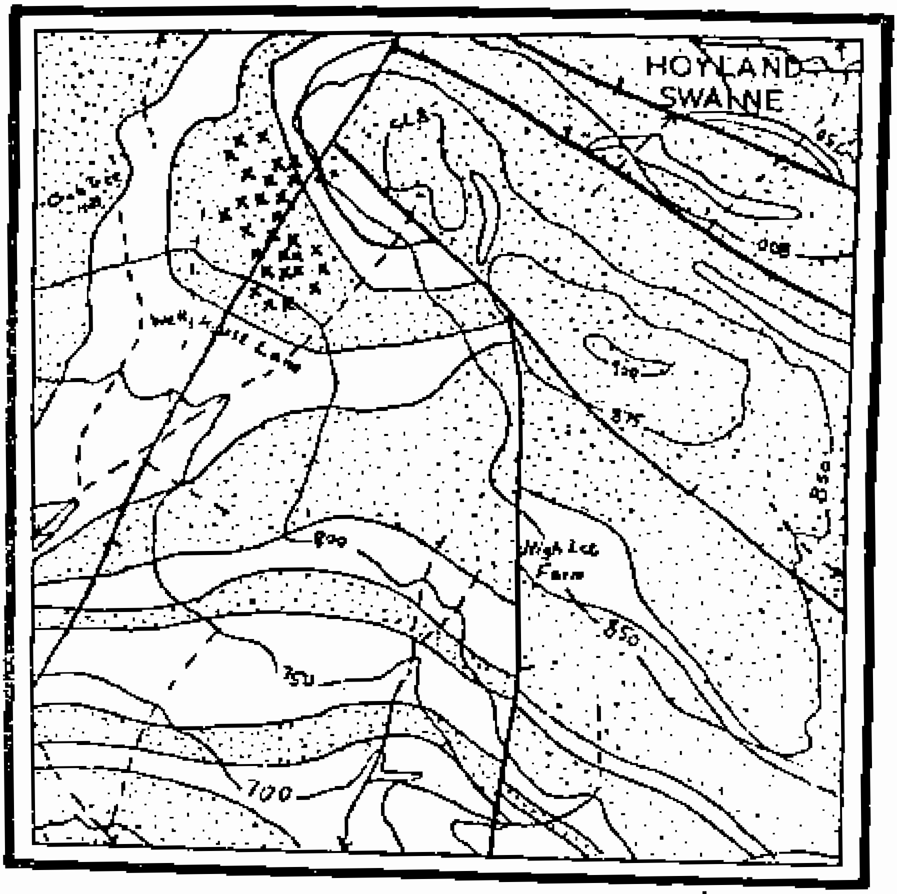

(Hassan).

KEY AS IN FIG. 3

FIG. 3

DISTRIBUTION OF ROUNDED ROCK-FRAGMENTS
TO THE SOUTH OF NORTON

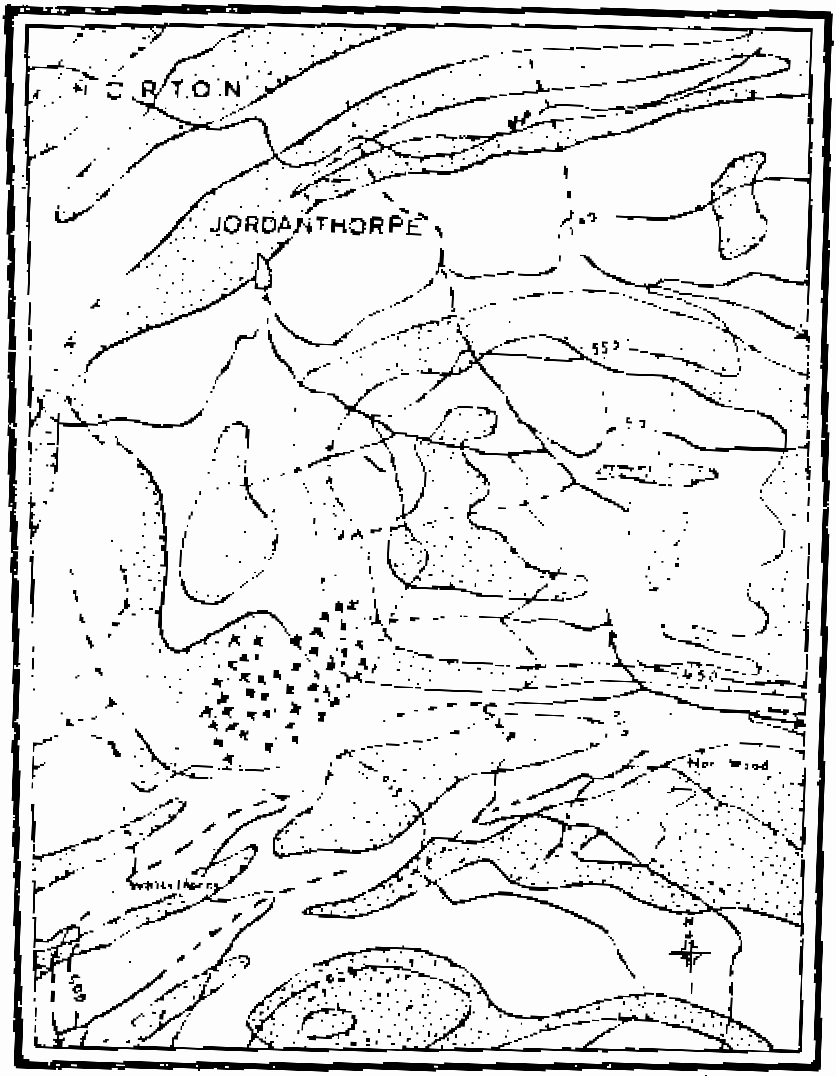

(Hassan)

LOWER COAL-MEASURE SANDSTONES

SHALES.

ROUNDED FRAGMENTS OF LOCAL ROCKS.

CONTOURS

STREAMS.

DRY VALES.

SCALE.

0 ¼ ½ MILE.

FIG. 2

DISTRIBUTION OF ROUNDED ROCK-FRAGMENTS AT CROSSPOOL

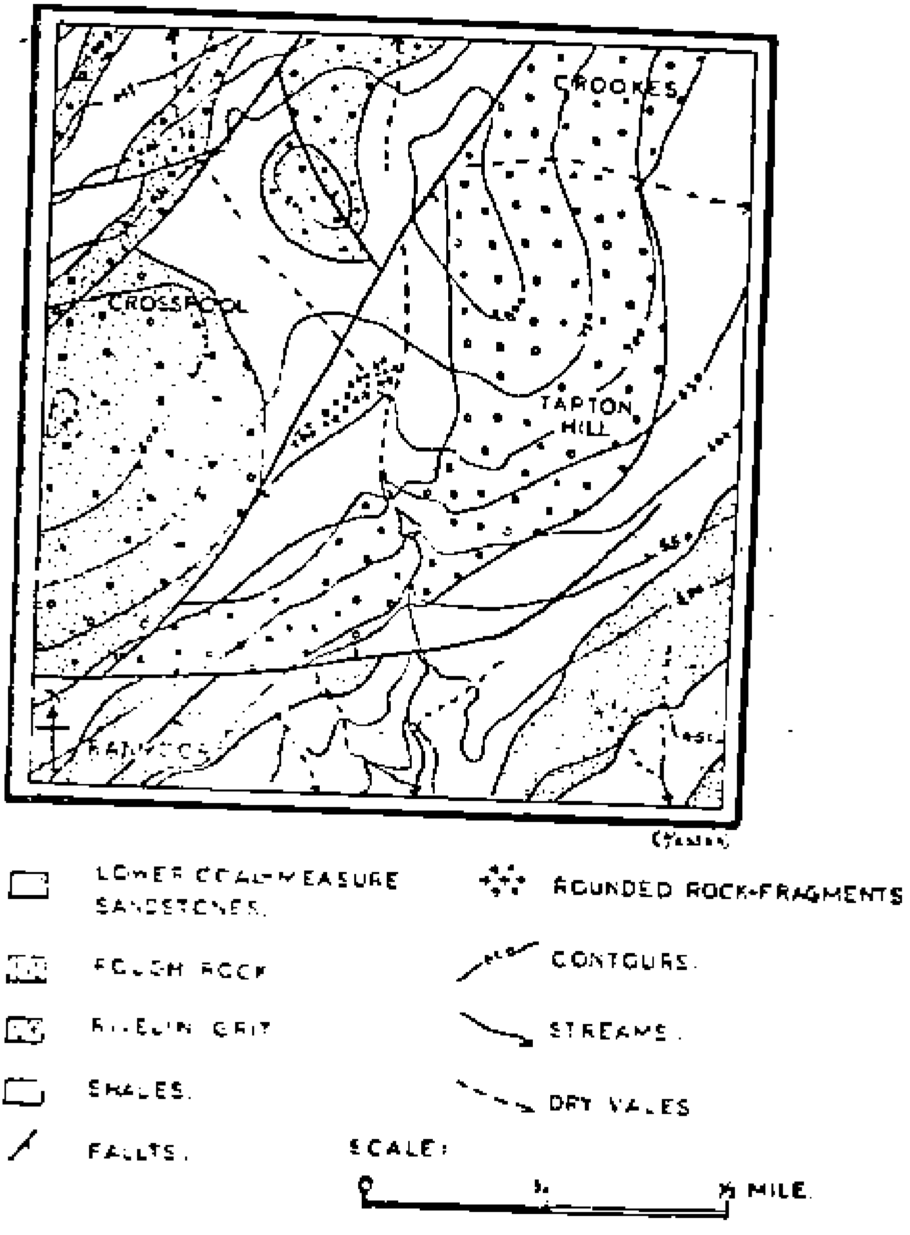

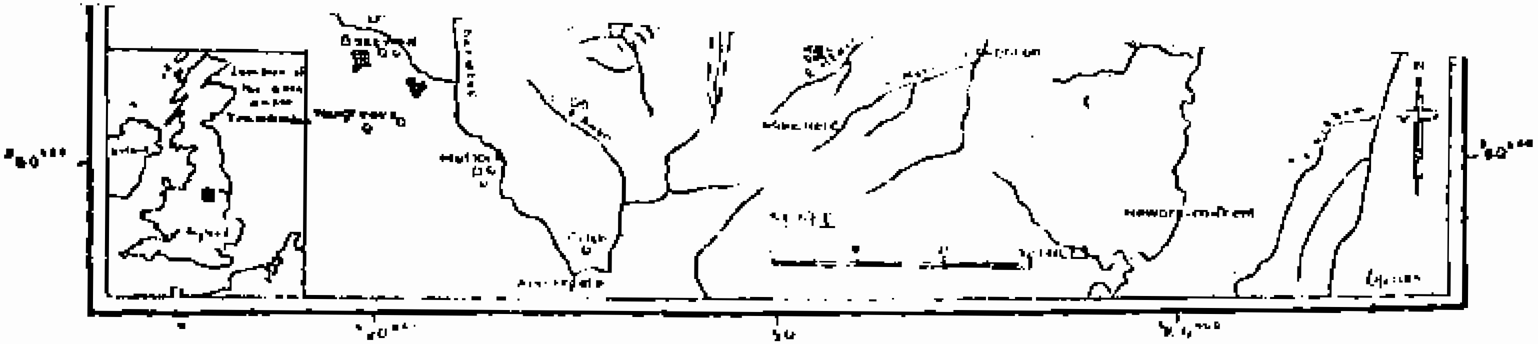

SAND AND GRAVEL

TILL OR BOULDER-CLAY

ABUNDANT PEBBLES OF GLACIAL ORIGIN.

ERRATIC BLOCKS OR PEBBLES

LOCAL TRANSPORTED ROCK-FRAGMENTS

ICE-FRONT OF THE LAST GLACIATION

ICE-FRONT OF STAINMOOR ... OF CARTER, 1905.

DON-ROTHER LAKE OF CARTER, 1905.

STREAMS.

POSSIBLE CHRONOLOGY

1 — LAST GLACIATION

PENULTIMATE GLACIATION

2 — ANTE-PENULTIMATE GLACIATION

FIG. 1.

LIMIT OF THE LAST GLACIATION AND DISTRIBUTION OF GLACIAL DRIFT AS RECORDED BY DIFFERENT AUTHORS IN THE SHEFFIELD AND ADJACENT AREAS.

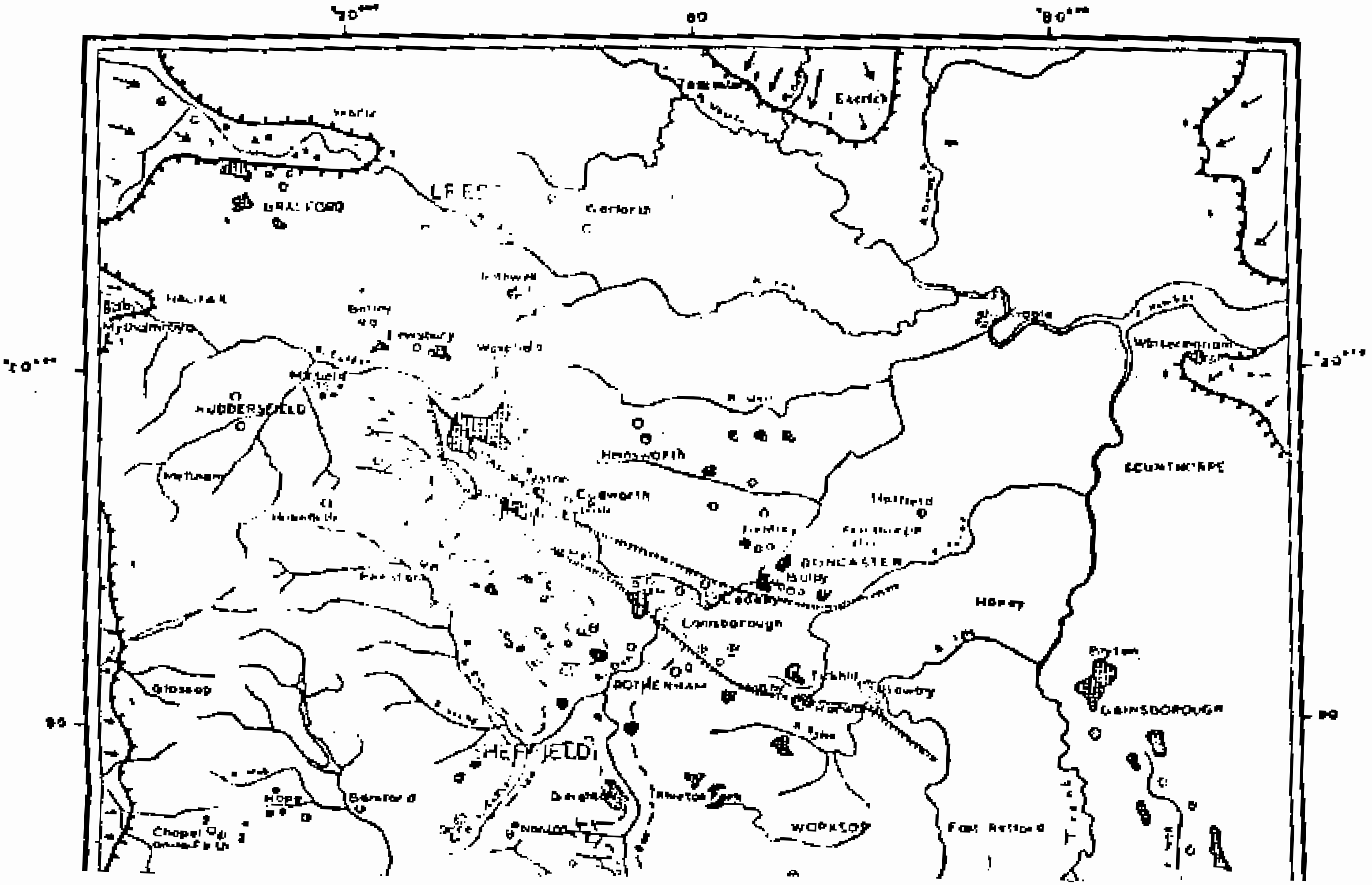

Pleistocene or Glacial.	*Newer Drift*, probably equivalent to Warthe-Weichsel Stage of North Germany.	In two main stages, represented in the Vale of York by glacier-advance, Periglacial condition in Sheffield area.
	Interglacial Period.	Valley cutting and dissection of Older Drift.
	Older Drift, probably equivalent to Saal and earlier stages of North Germany.	Extension of northern glaciation across the Sheffield area and into the Midland in "Catuvelaunian" time.
		No details of earlier sequence of events.

A CORRELATION AND TENTATIVE CHRONOLOGY OF THE DRIFTS AND GLACIAL EVENTS IN SOUTHWEST YORKSHIRE, AND IN SOME OTHER PARTS OF ENGLAND

The complexity of the drifts, the absence of sections showing superposition of different age, are some of the difficulties attending classification and correlation, while to these must be added the problem that the Quaternary sequence not only in England but also in Western Europe is itself still imperfectly understood. However, it is now generally accepted that the British glacial deposits can be distinguished into Older and Newer Drift, the former associated with Ante-Penultimate and "mainly" Penultimate Glaciations of Zeuner (1957), and the later with his Last Glaciation.

Table I is an attempt to correlate the Pleistocene chronology of the British Isles suggested by Zeuner (1957), with the Pleistocene events of Norfolk, the Leeds District, the Don Basin, the Rother Basin and the research area under consideration, as proposed by West (1961), Edwards (1950), Lewis (1954), Shahin (1957), and the present writer, respectively.

In the Sheaf, Upper and Middle Don Basin, no conclusive evidence regarding the date of the glacial drifts has been formed, but they are broadly considered to be Older Drift. However, much evidence of periglaciation has been observed, and it is considered that the research area was subjected to extensive periods of periglaciation during the Last Glaciation.

One mile to the south-east of Wortley at Booth Wood (Figure 5), several rounded fragments were also observed in 1963, occupying the interfluvial area though mainly situated in the floor of a possible wind-gap between the upper Black-burn Brook and the Little Don. The fragments were composed of the local sandstone and stand at a height of 775 feet O.D. They were generally well -rounded and brown to deep-brownish in colour. Their origin is still doubtful, but they are perhaps more likely to be river deposits than glacial drifts.

Westby (1883 P. 137), observed a patch of boulder-clay containing Millstone Grit, Coal Measure and New Red sandstone erratics, sandstones with casts of brachiopods and pieces of Magnesian Limestone, at Crosspool (altitude 730 feet O.D.), 1 1/2 miles west of Sheffield. Similar materials were found in the same location, later by C. Johns (1905 P. 245) who claimed a Lake District origin for some of the rocks, and that the general character of the series rather suggested the Vale of York glacier. This locality was re-examined in 1963, and it was found to be much built over. However, several rounded fragments mainly of sandstone and gritstone were observed, lying on a bench-like feature at a hight of 730 feet O.D. (Figure 2). The fragments do not occur on the higher surrounding ground, and their location downslope may refer to their movement by erosional processes. Due to the fact that glacial deposits only found in this locality and that such variety of deposits has not been seen by the present writer, their positive origin and age are still doubtful.

It is of some interest to mention that Carter (1905 P. 411) traced the passage of the Stainmore Glacier and Pennine Glacier until it blocks the Don at the Conisbrough gorge, thus impounding the water of the Don and Rother into a glacial lake to a height of 300 feet. (Figure 1). Recent evidence (i.e. the distribution of drifts) does not favour the former existence of such a lake, and Carter's hypothesis has rejected by many writers (e.g. Lamplough, 1913, Dalton, 1953, and Shahin, 1957).

It is obvious that efforts to reconstruct the history of the area under consideration during the Pleistocene are hampered by the fragmentary nature of unreliable evidence. However, Eden (1957 P. 152), adapted a recently compiled table (Edwards and Trotter, 1954 P. 68), to the special conditions of the Sheffield area, and it is summarised as follows :—

unglaciated area. But at several localities there exist patches of a material resembling boulder-clay, a sandy and gravelly clay which might be full of boulders and fragments of sandstone and grit. All the consituents are of local derivation but in some cases they show by their composition that they must have been transported some distance from their source. Most of these deposits lie at the bottom of long gentle slopes where they probably accumulated under periglacial mass-movement processes. This may also account for the distribution of scattered boulders of grit which have travelled some distance from their present outcrop.

It is convenient, therefore, to discuss some of the deposits which may be of glacial origin within the area under consideration, and to their nature and sites, with some reference to previous descriptions when possible.

Near Well House, on an erosion surface relic to the east of Penistone Lewis (1954 P. 58) found pebbles of Lake District and Yorkshire Dales origin between 800 and 830 feet O.D. Similar pebbles were also found by him at approximately 650 O.D. at Jordanthorpe and Greenhill and he considered both of them to be associated with the Older Drift of the Penultimate Glaciation of Zeuner.

The sites at Well House and Norton were re-examined in the field in 1963 (Figures 3 and 4). The fragments are largely of well-rounded and sub-rounded sandstones, and located on the resistant sandstone outcrops. At Well House, they stand at a height of 830 feet O.D. and at Whitethorns they are at a height of 570 feet O.D.

The present writer believes (1962 and 1963) that these deposits can alternatively be interpreted as river deposits for the following reasons

a) The deposits in both of these localites occur in the floor of possible wind-gaps between the Don and Little Don, and the Moss and the Drone, respectively.

b) Examination of these pebbles, revealed that they are composed of local sandstone rock, that they are not faceted, and they do not possess cracks, striations nor sharp edges

c) The present writer failed to find erratics or foreign rocks amongst them.

Because the Older Drifts occur on high ground, and not on the sides or in the bottom of the main valleys, it is inferred that an interval of denudation and valley-cutting followed their deposition. Further, because glacial deposits, fresher in appearance than the Older Drift, lie in the bottoms of the main valleys, it is inferred that this interval lay between the two periods of glaciation. Such an interval is recognised in the southern parts of England as succeeding the "Great Eastern Stage" or the Penultimate Glaication, of the Older Drift, and preceding the Newer Drifts of the Last Glaciation. It is called the "Great Interglacial" by Wills, (1938; P. 232), the "Ipswichian Interglacial" by West, (1961), and is considered to be of Riss-wurn age by Zeuner, (1937, P. 139 and 1959).

B — DISTRIBUTION OF GLACIAL DEPOSITS IN THE SHEAF, UPPER AND MIDDLE DON BASINS

The area under consideration is well-dissected by river erosion, but to what extent glacial conditions have affected the valleys is difficult to assess. The effect, too, of recent erosion and fluvial conditions is problematic, though it may be assumed that these account for much of the scarcity of glacial evidence. Reviewing the evidence in south Yorkshire, Kendall (1907) points to difficulties of interpretation, fairly because of its extremely fragmentary character, secondaly because of remarkable mixture of erratics in the drifts from so many widely-separated localities, travelling by very different routes.

For the Sheffield Area, Dalton (1953 P. 40), claimed that, though surrounded by a variety of glacial evidence it appears to be "an oasis singularly bare of anything glacial". He also considered it to be remarkable that such important valleys as the Don and Rivelin in the east of the Pennines and the upper reaches of the Derwent and Noe in the west, are singularly bare of glacial evidence, though a few erratics are recorded in them.

The present writer considers therefore, on the basis of this evidence, that the south-eastern part of the Pennines south of the River Calder, and particularly the area under consideration, appears never to have been invaded by an ice-sheet: and its general aspect is that of a typically

5. *The Wye Basin* :

Though glacial deposits within the Wye Basin are not widely distributed they are of great significance. They are mainly found around Bakewell and Buxton at heights of 800 and 1200 feet O.D. respecively, and are generally composed of Peak District materials. In view of their location on high ground, and their patchy relict character, they are believed to corresppnd with the "Older Drift" of the Ante-Penultimate of Zeuner (Table 1)

However, Straw and Lewis (1962 P. 78) have claimed that the drifts around Bakewell may be classed as Older Drift, probalby having been emplaced during the Penultimate Glaciation, for the fact that till has been presever fairly extensively around Bakewell suggests its emplacement in later rether than earlier Older Drift times. The degree of dissection of the drift is also no greater than that which affects the Chalky boulder-clays of Penultimate age in parts of Lincolnshire, Northamptonshire and Rutland.

6 *The Upper Derwent Basin* :

Unlike the Wye, the upper Derwent does not possess positive evidence of glaciation. However, erratics were found, here and there, to reveal parts of the story of an earlier glaciation, which probaly corresponds with Zeuner's Ante-Penultimate Glaciation. These erraties were noted and recorded in different places by Jowett and Charlesworth (1929), Gibson (1913 P. 102) Wedd (1913) and Harmer (1928), and their sites and location are indicated in Figure I.

7 *The Aire-Calder Basin* :

The drift deposits in Aire-Calder Valleys are wide spread and of a diverse character, but may be referred, on the basis of physical features and disposition in relation to topography, to two main groups, the deposition of which appears to have been separated by a long time interval. The first group, the earlier drifts, includes pathces of boulder-clay and gravel which lie on hill tops throughout the greater part of the area. The second group, the later drifts includes river deposits in the valley bottoms, strand-line gravels along the west side of the Vale of York, and the bedded sands, silts and clays which cover much of the vale of York below the level of about 25 feet. O.D.

corresponding to the Penultimate Glaciation of Zeuner (1959). However, other patches of boulder-clay, 3 miles of Hemsworth on the west valley side of the River Went, were mapped by Lewis (1954) as remnents of the Newer Drift of the Last Glaciation.

3. *The Dearn Basin* :

The Dearn Basin, as a whole is poor in drifts but a sufficient number of patches of both boulder-clay and glacial gravel have survived denudation to show that at one time most if not all the area was covered by ice. To the west of Barnsley at Eastfield, Mitchell (1947 P. 131) noted that there are occasional boulders of Lake District rocks and transported blocks of local grits such as those at Wharncliffe Wood above the Don.

In a triangular area immediately to the north of Barnsley in the upper Dearn Basin, bounded by Royston in the north, Carlton in the east and Staincross in the west, patches of boulder-clay and erratics including Shap Granites have been described by many geologists, such as Green (1878), Carter (1905) and Harmer (1928). (Figure, 1).

4. *The Rother Basin* :

The most important deposit within the Rother Basin is that occupying the crest of a hill, south of the village of Beighton on the 200-foot contour. It consists of some 35 feet of very varied and gravel and boulders, the finer sands having laminae of fine coal-detritus. Green (1887 P. 59), classed these gravels as "Drift" and noted that he found igneous rocks in the red loamy and clayey deposit which overlies the gravels and sands on the south side and suggsts the former presence of a superimposed boulder-clay, which he related to the red boulder-clay at Kiveton, only a short distance to the east.

The exposure has been recently re-examined by Shahin (1957 P. 131) who concluded that the sand and gravels may possibly be river deposits. He claimed that the false-bedding was due to the swinging of the river (probably braided) across its floor: that the erratics embedded in the sand and gravels might have been carried to the Beighton Area by the eastern tributaries of the Rother from the boulder-clay deposits on the eastern watershed; that the red loamy material can be explained as finer grade materials deposited under cold conditions and possibly in frozen-over pools. Consequently, he claimed that these deposits may, therefore be river deposits developed under periglacial conditions.

1. *The Lower Trent Basin* :

This includes a great deal of the western part of Lincolnshire for the lower Trent descends northward from Newark-upon-Trent until it enters the Humber. It receives most of its tributaries on the left hand, namely the Rivers Poulter, Idle and Torne. The lower Trent Basin contains drift referred to as "Older Drift". (Jukes-Brown, 1887 p. 79; Swinnerton and Kent, 1949). Straw (1958 and 1963) has noted that the Older Drift always occupies the interfluvial crests and has been subjected to extensive dissection, whilst the Newer Drift is to be found only in the northern extremity of Lincoln-shire. (Figure 1).

The major exposures of glacial deposits are found on the interfluve of upper Torne and Idle, Around Tickhill,Bawtry, Haworth and Maltby and east of Gainsborough. The maximum height of these clays would appear to be about 225 feet, but most are much lower, about 50--100 feet O.D

2. *The Lower Don Basin* :

Unlike the Upper and Middle Don, the Lower Don Basin shows evidence of glaciation. Boulder-clay and erratics, some of Lake District origin have been recored. The main exposures are those found in and around Doncaster District. (Figure, 1).

To the south-west of Doncaster at Balby, boulder-clay was first described by Easterfield (1883 P. 212) as a tough dark blue clay, packed with boulders up to a half-a-ton in weight. Corbett and Kendall, (1896 P. 372), noted that in the unstratified boulder-clay of Balby erratics are generally well striated and composed of Magnesian Limestone, Coal-Measure Sandstones, Ironstone, Chert, Millstone Grit, Carboniferous Limestone, Lake District Andesites, and Red Granite. This deposit was re-examined later by Carter (1905), Heward (1908, P. 180), Kendall and Wroot, (1924 P. 480), Harmer (1928 P. 134) and more recently by Dalton (1953) and Lewis (1954).

To the south of Rotherham, Green (1878 P. 776) described glacial deposits and erratics and Culpin and Grace (1906 P. 325) reported numerous Lake District and Carboniferous erratics scattered on the surface of the fields near Cusworth Park on the north side of the Don.

In view of the patchy character of these drifts, and their position on higher ground, mainly above the 100-foot contour, it may be broadly stated that the drift deposits within the lower Don Basin are Older Drift.

warm-climate fossils, but are otherwise indistinguishable from those which have already been referred to as resulting from summer thaws of the glacial episodes.

Outside the limits of ice advance were formed periglacial features, including solifluction material, dellen, coombe-features, landslides (Abou el- Enin, 1962, 1964 and 1964D), cambers, gulls, ice -wedges, etc. After the withdrawal of glacier ice, and when the milder climate prevailed the short record of Postglacial time is found in peat-bogs, river deposits and alluvium, cover sands, cave earths and archeological remains.

Owing to the scantiness of these traces in the area drained by the Sheaf, Upper and Middle Don, evidence from a large adjacent area has to be utilised in an attempt to develop a tentative chronology of the Pleistocene glacial events. This area has as its boundaries a line joining Buxton, Bradford, Hull, Lincoln, and Newark-upon-Trent. (Figure 1). Thus strata traversed from west to east, across this area are the Carboniferous Limestone, Millstone Grit, Coal Measures and Permian systems. Each outcrop gives a unique land surface offering varying conditions for the preservation of glacial evidence.

Drift deposits have been recorded from many parts of the above selected area, but the Sheaf, Upper and Middle Don Basins, are surprisingly free from drift. Dalton (1953 p. 40) described this area as "an oasis singularly bare of anything glacial." Consequently, discussion of the drifts can be conducted under two headings, firstly, in the adjacent area which bears reasonable evidence of former glaciation, and secondly, in the area under consideration from which firm evidence is lacking.

A — DISTRIBUTION OF GLACIAL DEPOSITS IN THE ADJACENT REGIONS

The following account is a summary of some of the recorded glacial and associated features observed by other workers. It is convenient to discuss the glacial deposits occurring in each individual river basin within this selected area, and it is possible to formulate a chronological sequence which may throw light on Pleistocene history, which in turn, facilitates the understanding of the evolution of the surface and drainage.

These difficulties are partly the result of the great complexity of the subject to be presented in a few pages, to the indefinite nature of some of the conclusions, and of the scattered and incomplete nature of the actual evidence. Wooldridge (1945) stated that later advances of ice, in part destroyed the evidence of earlier periods, or buried it.

As opinion stood in the early 20th Century, most geologists leaned to the view that the glaciation was interrupted by at least one interglacial epoch, during which the climate of any particular latitude became as warm, and perhaps warmer than it is now. While others in Britain (Geikie, 1894, and W.B. Wright, 1937) in America (G.F. Wright, 1911 and Antevs, 1928) and in Germany (Penck and Brunckner, 1909), claimed that two, three, four or even five interglacial epochs, with a corresponding number of glaciation may be recognised in the glacial sequence.

In opposition to these views a smaller number of glacialists urged that there was no proof of even a single absolute interruption of the glacial conditions from the beginning to the end of the Pleistocene period. They claimed that the evidence indicated only one great glaciation, during which there were wide oscillations of the margins of the ice-sheet in different places, due probably to more or less local circumstances. This monoglacial approach was initially supported by Lamplugh (1906 P. 311). Carruthers (1947 and 1948), and Raistrick (1951 P. 1), revived this approach in studying the glacial geology of north-eastern England.

According to the orthodox view, however, the Pleistocene Glacial period embraced a number of climatic oscillations, from cold "glacial" to warm "inter-glacial". In the glacial episodes, great ice-sheets grew in the mountains of the British Isles, and in Scandinavia, and spread out into the lowlands. Beyond their limits in the extra-glacial regions tundra conditions prevailed, and yearly floods of melting snow and ice carried great volumes of gravel and sand down the valleys. The deposits so formed are collectively termed "glacial drift". The regions from which the ice travelled and the directions it took to reach a given place can be determined by tracing the "erratic blocks" and "boulders" back to the out-crops from which they were derived.

Interglacial episodes of milder climate are held to have intervened between the glaciations. They caused the melting away of the ice-sheets, completely or in part, and are recorded by valley-gravels that contain

GLACIAL AND ASSOCIATED FEATURES IN THE SHEAF, UPPER AND MIDDLE DON BASINS, SOUTH-WEST YORKSHIRE

By

HASSAN ABOU EL-ENIN, *M. A., Ph.D.*

INTRODUCTION

In the British Isles, and in the countries of north-western Europe there are many long recognised widely and irregularly distributed. superficial deposits of clay and sand. These vary in thickness from a few to some hundreds of feet, and contain stones and pebbles foreign to the localities in which they occur. Earlier geologists believed that the deposits in question (which rest upon rocks of all ages) had been laid down during a vast deluge by what was called" waves of translation." The term "diluvium" so came into use. Gradually, as more became known about ice and its work, geologists almost without exception began to rename "diluvium" as "drift." However, they proposed conflicting suggestions on the origin of the drift. Two schools of thought could be distinguished, one holding the view that the drift is chiefly, if not wholly, due to land ice, (Dakyns 1872 and Goodchild, 1875), and the other that the more important part of deposition was played by marine ice in the form of icebergs and coast ice acting while the land was partly submerged (Tiddeman. 1868 — 1872).

Though the Ice Age is the last great episode in the geological evolution of the British Isles, and in terms of geological time took place only lately, geologists have found extraordinary difficulties in constructing the exact sequence of events during and since the time when ice-sheets overwhelmed the greater part of the British Isles. Wills (1950 P. 108) referred to these difficulties by saying..

> "Though for many years, I made the study of the Midlands in the Glacial period my main object of research, I feel that the present chapter is most difficult to write."

22. Kees, op.cit, p.179.

23. Posener, op.cit, p.282.

24. Breasted, op.cit, p.216.

25. Gardiner, op.cit, p.163.

26. Breasted, op.cit, p.218.

27. Aldred, C., The Egyptians, London, 1961, p.38.

28. Posener, op.cit, p. 8 hawkes & Woolley, Prehistory and the Beginning of Civilization, London, 1963, pp. 430—436.

29. Gardiner, op.cit, p.255.

30 Posener, op.cit, p.279.

31. Kees, op.cit, p.199.

32. Breasted, op.cit, p.443.

33. Kees, op.cit, p.205.

34. Breased, op.cit, p.310.

35 Kees, op.cit p.343.

36 Newbary, P. E., A short history of Ancient Egypt. London, 1907, p.95.

REFERENCES

1. Baumgartel, E. J., The Culture of Prehistoric Egypt, London, 1947, P. [illegible]

2. Ibid, P. 24.

3. Alimen, H., The Prehistory of Africa, London, 1957, P. 105.

4. Baumgartel, Op. Cit, P. 220 Childe, G., What happened in History. London [illegible] 1941, P. 92

5. Alimen, op. cit, p.104-Huzayyin. S., The Place of Egypt in Prehistory Cairo [illegible] 1941, P.300.

6. Alimen, op. cit. p.117.

7. Baumgartel, op. cit, p.37.

8. Ibid, p.50.

9. Alimen, op. cit. p.119.

10. Ibid, p.125.

11. Kees, K., Ancient Egypt, London, 1961, p. 159.

12. It should be pointed out that Lower Egypt, from the political and administrative point of view in ancient Egypt, was not simply identical within the Delta proper, but it included the transit zones around the apex of the Delta Ibid.p.34.

13. The "nomes" of the Delta were united together into two Kingdoms before the foundation of the Kingdom of Lower Egypt [illegible]

14. Gardiner, A., The Egypt of the Pharaohs, Oxford, [illegible] p. [illegible]

15. Breasted, J. H., A History of Egypt, London [illegible] p. 34.

16. Ibid, p.85

17. Ibid, p.86

18. Posener, G. A Dictionary of Egyptian Civilization, London. 1962. p 179.

19. Kees, op.cit, p 147.

20. Ibid, p.29.

21. Posener, op.cit. p.166.

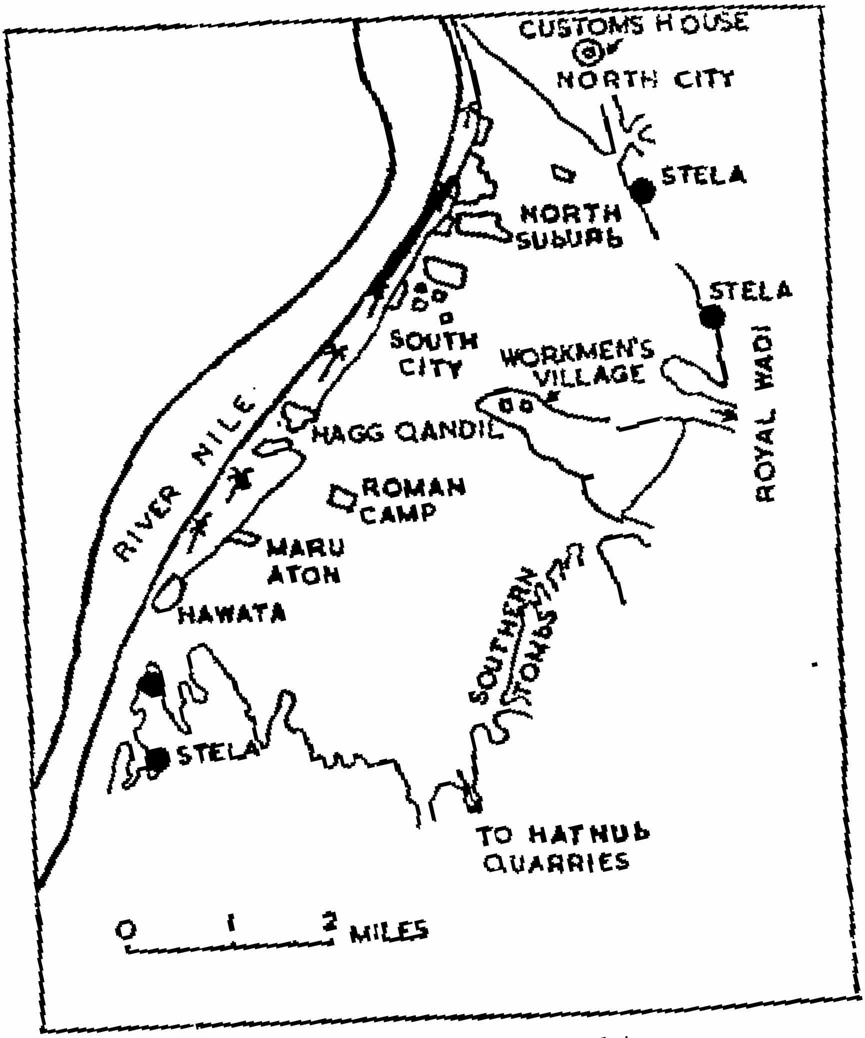

FIG. 3. AFTER PENDLEBURY.

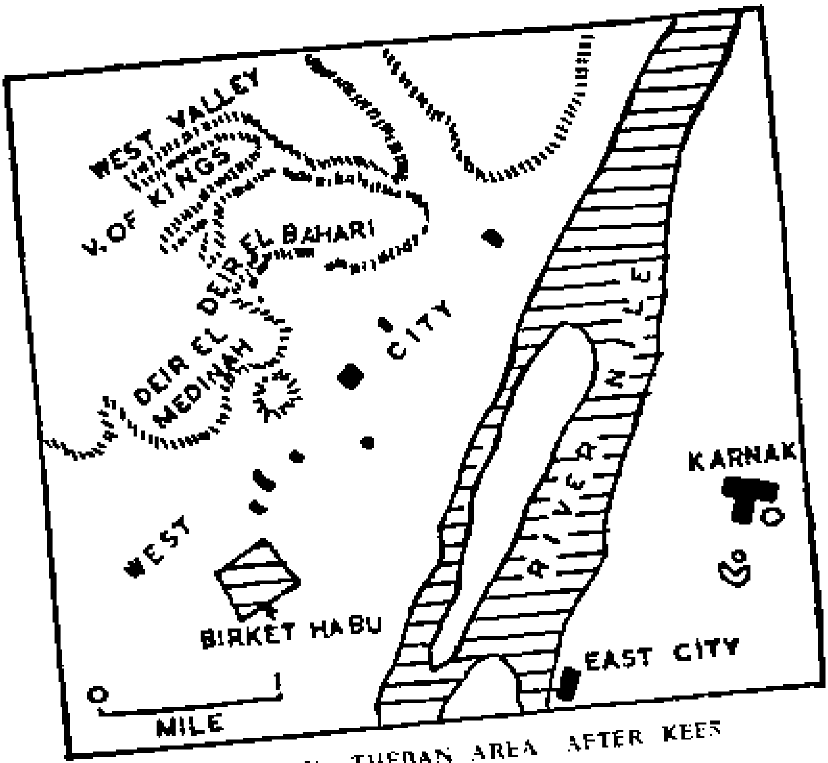

FIG. 2 THE THEBAN AREA AFTER KEES

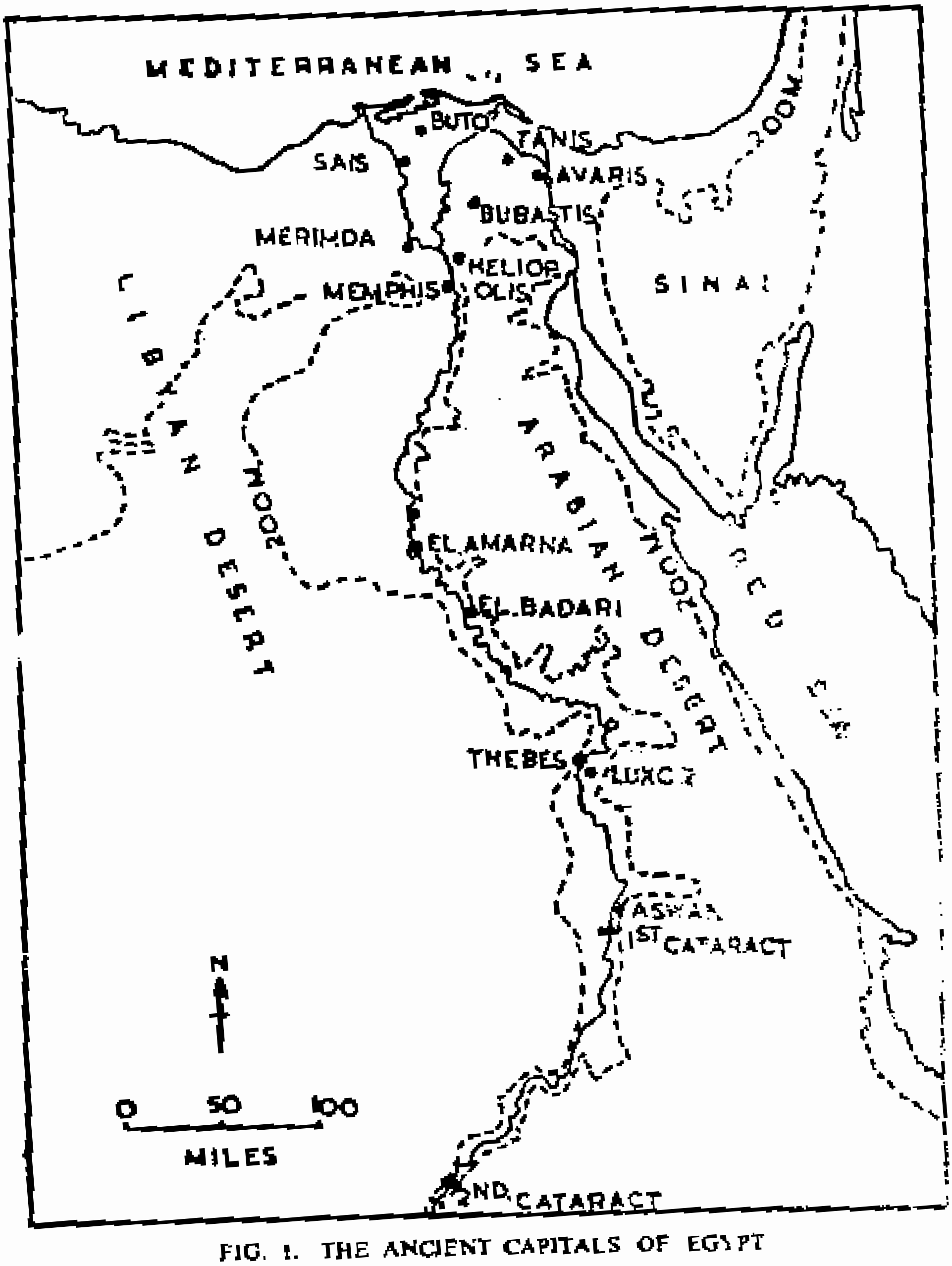

FIG. 1. THE ANCIENT CAPITALS OF EGYPT

gious influence is shown in the shifting of the adminsitrative centre from one place to anther, e.g., from Memphis to Thebes-to Akhet Aton-to Thebes again. The military pupose is the main reason behind the foundation of Memphis on the western side of the Nile at the apex of the Delta, for the constructin of Avaris in the Eastern Delta, and for the selection of Napata to be the capital of the Ethiopian empire. The political factor is connected with the religious and military factors, so that it is difficult to separate it from the others. However, its influence is apparent in the dividing of Egypt into fourty-two nomes, each of which had its own "chef lieu". In conclusion it should be realised that the site of the Egyptian capital was always chosen with regard to the river Nile, the main source of water.

Second Dynasty in 945 B.C. Although the High Priest of Theben still exercised undisputed religious authority, the city had politically become a backwater (34). Bubastis continued to be the chief administrative centre in Egypt until the centre of activity shifted to Sais (near from Kafr El Zayat) with the Twenty-Fourth Dynasty and later to Napata when the Ethiopians kings were dominant 722 B.C 663 B.C.

Napata was situated a short distance down stream from the Fourth cataract. It was founded at the head of the caravan route leading to the interior of the Sudan and in a remote position in order to develop without much-danger of any interference from the north. The transference of leadership from Napata to Meroe later on was probably due to the stagnation of Ethiopia's political and economic relations with Egypt (35).

The Ethiopian kings were unable during their rule from the south, to suppress the mercenary lords of Lower Egypt who continued to rule. It was in the midst of these conflict that the Assyrians entered the Delta and subdued the country (670 B.B—662 B.C) in a period contemporary with the last yars of the Ethiopians

IX. *The restoration 663 B.C – 525 B.C*

This was the age of power in which the native party endeavoured to restore the old glories of the classic age before the Ramesside empire Again the seat of power was in the Delta at Sais, the native town of Psamtik and his descedants (36). It became a great and splended city, adorned with temples and palaces, whilst Thebes no longer possessed either political or religious siginificance.

X. *The Persian conquest 525 B.C — 332 B.C*

The kings, who depended upon Greek mercenaries for their rule, failed to save Egypt from the Persian conquest in 525 B.C Egypt was left helpless by the conflicts of the preceding centuries. She lived for a time under the Persians and the Ptolemies, till she became the granary of Rome, when Alexandria flourished and the history of the ancient-capital of Egypt closed

Conclusion

The site of the ancient capital of Egypt is determined by three factors, namely, the religious, military and political factors The reli-

VII. *The Ramesside period (the foundation of Tanis) 1350 B. C — 1150 B. C*

After the recovery from the religious revolution Egypt was governed from the Delta by the Ramessides kings under whose rule Egypt possessed as much of an Asiatic empire as at any other period in her history (29). The capital during this time was Pir-Ramses or "House of Rames". Its location is not certain but it has been though he identical with Tanis. At the present time there is a controversy over where or not was Tanis was first a Hyksos fortress under the name of Avaris, and whether it later became the city of Ramses (30). Although the origns of the town are unknown, one thing is certain: Ramsis II. built a new town in the Eastern Delta on ground belonging to an estate of Amon-Re. This land could have been the "Field of Tanis" when the Theban kings drove out the Hyksos (31). Moreover, the site of the town must have been to the eastern frontier, for a poet of the time singing of its beauties refers to it as being between Egypt and Syria and at the same time being accessible to sea faring traffic (32).

Tanis flourished until the Roman time and contined to act as the seat of administration for the eastern nome in succesion to its role as royal residence. It continued also to demonstrate its military utilty in spite of the fact that the key position in the the defensive system of the Eastern Delta had been advanced to Pelusim at the mouth of the ancient Bubastite branch of the Nile (33)

VIII. *The decadent period (Egypt under foreign rule) 1150 B. C — 662 B. C*

Under a series of weak Ramessides, the country rapidly declined and power passed to the High Priest of Amon. Thus from the end of the XX Dynasty until 945 B. C Egypt was governed from two separte capitals, Thebes in the south and Tanis in the north. The god Amon, who had been adopted at Tanis, was regarded as the possession of the Theben god and the political power of Thebes was repesented accordingly

By the middle of the 10TH century B.C, the "chiefs of the Meshwesh" who were closely akin to those Libyans whom Merenptah and Rameses. III. had repelled with such difficulty, ruled Egypt from the Delta at Bubastis (Zagazig). Shesbonk I., a Libyan mercenary commander, gained the throne and became the founder of the Twenty-

unexpectedly out of the Eastern Delta and subdued the country by force without a battle (24).

Now "the land of Egypt came into the possession of the polluted and no lord became king" (25). The Hyksos made one of themselves king (Salatis) and he constructed a chief base at Avaris to the east of the arm of the Nile near Bubastis. He set up his capital there on the extreme east of the Delta and not at Memphis or any other central position in Egypt in order to be on a site close to the borders of Asia. He thought that the Assyrians who had then the greatest power might invade the Delta, so that he must choose his chief centre on the wadi Tumilat, the natural route from Asia. Another reason was that the Hyksos might from this centre rule their Asiatic dominons as well as Egypt (26). They also could retreat from this site, as they did later, to Palestine and Syria. All the Above mentioned probablitics throw light upon how the Hyksos chose the site of their capital in the Eastern Delta in order to meet their political and military needs.

VI. *The New Kingdom (the Theben supermacy and the religious revolution* 1580t*B.C.* 1350 *B. C.*

For the third time the fate of Egypt was determined by the people of Upper Egypt. The Theban kings (Eighteen Dynasty) were able to liberate Egypt from the Hyksos' domination about 1580 B.C. and consequently Thebes became "paramount among the cities of Egypt, and Amon-Re, the principal deity at Karnak, at last vindicated his right to the title King of the Gods" (27). However, this supermacy did not continue during the reign of Amenophis. IV. (Akhanaton) 1377 B.C—1960 B.C who worshipped "Aton" (the sun). In 1370 B.C he founded a new town for his personal god Aton and removed his residence to it from Thebes or the city of the Brightness of Aton", as it was called during this time. This town, which was called Akhet-Aton "Horizen of Aton", is known in modern times as Tell El Amarna. He chose as its site a bay in the cliffs about three hundred miles to the north of Thebes. At this point ,the cliffs leave the Nile in a semi circle, retreat some three miles from the stream and return to it again after five miles. In this wide plain which is bounded on the west by the river and the other sides by the cliffs, Akhnaton built his capital which lasted as long as his heresy (28). So after twenty years at „Akhet-Aton" he transferred his court again to Thebes.

III. *The Old Kingdom and the first intermediate period 2980 B. C 2160 B. C.*

The importance of Memphis as a political and military centre, controlling the river and caravan routes, increased during the Old Kingdom. Thus it became the "chef lieu" of Egypt during the period 2895-2360 B.C. It should be noted that the kings of the first two Dynasties did not rule from Memphis but from their homeland, Upper Egypt. They kept only to Memphis the function of a fortress. Memphis became the administrative capital "par excellence" during this era, especially during the time of the 6th Dynasty. Traffic from all the branches of the Nile came to its port, to such an extent that the Treasury of Thebes found it was necessary to have an agency there (21). Moreover in the New Kingdom and in the later periods, until Alexandria was founded in 332 B.C. it continued to be the foremost city of Egypt and the stronghold which all invaders, Ethiopians, Assyrians and Persians, had to capture before gainig any real mastery over Egypt. The city of Memphis covered, during its supermacy, an area about one and three quarter miles in length and three quarters of a mile in breadth (22). Stituated 17 miles south of Cairo it is now nothing but nearly flat land shaded by palm trees.

IV. *The Middle Kingdom and Thebes 2160 B C 1788 B. C*

By the end of the intermediate period the unity of Egypt disappeared owing to the internal conflict between different rulers. In 2040 B C the Theben Menthuhotps restored the lost unity and from that date Thebes began to be the chief centre of the country. Very little is known of its early beginnings except that it was the capital of the 4TH nome of Upper Egypt. In antiquity Thebes was called the "Amon City" because Amon "King of the Gods" and throne there. Thebes replaced Memphis after the expulsion of the Hyksos, as the great political and religious centre and soon became the capital of Egypt (23). After 664 B C the Assyrian invasion Thebes declined and never recovered again. At the present time the remains of Thebes at Luxur include Deir El Bahari on the left bank of the Nile and Karnak on the opposite bank.

V. *The second intermediate period (the Hyksos invasion and the foundation of Avaris) 1788 B.C. — 1580 B. C.*

About 1675 B.C. before the end of the Thirteen Dynasty, the Hyksos poured into the Delta from Asia. These Asiatic invaders came

THE ANCIENT CAPITALS OF EGYPT
(4241 B.C = 332 B.C)

By

Dr. YOUSRY EL GOWHARY

The purpose of this paper is to discuss the change in the site of the Egyptian capital between 4241 B.C-and 332 B.C. and to show how the religion, politics and foreign relations of the country influenced the removel from one place to another of the "chef lieu" of Egypt. The morphology of capital will not be discussed here according to the lack of data. In 4241 B.C. the calender was introduced to the Egyptian life, and this date may be considered the time from which one can trace the beginning of the Egyptian civilization (I) whilst the foundation of Alexandria in 332 B.C marked the beginning of the Greek and Roman period as well as reprsenting another phase in the history of the Egyptian capital. The period between 4241 B.C. and 332 B.C can be divided from a historical point of view into ten stages during which the site of the Egyptain capital changed many times.

I. Predynastic period before 3400 *B.C* (*the earliest settlements*).

There is very little to be said a bout the capital of Egypt during this period because we do not know whether the prehistoric Egyptians formed small communties or states (2). The earliest phase of Egyptian culture so far known is the Deir Tasa and the Badari in Upper Egypt and the MerimdeBeni Salama in the West Delta. Although these sites represent the Egyptian Neolithic age (3). Baumagriel pointed out that the Badarian site was not a regular settlement but something in the nature of a temporary encampment(4), whilst Alimen mentioned that some sort of urban orgainisation was evident at Mermide Beni-Salama station (5). Amratian (Nagada I), Gerzean (Nagada II), and Maadi were other cultural centres during the predynastic period. Like Badarian, the settlements of Amratian were small in size (6) and no plan of the village or town can be made out (7). However, "from the importance of the Amratians' cemetery and from the position of its gods" some writers have concluded that Nagada played a dominant role and that it was a capital (8). The

CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION

PAGE

1 — *Dr. YOUSRY EL GOHARY*

The Ancient Capitals of Egypt (4241 B.C — 332 B.C) 3

2 — *HASSAN ABOU EL-ENIN*

Glacial and Associated Features in the Sheaf, Upper and Middle Don Basins, South-West Yorkshire .. 17

3 — *LOTFY FAM*

Regards sur "*Les Pensees*" de Pascal 35

4 — *MOHAMED GAMIL ARIF*

Le Theatre du Second Empire, Expression des Mythes d'une Societe Bourgeoise. 59

5 — *CATHARINA MOMMSEN*

Goethe and the Arab World 77

BULLETIN

OF THE FACULTY OF ARTS

Vol. XIX

1965

All requests for copies of this Bulletin should be made to the Librarian of the Faculty of Arts, Alexandria University, Communications regarding contributions should be addressed to Prof. Gamal El-Din El-Shayyal Dean of the Faculty and Editor of the Bulletin.

ALEXANDRIA UNIVERSITY PRESS

1966